المقالات النادرة

الجزء الأول

عباس محمود العقاد



جمهرة مقالات

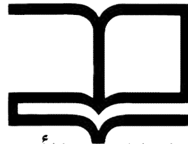
محمود عباس العقاد

الجزء الأول

(مصير الحضارة)

جمع وترتيب وتعليق

محمد حامد



(قروش) فكرية مهداة إلى (القروش) النقدية!

الشعور السعيد

أسعد الشعور ما امتزج فيه شعور الإنسان بنفسه وشعوره بغيره، أو ما كان فيه الشعور بالغير ضربا من الشعور بالنفس. ومن هذا القبيل شعور الأب بابنه والحبيب بحبيبه والمشهور بشهرته: يرى نفسه في غيره ويرى غيره في نفسه، فيلتقي فيه الرضى عن النفس والرضى عن الدنيا. وهما تمام الرضى الذي يحيل الألم والشقاء سروراً وسعادة.

كراهة الأخيار

قد يكون الشرير الذي يشتد بغضه لأهل الخير من أقرب الأشرار إلى الأخيار. لأنه يحس بما فقد ويحس بما امتاز به غيره فيحسدهم. والحسد إعجاب معكوس، أما الشرير الذي لا يبغض أهل الخير فإدراكه للخير قليل، وطلبه للامتياز والرجحان ضعيف.

حرية الفكر

فرق بين من يجترئ على العقائد الراسخة لقوة في نفسه، وبين من يرتاب فيها لتحلل في طبيعته يعجزه أن يمسك العقيدة القوية ويحتويها.

إصابة الجاهل

الساعة المعطلة تكون أضبط الساعات جميعا في لحظة من اللحظات، وكذلك العقل الصغير الخابي يصيب مرة حيث لا تصيب كبار العقول.

أنانية الشيوخ

دين المنفعة يغلب على الشيخوخة لأنها عهد الضعف والأدبار، لا لأنها عهد الخبرة والمعرفة.

العظماء

حاجة الناس إلى العظيم حاجتهم إلى إرضاء غرورهم لا إلى إرضاء غرور العظيم.

الشعر والشيخوخة

إذا قال الشيخ لا حاجة بي إلى الشعر فلا ترث للشعر بل ارث له هو لأنه ينعى نفسه.

وإذا قالت الأمة لا حاجة بي إلى الشعر فصدقها، واعلم أنها قد شاخت، فلا حاجة بها إلى الشعر، ولا إلى غيره من علامات الفتوة والحياة.

الخوف وحب الحياة

الخوف المفرط من الموت علامة الجهل بقيمة الحياة لا علامة المعرفة بتلك القيمة، لأن الذي يؤثر كل حياة على كل موت يقبل الحياة على أي شكل من الأشكال، ويقبلها على اقبح الأشكال، والذي يقبلها على أقبحها لا يعرف لها قيمة تصان.

الزهد والمتعة

الزاهد الذي يروض نفسه على الزهد بتقبيح الدنيا ليس بزاهد، لأنه لا يترك إلا نجسا قبيحا حين يترك دنياه، والأشرف منه نفساً ذلك الذي ينعم بالدنيا لأنها عنده نفاسة وجمال.

تفاؤل القوة والضعف

يتفاءل المرء ثقة منه بالقدرة على مغالبة الخطوب، أو قلة مبالاة بعواقب الهزيمة، وهذا تفاؤل القوة.

ويتفاءل المرء خداعا لنفسه كي لا يجشمها التأهب لملاقاة الخطوب والتفكير في عواقبها، وهذا تفاؤل الضعف.

الانتقاد والحرية

ليست كثرة الانتقاد دليلا على الحرية في كل حين.

إن الناس يكثرون الانتقاد حين يجهلون الحرية، لأنهم لا يرون للآخرين حقا في التصرف كما يشاءون.

الكبرياء

الكبرياء اعتداء، أو رد اعتداء.

الواقعيون والخياليون

التعويل على المحسوسات دأب جميع الناس، لكن صاحب النفس الكبيرة يحس ما لا يحسه أصحاب النفوس الصغار، فيعده هؤلاء من الخياليين. . لأن محسوساته غير موجودة عندهم، فهي ضرب من الخيال.

الذي نريده

ما الذي نريده من حياة جديدة للمصريين والشرقيين؟

الذي نريده كثير جدا من الطمأنينة التي مصدرها الشعور بالقوة، وقليل جدا من الطمأنينة التي مصدرها عدم الشعور.

نريد أن نحس ذلك القلق الروحي الذي يحسه الغربيون على أثر كل معرفة جديدة، وفي إبان كل اضطراب جلل، وفي أعقاب كل دولة دائلة[1] وفي مطالع كل مرحلة مقبلة. لأن القلق علامة النمو والحركة؛ والنفس تنمو فيضيق بها كساؤها، وتشعر بالحرج والتقلقل لا تستريح فيه ولا يريحها. وتحاول أن تخلع ما ضاق ورث، وتلبس ما اتسع وحدث. وهذا دواليك مادامت تنمو وتستقبل الأحوال بعد الأحوال والأطوار بعد الأطوار.

أما الطمأنينة التي تستقر بصاحبها لأنه لا ينمو ولا يتحرك، فتلك مصاب يرثى له وليست بنعمة يغبط عليها: أرأيت الحيوان الأعجم تفارقه الثقة قط؟ كلا! إنه يشبع ويسمن وينظر إلى الدنيا نظرة الرضى والتحدي كأنه بلغ الغاية وأوفى على الرجاء... وهو قد بلغ الغاية حقا ولكنها غاية أقل من البداية، وأوفى على الرجاء حقا ولكنه رجاء أخبث من القنوط. وشر ما يبتلى به المصري والشرقي هذه الثقة وهذه الطمأنينة.

فاللهم كثيرا جدا من القلق، وقليلا جدا من الراحة والركود الذي نريده كثيرا جدا من الإيمان الذي يسكن بصاحبه لأنه نفي جميع الشكوك، وقليل جدا من الإيمان الذي يسكن بصاحبه لأنه يجهل الشكوك.

الذي نريده كثيرا جدا من الخيال الذي لا يزال ينقلنا من واقع حسن إلى واقع أحسن، وقليل جداً من (حب الواقع) الذي لا يخرجنا مما نحن فيه، لأن النوم واقع عند النائمين، والجهل واقع عند الجاهلين، والفقر واقع عند الفقراء، والأسر واقع عند المستعبدين.

---

[1] أدال الشَّيءَ جَعَلَه مداولة ، أي تارة لهؤلاء وتارة للآخرين .

زعموا أن الشرق مبتلى بداء الخيال والهيام بالأحلام.. ألا ليت ما زعموه قد صدقوا فيه! ألا ليت الشرق يحلم ويتخيل، لأن الذي يعرف الحلم والخيال يعرف الأمل والطموح أن (الطيارة) هي واقع اليوم ولكنها خيال الأمس. وهكذا ينتقل العاملون من خيال إلى واقع، ومن واقع إلى واقع غير الذي كان.

وإن الخبز والمتعة واقع عندنا اليوم، وواقع عندنا بالأمس، وواقع في جميع الأزمان، ولن يزال واقعنا الوحيد حتى نحلم ونتخيل فنطمح ونأمل ونحيا ونعمل، ونسوق الدنيا معنا من حال إلى حال، ونخرج بها في ركابنا من نطاق إلى نطاق.

ألف ليلة وليلة ليست عالم الخيال والأحلام، ولكنما هي واقع العاجزين والضائعين، لأن خبزها هو خبز المائدة، غير أنه مفقود ليس بمأكول؛ ولذتها هي لذة المخدع، ومخدعها هو المخدع الذي ينال بالدرهم والدينار، لولا أن الدرهم والدينار ناقصان!! ومن يحقق ألف ليلة وليلة لا يحقق عالماً جديداً ولا فتحاً غريباً، ولكنما يحقق (الواقع) الذي عرفه الناس من أقدم الأيام ولا يستطيعون أن يفقدوا المال والحطام، وهما أيضاً من أوقع الواقع وأحس المحسوسات!!

فلا يقولن قائل إن الشرق يحلم لأنه يكتب ألف ليلة وليلة، بل هو مبتلى بالواقع محبوس فيه لأنه يحلم هذه الأحلام ويتخيل هذا الخيال.

ألف شرقي يدين بواقع العاجزين فدى لشرقي واحد يبيع العيش الصغير بالأمل الكبير، ويحلم ويتخيل لينقل الواقع من طبقة إلى طبقة، ومن مجال إلى مجال.

نريد كثيراً جداً من (الذوق) الذي مصدره الفهم واليقظة والدماثة.

وقليلا جداً من الذوق الذي مصدره التأنث والسقم والاصطناع.

لقد شبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يصرخون من الهباء كما يصرخ الجسم الورم من لمس الذباب, وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يتحلون بالتثني والتأوه كما يتحلى بهما النساء , وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يبرمون بالجد كما يبرم به الصغار الهازلون, وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين ليس منهم عامل في ميدان، ولا نافع لبني الإنسان، ولا مجتهد يحسن الاجتهاد، ولا فكه يحسن الفكاهة، ولا رجل

عظيم أو مقبول في زمرة العظماء, شبع الشرق من هذا الذوق، فهو من شبعه هزيل الجسد والروح، وهو من شبعه أجوع ممن صام ألف عام .

أما الذوق الذي لم يشبع منه الشرق فهو الذوق الذي يحس الصغائر لأنه يحس كل شيء، لا لأنه على الصغائر موقوف، وفي الصغائر محبوس ومقصور.

وهو الذوق الذي ينفذ من (البوتقة) لأنه جوهر حميم، ولا يفرق من وهج النار كما يفرق الزيف والغشاء المصبوغ.

الذي نريده كثير جداً من الضحك الذي معناه الإقبال على الدنيا والاضطلاع بالأعباء والقدرة على التبعات وقليل جداً من الوقار الذي معناه التهيب والرياء واتخاذ المظاهر درعاً يستر ما وراءه من ضعف وهزيمة وعجز عن الكفاح.

الضحك ملء الصدور والحناجر خير من الوقار ملء اللحى والتجاعيد؛ والضحك الرنان كأنه موسيقى النصر في ميدان الكفاح خير من الوقار المحجم كأنه مخبأ الهارب من الميدان، وراء غبار الهزيمة وغشاء الدخان.

الذي نريده كثيرا جداً من الحرية التي تعرف الحدود، وقليل جداً من الحدود التي لا تعرف الحرية. فليس من مقياس لحق الحرية أصح وأحكم من قدرة النفس على احتمالها بغير رقيب ولا موجه ولا حسيب.

إن الحرية التي يتبعها الرقيب هي منحة من ذلك الرقيب واستعباد فيه السيد وفيه المسود.

أما الحرية التي تعرف حدودها فهي حق لصاحبها لا يعطيه أحد ولا يسلبه أحد، لأن الحر الذي يعرف كيف يلتزم الحدود يعرف ولا ريب كيف يحمي الحدود.

الذي نريده بين القديم والجديد أن نمتلئ بالحياة، فإذا بالتعبير الصالح الجميل ينبثق من تلك الحياة.

فليس القديم بضائرنا إذا حيينا وشعرنا وعمدنا بعد ذلك إلى التعبير, وليس الجديد بنافعنا إذا عبرنا محدثين، ونحن غير أحياء وغير شاعرين.

ليست آفتنا أننا نعيش كما يعيش القدماء، بل آفتنا أننا نندب القدماء ليعيشوا بديلا منا!

وليست آفتنا قلة الشعر الجديد، بل قلة الشعور الجديد, وليست آفتنا أن القصة قليلة عندنا، بل آفتنا أن القليل هو الحياة التي تستحق أن تكون قصة، و (الواعية) التي تستوعب تلك الحياة .

وليست آفتنا كساد المسرح، بل آفتنا أننا في مسرح الدنيا بلا أدوار ولا فصول؛ ولو كانت لنا في مسرح الدنيا أدوار وفصول لشاقنا أن نراها مروية في أدوار الممثلين، محكية في أقوال المؤلفين.

الذي نريده أن نفهم ما نريد وأن ننجز ما نريد، وأن نعرف الفرق بين فهم القول وفهم الإرادة، فإنك إذا قلت لسامعك إنك تريد شيئاً من الأشياء في يوم من الأيام فقد فهم ما تقول، ولكنه لن يفهم ما تريد حتى ينجز ما طلبت في الموعد الذي طلبت، وهذا هو الفهم الأصيل.

الذي نريده كثير جداً

وقليل جداً إذا استطعناه، وإننا لمستطيعوه ببركة العزم والإيمان.

الذي نعمله

جاءتني من الأديب صاحب الإمضاء رسالة يقول في ختامها:

(... قد رأيت بما لي من حق طالب العلم على أستاذه أن أطلب إلى سيدي الأستاذ أن يتبع هذا المقال بنفحة أخرى تبين لنا ما نعمله لنبلغ من أمرنا ما نريد، وأرجو ألا يعتبر مني هذا اقتراحا أو ما في معناه وإنما هو محض استزادة من خير علمك العميق النظيف....)

أحمد حنفي نصار القوصي

وهذا سؤال حقيق بأن يُسأل، وكنت أود أن يُسأل، فهو حقيق بأن يُجاب.

وجوابي للأديب أن حاجتنا الكبرى إنما هي أن نعلم كيف نريد لا أن نعلم كيف نعمل. فإذا أردنا عملنا؛ وكل مريد عامل وعارف بوسيلته إلى إنجاز مراده.

مضى زمن والناس يتحدثون عن الإرادة والعمل كأنهما قدرتان مفصولتان، وعن العاطفة والفكر كأنهما شيئان لا يتلاقيان، وعن الخيال وفهم الواقع كأنهما ملكتان نقيضتان، إلى آخر ما يفرقون ويقابلون بين ملكات الطبائع وخصائص الأذهان. وهذا خطأ في تصوير الحقائق يتبعه لا محالة في تصوير العلاج والإصلاح.

ليست الإرادة والعمل ولا غيرهما من الملكات والطبائع خطين متلاحقين يبدأ أحدهما عند نهاية الآخر، أو جسمين متحيزين لا يجتمعان في مكان واحد، وإنما هما مظهران من قوة النفس يصدران عن معين لا يتجزأ ولا ينفصل بالحدود والمعالم. فإذا امتلأت النفس بالقدرة على الإرادة فقد امتلأت بالقدرة على العمل في وقت واحد وفي صورة واحدة؛ ولن يفشل في عمله - وقد تهيأت للعمل أسبابه - إلا لأنه ناقص الإرادة

أرأيت إلى الناس وهم يطلبون السيادة ولا يبلغها منهم إلا قليل؟ ما بال قوم منهم يبلغونها وأقوام ينكلون عنها خاسئين؟

إنما يبلغها من بلغ لأنه أرادها ولم يرد غيرها. فهو سيد وإن تراخى الزمن دون الإقرار له بالسيادة؛ وهو سيد لأنه لن يكون عبداً وإن أخطأته الذرائع إلى حين

أما الذي يبغي أن يسود ولا يأبى أن يكون عبدا فأين هو من إرادة السيادة؟

وأما الذي يبغي أن يسود ولا يختلف عنده مقام السيد الرفيع ومقام العبد الذليل فأين هو من إرادة السيادة؟

وأما الذي يبغي أن يسود ويحسب أن الناس يسودونه قبل أن يسود عليهم فأين هو من إرادة السيادة؟

قل إنه يتمنى أن يسود، أو قل إنه يحلم بأن يسود، أو قل إنه لا يكره أن يسود؛ فأما أنه يريد فمعاذ الإرادة أن تجتمع ونقيضها في عزيمة واحدة؛ ومعاذ الإرادة أن تجتمع ولا يتبعها عمل ولا يتبع العمل نجاح.

لماذا لا نعمل؟ لأننا لا نريد! ولماذا لا نريد؟ لأن زادنا من الحس والوعي والخيال قليل

ومع هذا نحن لا نُزهي بشيء كما نزهي بفرط الحس وفرط الوعي وفرط الخيال.. فهل رأيت إلى بعد ما بين الحقيقة والدعوى، وبعد ما بين وصف الداء ووصف العلاج؟!

إملاء النفس بالحس والوعي والخيال تملأها بالحركة والإرادة غير منفصلين. وانظر إلى الطفل الدارج لماذا لا يهدأ؟ ألانه قرأ الفصول والمباحث في فضل الحركة والنشاط؟ ألأن أحداً أمره أو أحداً أغراه؟ كلا! ولكنه يتحرك وينشط لأنه شبعان من الحس شبعان من إرادة العمل الذي يهواه. ولو سبب غير ذلك دعاه إلى الحركة والنشاط لما استجاب. إذا أحسسنا لم نصبر على الركود، وإذا نفضنا الركود فماذا أمامنا غير الحركة والعمل؟ وماذا أمامنا غير الظفر والفلاح؟

لننس كل النسيان وأشد النسيان أننا - معاشر الشرقيين قوم مصابون بفرط الحس والوعي والخيال. فإننا لأبرأ الناس من هذا المصاب إن كان مصاباً. وإننا لأحوج الناس إلى هذا الشفاء، وهو شفاء

وآية ذلك أن نسأل كم عدد المعبرين عن الحس والخيال في الشرق كله؟ وكم عدد هؤلاء في أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة؟

كم في أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة السيدة الأيدة من مصورين ومثالين؟ وكم فيها من موسيقيين ومنشدين؟ وكم فيها من ممثلين ومخرجين وكتاب روايات وشعراء وأدباء؟ وكم فيها من متاحف وتماثيل؟ وكم فيها من باعة أزهار وأساتذة تجميل؟ وكم فيها من مغامرين مقاديم يبيعون الواقع بالخيال، ويستغنون عن الممكن الميسور بما يلوح للعاجزين كأنه محال؟

كم من هؤلاء في أمة واحدة وكم منهم في الشرق كله هذا الزمان وأخشى أن أقول في جميع الأزمان؟

إن لم تكن الحقيقة أن الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع غاية الادقاع[1] في ازواد الحس والخيال، فالأسطورة الكبرى ولا ريب هي أنه مسرف في حسه وخياله، مفرط في شطحاته وآماله.

فما بالنا نحار كيف نعمل، وأولى بنا أن نحار كيف نحس ونتخيل؟ وما بالنا ننشد أسباباً للحركة والعمل غير أن نملأ نفوسنا بالإحساس كأنما هذا وحده غير كاف؟ وكأنما نحتاج بعد الإحساس إلى مزيد؟

إن الإنسان ليثور من السخط والغضب حين ينظر إلى فقرائنا العجزة المعدمين وهم يتيهون من الغنى الموهوم، ويتغطرسون بالثراء المعدوم. واسمعهم يتغنون بالحب مثلا والحب فيض في الشعور واتساع في آفاق الوجدان؛ واسمعهم يتغنون به وهو صنوف صنوف لا تنحصر في معنى واحد ولا في نمط فريد: حب الناشئين غير حب الكهول، وحب التفاهم والتعاطف غير حب المتع والشهوات، وحب المرأة المطواع اللعوب غير حب المرأة العصية الشموس، وحب المنكوب اللاجئ إلى حرم العاطفة غير حب السعيد الناعم بما في يديه، وحب الواثق غير حب المرتاب، وحب الوسيمة القسيمة غير حب الرشيقة الظريفة، وحبك الأول غير حبك بعد تجربة ومراس، وصنوف غير ذلك تتعدد بعداد الرجال والنساء وعداد الأحيان والأعمار والمناسبات.

[1] أدقع الشَّخصُ : افتَقَر وذَلَّ ، وأصلها لصق بالدَّقعاء ، وهي التراب خسر التاجرُ مالَه كلّه فأدقع .

اسمعهم يتغنون بهذه العاطفة الشاملة الداوية العميقة الرحيبة التي لا عداد لها بالألوان وإن عدت باللفظ في كلمة واحدة، وقل لي ماذا تسمع غير نغمة واحدة معروضة في شتى أساليب؟ ماذا تسمع غير أن حبيبة هاجرة أبدا وحبيبا سيموت أبدا وفوق ذلك قطرات هنا من دموع وشهقات هناك من أنين؟

ودع هذا واسمع المنشد أو المنشدة لا يكادان يفرغان من نغمة مبدوءة حتى يتبعهما ضجيج وزعيق وقرع وخبط وتصفيق كله نشوز واختلاط ومنافاة أبعد المنافاة لسماع الألحان والأنغام. وقل لي: هل تصدق أن هؤلاء السامعين يستمعون إلى موسيقى ويصغون إلى فن وينعمون بتعبير جميل وتنسيق لا يطيق الاختلال؟

فأما الموسيقى والنشوز والخبط والزعيق فمحال أن يجتمع هواها في أذن واحدة في لحظة واحدة؛ وأما الذي يجتمع مع النشوز والخبط والزعيق فهو تخبط الجسد المحموم بحمى البهيمية لا تمييز فيه ولا ذوق ولا خيال .

علم الله ما أصغيت إلى جمع من هؤلاء الناعقين الناهقين ولا توسمت ما يزهون به من (حساسة) وظرافة إلا تلمست في يدي موضع السوط ألهب به تلك (الحساسة) وأطير به تلك (الظرافة) وأثبت لهم بالسوط وحده - ولا إثبات بغيره لأمثال هؤلاء - أنهم بلداء بلداء بلداء، وإنهم يغثون النفوس من فرط كونهم بلداء غارقين في بلادة لا تفيق لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه!

داووه من نقص الإحساس لا من فرط الإحساس؛ وداووه من ضنانة الخيال لا من سرف الخيال , وعلموه أن يحس تعلموه أن يريد؛ ومتى تعلم أن يريد فلا حاجة وراء ذلك إلى تعليم .

ولقد يسأل السائل من جديد: ومن لنا أن نثبت فيه الحس المأمول؟ وجواب ذلك سهل في التعبير، ولا أزعم أنه سهل في الإنجاز والتحقيق.

جواب ذلك أن الحس لا يخلق خلقاً ولكنه يتعهد بالحث والإيقاظ إن أصابه جمود ورانت عليه ثقلة الكسل والجثوم[1] .

---

[1] جَثَم الحيوانُ والإنسانُ : لزم مكانَهُ فلم يَبْرَحْ ، أَو لَصِقَ بالأَرضِ .

وليس أنجع في الحث والإيقاظ من تصحيح الأجسام وتصحيح الأذواق: تصحيح الأجسام بالرياضة الصالحة القوية، وتصحيح الأذواق بالفنون الجميلة الرفيعة؛ ومن صح جسده وحسن ذوقه فلن يفوته الشعور بما حوله؛ ومن شعر بما حوله فماذا يبقى له إلا أن ينشط ويعمل، وإلا أن يريد وينجز ما يريد؟

بل ضرورية جداً

تعودنا أن نسمع أن الفنون الجميلة من الكماليات التي يأتي دورها بعد العلم والصناعة في الأهمية، وفي مقالكم المشار إليه تقولون إن علينا أن نبدأ بالفنون الجميلة والرياضة لنتعلم الإرادة والعمل، فهل لكم أن تنيروا الطريق لنا بالتوفيق بين القولين...)

الإسكندرية

صالح شحاته

الحق يا صاحبي أننا في عصر نحتاج فيه إلى غربلة وافية لجميع الألفاظ التي لهجنا بها زمناً في مطلع نهضتنا الحديثة، ومنها ألفاظ الضروريات والكماليات وتقديم الأهم على المهم والمفاضلة بين العلوم والفنون، وسائر هذه المحفوظات التي خلت من المدلول لكثرة تكرارها واكتفاء الآذان بسماعها دون التفكير فيها.

فمن الواجب (أولاً) أن نفرق بين الفرد والأمة فيما هو من الشؤون الضرورية وما هو من الشؤون الكمالية.

فالفرد لا يشترط فيه أن يستوفي جميع المزايا الإنسانية والملكات الحية، وليس من اللازم ولا من المستطاع أن يكون قوياً وذكياً وجميلاً وعالماً وشاعراً وصانعاً وغنياً وسائساً زعيما ومفكراً مقتدى به وإماماً متبعاً في مطالب الحياة كافة.

ولكن إذا اجتمع عشرون مليون فرد في قطر واحد فمن الضروري - وليس من الكمالي - أن تتوافر بينهم جميع المزايا الإنسانية والملكات الحية التي تتفرق في الأفراد، وإلا كان النقص دليلاً على مسخ ذريع في التركيب وعجز شائع في عناصر الطباع. ويستوي هنا أن يكون الناقص لعباً أو جداً، وفناً أو علماً، وخلقاً أو رأياً، فإنما المهم أن الملايين العشرين يتسعون لكل مزية عرفت في بني الإنسان، وإلا كانوا ناقصين في الضروريات للأمة وإن كانت معدودة بالقياس إلى الفرد من الكماليات والنوافل.

ومن الواجب (ثانياً) أن نقلع عن تقويم المطالب القومية بمقدار الحاجة إليها والاستغناء عنها، فان ذلك تقويم غير صالح وغير صحيح.

فنحن نستطيع أن نعيش بغير ملكة النظر وبغير ملكة السمع أو الكلام سبعين سنة دون أن نهلك من جراء ذلك.

ولكننا لا نستطيع أن نعيش بغير الرغيف وما إليه سبعين سنة ولا سبعين شهراً ولا سبعين يوماً إلا هلكنا هلاكاً لا ريب فيه؛ ولم يقل أحد من أجل ذلك إن الرغيف أغلى من البصر، وإن ملكات الحس لا تستحق المبالاة كما يستحقها الطعام والشراب.

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق، فأنا واجدون أن الرغيف أرخص من الكتاب، وأن التمثال أغلى من الكساء، وأن الحلية أقوم من الآنية الضرورية، وأن قيمة الشيء لا تتعلق بمقدار الحاجة إليه والاستغناء عنه، بل بمقدار ما نكون عليه إذا حصلناه. فنحن إذا حصلنا الرغيف فأقصى ما نبلغه في تحصيله أن نتساوى وسائر الأحياء في إشباع الجسد وصيانة الوظائف الحيوانية. ونحن إذا حصلنا الفنون الجميلة فما نحن بأحياء وحسب، ولا بأناسي وحسب، ولا بأفراد وحسب؛ بل نحن أناسي ممتازون نعيش في أمة ممتازة، تحس ما حولها وتحسن التعبير عن إحساسها.

إن الضروريات توكلنا بالأدنى فالأدنى من مراتب الحياة، أما الذي يرفعنا إلى الأوج من طبقات الإنسان فهو ما نسميه النوافل والكماليات، أو هو ما نستغني عنه ونعيش!

ولكن كيف نعيش؟

هذا هو موضع السؤال الصحيح. فان كنا لا نبغي إلا أن نعيش كما تعيش الأحياء كافة فحسبنا الضروريات المزعومة إلى حين: حسبنا الخبز حتى يجيئنا من ينزع منا الخبز أيضا ونحن لا نقدر على دفاعه، ولا نطيق غير الخضوع له والصبر على بلائه.

وإن كنا نبغي أن نعيش (أكمل) العيش فلا غنى إذن عن الكماليات لبلوغ الكمال، ولا معدي إذن عن اعتبار الكماليات من ألزم الضروريات.

ومن الواجب (ثالثاً) أن نذكر ما هو (العلم) الذي يفوقنا به الغربيون قبل أن نعقد المقارنة بين العلوم والفنون.

فالغربيون لا يفوقوننا بالعلم (المصنوع) علم الطيارات والسيارات والسفن والدبابات والمناسج والمنسوجات.

كلا! لا يفوقنا الغربيون بهذا، فان الشرقي ليحذق صناعة الطيارة إذا رآها كما يحذقها

الغربي الماهر في عمله، ولعله يبذه ويسبقه في الوقت والبراعة.

إنما يفوقنا الغربيون بالعلم الملحوظ لا بالعلم المصنوع: يفوقوننا بعلم الملاحظة والابتكار والاختراع؛ يفوقوننا بالعلم الذي يحتاج إلى عين لا تفوتها الرؤية، وبديهة لا يفوتها الإدراك، وخيال لا يفوته تركيب الصغائر وضم الأجزاء إلى الأجزاء حتى يتألف منها المصنوع الجديد.

وما هذا الذي يفوقوننا به غير ملكة الحس والتخيل التي يترجمها المصور تمثالاً والموسيقي لحناً والشاعر قصيداً والمخترع صناعة حديثة؟ ما هو غير أن نحس ما حولنا ونقرن بين إحساس وإحساس حتى نستخرج منها جميعاً صورة كاملة في عالم العلم أو في عالم الفن أو في عالم التجارة؟

فليست المقارنة بين العلم والفن مقارنة بين طيارة تنفع في التجارة والحرب وتمثال لا ينفع لغير الزينة، بل هي مقارنة بين ملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة، وملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة!

وإذا فقدنا الفنون الجميلة فليس كل ما نفقده إذن هو تمثال الرخام الذي لا يصلح لغير الزينة، بل نحن فاقدون جزءاً من حياتنا وجزءاً من العلاقة بيننا وبين الدنيا، وعائشون عيشة الممسوخ الأبتر المحجوب عن جوانب دنياه.

إن الرجل البصير يرى الحجر كما يرى الجوهرة، ولكنه إذ عجز عن رؤية الحجر وهو أمامه فليس الحجر وحده بالمفقود في نظره، بل المفقود كل شيء يتراءى لعينيه.

لقد حيينا في خدمة غيرنا عصوراً طوالاً حتى أوشكنا إذا قيل لنا: (اشعروا بالحياة) أن نطلب أجراً على حياتنا.

فالرجل الذي يسأل: ما فائدة الفنون الجميلة؟ هو كالرجل الذي يسأل: ما فائدة العين؟ وما فائدة الأذن؟ وما فائدة الشعور؟ وما فائدة الحياة؟

وإن الإنسان لينظر إلى الروضة ولا يبسط يديه بعدها إلى أحد يعطيه أجراً على ما رآه، فلماذا يحس الجمال وهو يسأل عن فائدة الإحساس؟ ولماذا يعبر عن الجمال وهو يسأل عن فائدة التعبير؟ ولماذا يقتني التمثال وهو يسأل لماذا تقتنيه؟ ولماذا يسمع الغناء وهو يسأل لماذا أصغي إليه؟

إنه ينبغي أن يصنع ذلك لأنه يحس، وإنه يحس لأنه يحيا فمن من يا ترى يريد أجراً على الحياة! إن كان عبداً فمن سيده فليطلب أجره لو كان سيد يعني بتهذيب عبيده؛ وإن كان هو سيداً فهو مالك حياته وكفى أنه يحيا تعليلاً لكل عمل وترغيباً في كل مطلب وتقويماً لكل عزيز نفيس.

ولقد يخطئ بعض الفلاسفة المصلحين في تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك الثروات من مال وفير وجهد عنيف. كذلك أخطأ تولستوي في كتابه عن الفن الجميل وهو نفسه قد أنفق عمراً مديداً في خدمة الفن الجميل.

على أن خطأهم قريب المأخذ سهل المراجعة من ناحية الحساب، إذ ليس القياس في هذا الصدد أن ننظر إلى مدينة مثل (هليوود) كم تنفق من الملايين على الروايات والممثلين! وإنما القياس أن ننظر إلى مدن العالم كم عددها بالقياس إلى (هليوود) وحدها أو كل مدينة جرت على مجراها.

وليس القياس أن ننظر إلى الموسر كم يبذل من الألوف في تمثال واحد، وإنما القياس أن ننظر إليه والى كل فرد كم ينفق على خبزه وكسائه وسكنه وراحته، وكم ينفق على الفنون الجميلة التي يهواها من تماثيل وأغان وأشعار؟ ومتى نظرنا هذه النظرة علمنا أن الكماليات لا تجور على الضروريات، وأن قياس النفقات على ما يسمى بالكماليات والنفقات على ما يسمى بالضروريات أقل من قياس الآحاد إلى المئات.

إلا إننا نعود فنقول إن الفنون الجميلة ضروريات في الأمم وإن عدت نوافل في آحاد الناس، وإنها ضروريات لمن ينشد (العيش الأكمل) ولا يقنع بكل عيش بأنها ضروريات لمن يسأل: كيف نسود؟ وإن كانت هباء عند من يسأل: كيف نعيش؛ وأحرى به أن يسأل: كيف نموت؟ فعيش هذا وموته سواء.

ندرة البطولة

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروي ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ، ويسأل معهم: (هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟ وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة! وهل تجد في الغناء أمثال اسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي؟) وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات.

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا: (يظهر لي مع الأسف أن الظاهرة صحيحة، وان الجليل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ولا ينتج كثيراً من الأبطال، وإن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد، لا طابع النابغة والبطل)

ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله: (ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة)

والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة، وليس له أو أن يفوت بفواته. فإذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله في الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدي الرأي فيه.

ورأينا إننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال. وإنه ليس اسهل ولا اقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس

إن الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال

وهذا الذي ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان

فمن أمثلة ذلك سؤالهم. (هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟)

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضي كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو العصر الذي نعيش فيه .

وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الخامس، أي نحو ثلاثمائة سنة!

وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام، ومن الحضر إلى البادية

وينسون أن العصر الحاضر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذي يبدأ بفتوة الشاعر وينتهي بوفاته

وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين، فإنهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلكم العصور .

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم: ما هي المزية التي كان بها النابغ القديم (أنبغ) من قرينه الحديث؟

فلا يسألون مثلاً: ما هو كتاب الجاحظ الذي يستعجزون أبناء عصرنا عن الإتيان بنظيره؟ فإن لم يكن كتاب فما هو الموضوع؟ وإن لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة!

ولو كلفوا أنفسهم سؤالاً كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا أن الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون إلى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين.

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلي وإبراهيم بن المهدي ومن جرى مجراهما من المطربين في العصور الأولى. فماذا سمعوا من هذا أو ذاك؟ ومن أين لهم إن الموصلي

يبلغ شأو سلامة حجازي أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلاً عن السبق الذي لا يجارى والبون الذي لا يدرك؟

أما أنا فاغلب الظن عندي أن الأمر معكوس، وإن ألحان الموصلي لا تعدو أن تكون مزيجاً من تنغيم البدو وصبغة الحضارة المستعارة والآلات الناقصة، وكل ما يأتي على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق، وإن لم يكن معروفاً بحروف النوطة وأصوات السماع

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة في العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها في العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا إلى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدوني أو جنكيز خان قبل أن يرجحوهم في فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ولو أنهم رجعوا إلى تلك الوقائع لما أكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الإكبار.

ودع أنهم ينسون أن كل حرب لابد فيها من ظافر ومن مهزوم، وإن الظفر وحده ليس بشيء إن لم ننظر معه إلى عوامله ودواعيه وتتبين أنها صالحة للتكرار في كل وقعة وكل حين

ودع أنهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وأنها تندر في الزمن الحديث وتكثر في الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون في نسيانه بعض أعذار لمن ينسونه، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين في مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهي قائمة على دعاوي وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أربابا وأنصاف أرباب وقديسين في رأي الأقدمين؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم في عصرنا قبل أن نسقط في الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوي والأكاذيب؟ إن هذا لخليق أن يضيف إلى فضل المتأخرين لا أن يغض منه ويحيف عليه، لأنهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون في الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب!

ليس في تاريخ بني الإنسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذي نحن فيه.

ليس في تاريخ بني الإنسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا في الحرب العظمى

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين[1] والأكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من (أبناء الشعب) كمصطفى كمال ورضا بهلوي وستالين وموسليني وهتلر وكابللرو وكارديناس. فماذا عندنا من الأدلة على إن العصاميين في الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى إلى البطولة في صنيعهم من هؤلاء؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر في غرام ملك الإنجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون. فماذا عندنا من الأدلة على إن غرام هيلانة في طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى إلى البطولة من هذا الغرام؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات في مصر والهند والصين. فماذا عندنا من الأدلة على إن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذي شهدناه؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر أنجب في كل أمة نموذجاً يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندي وسون ياتسن وشيان كاي شيكر وفيصلاً وابن سعود .

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر فيه ما في عصرنا من الحقائق التي تشبه الخيال، والعبر التي تشبه نوادر الأمثال، والشواهد التي تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الإنسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية. فعندنا وعلى مسمع ومشهد

[1] الخاقَانُ :لقب لكلِّ ملكٍ من مُلوك التُّرك .

منا مصداق كل رأي حام في ذهن فيلسوف، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث في عالم النظريات

وليس في تاريخ بني الإنسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التي يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الإقدام كل يوم، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من اللهو أو لعبة من العاب الرهان

فإن كنا لا نسمي ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة، وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم في الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له نداً بين الشعراء المعاصرين. ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذي نبغوا فيه، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا في زمانهم

عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين في العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه، ويقدره خيراً مما قدروه، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالإقبال والإعجاب مما كانوا يمثلونها في حياته

أذكر أنني رأيت منذ سنوات في إحدى الصحف الإنجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين في أزياء العصر الحديث، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال: هل تعرفهم؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن. لأن الصور التي رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ما حولهم من هالات الفوارق والمسافات التي يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء.

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس في أزياء اليوم، وعظماء اليوم في أزياء الأمس، لنعرف مقدار ما تضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار ما نسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فإن تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عيانا فلنرسمه بالظن والتقدير. ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها، ونصلح جوانب الغلو والبخس في كفاتها، ونغنم تصحيح الميزان في الحكم على الرجال والأزمان، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب. إذ لا ضرر ولا قصور في اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس. تلك هي الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها

أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للإنصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

كثرة البطولة أو ندرتها؟

لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة في ختام مقاله فقال:

(عصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية أن كان هذا - يا أخي - هو الذي أردتُ فأظن أنه لا يرد علي بمزايا العصر الحاضر، وعلم العصر الحاضر، وفن العصر الحاضر. وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتي البعد، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ)

وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغي أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون، وإنما المقارنة بين الملكات في الزمن الماضي، والملكات في الزمن الحاضر، وهذا ما نختلف عليه؛ إذ لا موجب عندي لأن تكون ملكات النابغين في عصرنا أقل مما كانت في عصر الأقدمين

إن النبوغ صفة في أصحابها وليست صفة في غيرهم، فإذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية في أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء. وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذي يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذي يظهر بين الجهلاء، وتلك شهادة للنابغين في العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه، هي مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين، لأن النبوغ ملكة مطبوعة، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هي هي المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام. فليس فضل إديسون في زماننا أنه يعرف في علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره، ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين، فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير، وظلت المسافة بينهم وبينه في النبوغ

كالمسافة بين أرخميد ومن عاصروه من غير النابغين، وإن أختلف العصران في شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل: (مقياس النابغة في نظري أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم في فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ. فسيبويه نابغة في النحو، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه).

وأنا أقول كما يقول الأستاذ: إن النابغة يفوق أهل زمانه في معرض من معارض العلوم والفنون، ولكني لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه، بل أقول إن سيبويه لو عاش في عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء. وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا في عصره لما قصروا عن شأوه، لأن الملكات التي تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التي تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون.

وعندي أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمين ينظرون إلى النوابغ والأبطال في عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الإيمان.

فالأستاذ يقول أن نابليون ظهر (فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقاً في ناحية. وبيننا الآن في عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظراً، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون. ولأنه وحده هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين، فظهر ولم يظهروا، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل).

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية: إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثاني عشر لم يناد بأن الإمبراطور معصوم كما ينادي الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة (ألد وتشي) وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض.

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذي صنعه (الفوهرر[1]) قبل ثلاث سنوات من (تطهير) البلاد بلا محاكمة ولا سؤال.

وقد كان (لفين) ينحي على القديسين، ولا يعترف للعظماء بأثر في توجيه التاريخ إلى الأثر الذي يعترف به الشيوعيون، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب في عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين.

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التي تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية، كما نسمع بالألوف التي تتدفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السياحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة في كل ميدان يتصل بالجماهير. أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم وأشتهر فليس نصيبه من الإعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤساً وغبناً وشظفاً في أقرب العصور وأبعد العصور.

لا، بل نحن لا نستثني أصحاب المكانة الدينية على إطلاق الاستثناء، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه في الأيام الخالية؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش في أوربا عيشة المترفين والمتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش في صومعته قبل عصر الكشف والاختراع.

ولم ننفرد نحن بإكبار البعيد في الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء، فقديماً كانوا يقولون إن زامر الحي لا يحظى بإطراب، وقديماً كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالإصغاء والتقريظ.

وأحسب أن إيثار الماضي على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر في وقت ولا يخلو منها قبيل.

فالماضي يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الأنظار كالمثل الأعلى في هالاته وخيالاته، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذي نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه.

[1] الفوهرر (بالألمانية: Führer) كلمة ألمانية وتعني القائد، استخدمت كلقب للقائد النازي أدولف هتلر الذي حكم ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية بقيادته للحزب النازي الحاكم آنذاك.

ولقد كان المشركون ينكرون النبي عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه (يأكل الطعام ويمشى في الأسواق). ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاماً ولا يمشون في سوق؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون.

ومن العلل التي تجنح ببعضهم إلى تهيب (السلف الصالح) أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد، كأنهم كبار ونحن صغار، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا في سن الطفولة وأننا سنصبح شيوخا مع السنين أو نربى في الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد .

ومن تلك العلل ما أومأنا إليه في مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضي والحاضر فيجعلونها كفتين تتساويان في نطاق الزمان والمكان، مع أن الحاضر زمن واحد والماضي حاضر قد تتكرر عشرات ومئات.

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة في جميع الشعوب: أحدهما أن العربي يعتز بالأنساب وينوط الفخر كله بماضيه، لأنه سلالة من القبائل التي تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الأصول.

والثاني أن الماضي أقرب إلى منشأ الدين، فيخيل إلينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس .

تلك الأسباب كلها خليقة أن تضعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد. فهي صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف إلى كفة المحدثين في ميزان الأنصاف. ومما لاشك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل في عصرنا بل هي أحجى أن تزيد وتنشط، بل هي قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعي والمنافسة والتفكير والاستنباط؛ ومما لا شك فيه أن الأقدمين لم ينظروا إلى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التي نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذي نمحضهم إياه. أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الأستاذ لأنه خلاف المعهود والمروي والمسطور. وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل، وأصغرنا معاصرينا لأنهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ

الفاضل، فإنما يكون ذلك كالذهب الذي يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لا شك فيه. وإنما يكون النبوغ نبوغاً ولا يكون شيئاً آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم، لأنه ملكة في الطباع لا يختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس إليها، ولا تزال الإنسانية بحاجة إلى الكثير منهم والقليل.

وخلاصة القول إننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة، ولا نستطيع أن نقول معه أن المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث، لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التي يخلق بها النابغون الممتازون .

السندوتش والمائدة

أدب السندوتش هو أدب الفاقة والعجلة، وأدب المائدة هو أدب اليسار والوقار، كما سماهما الكاتب البليغ الأستاذ الزيات وأصاب في التسمية.

لأنها تسمية وتوصيف وتعليل في وقت واحد .

وقد ختم الأستاذ مقاله سائلا: (ليت شعري إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر - أدباء الكهول - الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع في مصر؟ أيذهبون وبطئان ما يعوَّضون على رأي الأستاذ أحمد أمين، أم يذهبون وسرعان ما يخلفون على رأي الأستاذ العقاد؟)

وفي جواب هذا السؤال أيضاً لست من المتشائمين، لأن الجواب بعضه من سر المستقبل. وبعضه من حقائق الماضي؛ فان وقفنا من المستقبل بين الشك والرجاء فموقفنا من الماضي أدنى إلى رجاء المتفائل. وأقصى عن يأس المتشائم، بل لعله موقف لا يحمل في أطوائه غير يقين الرجاء.

قبل ربع قرن من الزمان كان أناس غير قليلين يسألون كما يسأل الأستاذ الزيات اليوم: ترى من يرفع لواء الأدب بعد أعلامه البارزين في هذه الآونة؟ ترى هل ينطوي اللواء بعدهم أو تهيئ له الأيام أكفاً تنشره كما نشروه وتعزه كما أعزوه؟

ولم يكن اسم واحد من الأسماء الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الأستاذ الزيات معروفا تلك المعرفة التي تغني في إجابة السؤال؛ وربما كانوا مجهولين كل الجهل في غير مجال الأصحاب أو مجال المتطلعين المتسمعين إلى أبعد الأصداء؛ فكان الجواب الغالب على الألسنة أن المستقبل مقفر مدبر، وأن من مات فات وليس له لاحق بين ناشئة الجيل.

فإذا سألنا في مفرق الجيلين مثل ذلك السؤال ورأينا البوادر تملي علينا مثل ذلك من الجواب، فليس من اللازم أن تصدق البوادر، وأن تنقضي خمس وعشرون سنة

أخرى دون أن يخلف السابقين عوض من اللاحقين، وإن خفي نجمهم اليوم أو تراءى على الأفق ترائيا يتشابه فيه النجم والسديم[1].

وإننا لنذكر اليوم الستة أو السبعة القائمين بأمانة الأدب وننسى الستين أو السبعين الذين كانوا يهزلون كما يهزل بعض الناشئين في أيامنا، ويتبلغون بالقليل من زاد الاطلاع كما يتبلغ أدباء السندوتش بيننا: نسينا أولئك الستين أو السبعين لأن الزمان قد نسيهم وعفى على أسمائهم وآثارهم، ولكنهم كانوا في أيامهم يحجبون الأفق ويشبهون الشخوص على الأنظار ويبعثون اليأس ويثبطون الرجاء. فليس من البعيد أن يكون لهم نظراء يلبسون الأمر علينا، وأن يكون للستة أو السبعة نظراء ينقشع عنهم الغبار بعد عشرة أو عشرتين من السنين، وإن جاز أن يخيب الظن كما يخيب بعض الظنون.

وفي العالم كله نوازع شتى تنزع بالناس الآن إلى الأدب الرخيص أو أدب السندوتش أو أدب الفاقة والعجلة، وقلما تختلف البلاد في هذه النوازع على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية التي تساس بها الشعوب في العصر الحديث

ففي البلاد الديمقراطية يكثر القارئون بين سواد الشعب ويتوخى الناشرون الرواج فيؤثرون ما هو أشيع وأيسر على ما هو أندر وأنفع؛ ويطغى الأدباء الهازلون على أصحاب الجد والأمانة، فلا تتساوى الرغبة في الأدب النفيس والرغبة في الأدب الخسيس.

وفي البلاد الفاشية يتحكم المستبدون في أذواق الكتاب والشعراء فلا يذعن لعسفهم واستبدادهم إلا طائفة من المرتزقة المتزلفين الذين لا يقدرون على الأدب القيم؛ ولو أبيح لهم أن يطرقوه ويتوسعوا فيه، فهم أحرى أن يعجزوا عنه وهم مكبوحون مسوقون بالرهبة والإغراء

وفي البلاد الاشتراكية يعتقد الحكام أن الآداب هي لسان حال الطبقات، وأن الأدب الذي يليق بهم هو أدب الطبقة السفلى ومن إليها من أشباه العامة والمسخرين. وحسبك من أدب يقوم على أذواق هؤلاء، ويجري مع هذه الأهواء

---

[1] السّديِم :الضَّبابُ الرقيقُ .

ولا ننس عصر الآلات وما يجرف به الناس من سرعة جامحة ونزوة جامحة. ولا ننس (الحرية الشخصية) وما سولته للصغار والأوشاب من غرور المساواة وتمرد المباهاة، فقد بدأت باعتبار الرجل نفسه نداً للسراة والوجهاء ولو كان في الصعاليك والفقراء، وانتهت باعتبار الرجل نفسه نداً للعلماء والأذكياء ولو كان من الجهلاء والأغبياء، فضعف الخجل من التقصير، وضعف الطموح إلى مساواة الأعلين، وأصبح العي الفهُّ لا يداري عيه ولا فهاهته لأنه صاحب (حق) في العي والفهاهة، وصاحب دعوة في المساواة لا يعدم لها أنصاراً بالألوف والملايين!

تلك النوازع في بلاد العالم كله على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية خليفة أن تنصر أدب الفاقة والعجلة، وتنحى على أدب اليسار والوقار. ولكننا نرجع إلى العصور الغابرة فلا يصادفنا عصر منها إلا كانت فيه نوازع كهذه النوازع في نصرة الأدب المبذول وخذلان الأديب الكريم العزيز. وقريبا من عصرنا هذا كان تمليق الأغنياء والخضوع للجامدين والولع بمحاكاة الأقدمين وضعف الثقة والعجز عن حرية التفكير والإبداع نوازع أخرى لا تقل في أثرها الوخيم عما أحصيناه من مساوئ عصرنا، فلا نفاذ في عصور الزمن لبواعث الضعف ولا نفاذ فيها لبواعث القوة؛ وشأن العقول في ذلك شأن الأبدان بين دواعي السقم ودواعي الصحة، لا ينفرد عصر بالأمراض كلها ولا ينفرد عصر بالعافية كلها، ولا يزال الحال في تعادل ونقص وتعويض ما دامت الحياة حيه تعطي وتأخذ من دنياها بمقدار .

على أننا لا نخادع أنفسنا ولا نستر الفوارق التي بيننا وبين غيرنا. ففي إنجلترا مثلا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم برتراند رسل وهو يتهد في أعوص الموضوعات؛ وفي فرنسا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم رومان رولان وبرجسون في المثل العليا وما وراء الطبيعة؛ وفي ألمانيا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم هوسرل وهيدجر في معارض لا يعنى بها فيما أحسب عشرة من قرائنا المصريين؛ وفي إيطاليا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم فريرو وجنتلي وجروشي في معضلات الاجتماع والتاريخ. وإنما مثلت بالفلسفة وحدها لأن موضوعاتها أعسر، وقراءها أندر، وعقول الباحثين فيها أكبر وأقدر؛ وهي بعد عنوان لما وراءها من أدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور.

أما في مصر فأدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور إنما يقوم على كواهل أصحابه ولا يقوم على كواهل القراء؛ وكل ما نملك من عزاء أن الجد والهزل في هذا الباب يتساويان، فليس بيننا كاتب هازل يعيش بهزله، وليس بيننا كاتب جاد يعيش بجده؛ وسبيل العزاء في هذا أن الهزل والجد يعيشان على نمط واحد، فلا يجوز الهزل حتى يطمس معالم الجد، وإن شاء أن يجور

كذلك يتعاقب أدباء الكهول وأدباء الشباب في أوربا، ولهم في التعاقب معنى يتمثل في تعاقب الأدوار وتلاحق الأفكار، وتباين المدارس الذهنية على حسب الأحوال والأطوار.

أما عندنا فحين ظهر بيننا من ينتعون أنفسهم بمدرسة الشباب لم يكن معهم شيء جديد ولا دليل على الحداثة غير شهادة الميلاد، وراحوا في دعوتهم يميعون تميع الذي يربت على عطفيه ويتحبب إلى نفسه ويفرط في تدليل سنه كأنه يتقدم في سوق الرقيق لا في ميدان الفكر وحلبة الصراع

بيد أننا قد جربنا الاختلاف بيننا وبين أوربا الحديثة في خصال كثيرة صلح بعضها ولا تزال لها بقية على سنن الإصلاح؛ فلنجرب ما بيننا وبينها من اختلاف في هذه الخصلة خمسا وعشرين سنة أخرى، ولا ننتظر نهايتها حتى نتفاءل ما وسعنا التفاؤل على أبواب المجهول، وحسبنا منه فيما نحن فيه أن يتساوى الأمران فلا موجب للأمل ولا موجب للقنوط، وكل ما كان بالأمس فهو وشيك في غد أن يكون

أيذكر الأستاذ الزيات ما كانوا يعيبونه قبل خمس وعشرين سنة على كتاب الجيل الناشئ وشعرائه وناقديه؟؟ كانوا يجمعون العيوب كلها في كلمة واحدة يسمونها (التفرنج) ويعنون بها الخروج على قواعد العربية، وكان يخيل إلى سامعيهم أنهم على صواب لا ريب فيه؛ فهل نرى اليوم مصداق ذلك في لغة الفريقين من المسومين بالإعراب والموسومين بالتفرنج في ذلك الحين؟ أقرب الظن أن هؤلاء (المتفرنجين) من كهول اليوم أوفى للعربية من أولئك المستعربين المتشددين، فإن لم يكن ذلك شفيعا للأمل في غد، فلعله أن يكون معينا على الانتظار!

أدب الموافقة

(أعتقد أن قيمة الكاتب موصولة صلة خفية بمقدار ما يستجيشه من روح الثورة. ولعليّ أقترب من صحة التعبير إذا قلت روح المقاومة. إذ لست من الحمق بحيث أتخيل أن كتاب الجناح الأيسر وحدهم هم أصحاب المزية الفنية)

(قلت محتجاً على صاحبي: إن أجمل الآثار الفنية ومنها الآثار التي يكتب لها الشيوع بعد ظهورها كثيراً ما كانت في بداية الأمر مقصورة في عرفان قدرها على فئة جد قليلة. وناولته كتاباً أتفق أن كان معي ساعتئذ قائلاً: إليك فاقرأ. إن بيتهوفن نفسه قد جرى عليه مثل ذلك)

ستدفعون الفنانين بينكم إلى الموافقة. ومن أبى من خيرتهم المنتقاة أن يبتذل فنه ألجأتموه إلى السكوت، فتعود الثقافة التي تزعمون خدمتها وإيضاحها والذود عنها وهي وصمة عار عليكم)

(مهما يكن من جمال العمل الفني في بلاد الجمهوريات الشيوعية الروسية فهو يعيب صاحبه إن لم يكن على النسق المرسوم. إن الجمال عندهم خلة من خلال الموسرين! ومهما يكن من عبقرية الفنان فهو مصدوف عنه عفواً أو قسراً إن يعمل على النسق المرسوم، فكل ما يطلب منهم الموافقة، وهو ضامن بعدها كل ما عدا ذلك)

(إذا أضطر العقل اضطراراً إلى الإذعان لكلمة الأمر فأقل ما هنالك أنه قادر على الإحساس بفقد الحرية. أما إذا سيس العقل من بداية الأمر سياسة توحي إليه أن يذعن قبل أن تأتيه كلمة الأمر فقد بلغ من فقده أن يفقد حتى الشعور بالاستعباد. وإني لأعرف من اجل هذا أن كثيراً من الفتيان الشيوعيين يستغربون ويمنعون في الإنكار إذا قيل لهم أنهم محرمون نعمة الحرية)

(إن خير الوسائل التي يبلغ بها الكاتب مزيته العالمية لهي مواهبه المتفردة كل التفرد. لأن المرء إنما يكون بشراً عريق الإنسانية بفرط ما فيه من الخصال الفردية،

فما كان روسي أعرق روسية من مكسيكم جوركي، وما أصغت أسماع العالم إلى كاتب روسي أشد من إصغائها إليه)

تلك شذرات من الكتيب اللطيف الطريف الذي كتبه الأديب الفرنسي الكبير (أندريه جيد) بعد عودته من البلاد الروسية، متحريا فيه ما تعود أن يتحراه من الصدق والصراحة والاعتراف بالخطأ والأنفة والإصرار عليه ذهابا مع الغرور والكبرياء. وقد كان من نصراء الدولة الروسية الحديثة وأصحاب الرجاء العظيم في تجاربها ومساعيها، فلما شهد الحقيقة بعينيه لم يخادع نفسه ولم يغالط حسه، وعاد يأسى ويأسف في لهجة منزهة من الضغينة والتشهير، ولكنها تشف عن خيبة الرجاء في كثير من الأمور.

فالثقافة هي مقياس الصلاح في كل نظام .

أما مقياس الثقافة فهو الابتكار والحرية، أو هو (المزايا الشخصية) التي يعبر عنها الفنان والشاعر والكاتب كما قررنا ذلك واعدنا تقريره مرات، ولا نظنه اليوم في غنى عن التقرير

لا أمل في نظام حكومي أو نظام اجتماعي لا تقترن به ثقافة العلوم وثقافة الفنون , ولا أمل في ثقافة نعرف ما تنتجه قبل أن ينتج، ونستغني عما تصوغه قبل أن نطلع عليه، لأنه لن يعدو ما نعلم وما نظن من موضوع ومن غاية ومن قالب ومن تصوير وتفكير .

وقد نسى (جيد) أن الكاتب الروسي في ظل الشيوعية مطالب بشيء غير (الموافقة) واصعب تحصيلا على طالبه من الموافقة! لأنه إذا وافق الروسيين الخاضعين للأمر والوحي والإلهام فمن الواجب أن لا يوافق القراء الغرباء الذين لا يخضعون لأمر ولا يصدرون عن وحي أو الهام. وويل للكاتب الروسي الذي يصاب باستحسان العالم لما يكتب ويبتلى بتقريظ النقاد في بلاد راس المال لما يمثله من شعور ويرمز إليه من آمال ويشابه به الآدميين الموسرين من عواطف وأحلام وأفكار .

تلك إذن خيانة، تلك إذن مخالسة وخديعة، تلك إذن مؤامرة بين الكاتب وبين نظام راس المال، ويكفي أن يتشابه الإنسان الشيوعي والإنسان (البورجوازي) في بعض

العواطف والأحلام لتثبت دلائل المؤامرة كل الثبوت، أو يثبت شذوذ الكاتب عن خلائق الشيوعيين، لأنه إنسان كسائر الناس!!

ومن أضاحيك القوم أن تصدر رواية لبعض أعلامهم بالإنجليزية والفرنسية والشيكية ولما تصدر بالروسية، ونعني بها رواية (نحن) لمؤلفها الكاتب الروسي النابغ (زمياتين) الذي يدين بالثورة ولكنه يدين بآمال لبني الإنسان وراء آمال الشيوعيين.... فيقول الناقدون الحكوميون الحصفاء: وماذا عسى أن تكون تلك الآمال؟ أليس هذا دليلاً على أن الكاتب يخامره شعور كشعور الموسرين الذين فقدوا غنائمهم فهم أبداً في حنين إلى حال وراء هذا الحال؟!

وحقت اللعنة على زمياتين لأنه يحظى بالشهرة والمتابعة بين أناس من الآدميين البورجوازيين. فضاع الرجل في بلاده ولم يغن عنه إعجاب القراء في غيرها، ولم يؤذن له أن يكون إنسانا لأن الإنسانية تشمل الناس جميعاً. أما الشيوعية فلا ينبغي أن تشمل أحداً غير الشيوعيين!..

ونحسب أن المقاييس كلها عرضة للضلال والحيرة والاشتباه. إلا مقياس الحرية الفنية فهو وحده حسب الباحث من قياس صحيح واف لمراتب الأمم وفضائل المجتمعات ومآثر الحكومات.

فلا حرية - حق حرية - حيث تتقيد الثقافة الفنية، ولا استبعاد - حق الاستبعاد - حيث تنطلق الثقافة الفنية من قيودها

وبهذا المقياس الصادق المحكم ننفذ إلى الصميم من وراء الأغشية والظواهر ولا نقصر الحكم على الحرية التي تمثلها الشرائع ودساتير الحكومات

فرب أمة لا تشتمل قوانينها على خرف واحد يحرم الابتكار والحرية، بل تنص القوانين فيها على حرية الرأي وحرية الإبداع والتصوير، ثم يظهر (الأثر الفني) فيها فتضيق به الصدور وتشيح عنه الأبصار وتتلاحق الكوارث على رأس صاحبه، لأنه يقول ما لا يعجب الناس وإن لم يقل ما يخالف القوانين ويناقض الدساتير

تلك أمة من العبيد وإن قيل على الورق إنها أمة من الأحرار. وشر ما فيها إنها مستعبدة مقهورة بغير حراس وغير قيود وغير طغاة، ولو كان استعبادها من حراسها وقيودها وطغاتها لزال الاستعباد حين يزول جميع هؤلاء .

ورب أمة تزدحم الأوراق فيها بتحريم هذا وعقوبة ذاك ولا تنقطع فيها مبدعات الجمال وآيات الفنون فترة من الفترات. فارجع إلى مقاييس القوانين كلها تقل لك إنها أمة مغلوبة مسلوبة، وارجع إلى مقياس الفن وحده يقل لك ما هو اصدق واعمق، وهو أن السعة سعة النفوس والأذهان لا سعة الدساتير المسطورة على الأوراق؛ وإن نفساً تتسع للإبداع الحديث وترحب بالرأي الغريب وتستقبل النوازع النفسية والخوالج الفنية بغير حدود ولا أرصاد لهي حرة في غنى عن الإذن لها بالحرية، وهي وشيكة أن تنفض عن كواهلها كل ثقل يحول بينها وبين العمل الطليق

شر الآداب هو أدب الموافقة والمجاراة، لكننا نخطئ إذا حسبنا الحكومات الغاشمة علة هذا الأدب دون سائر العلل التي تفرضه على الكتاب والقراء

فالأدب التجاري أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم. لأن الذي يكتب للرواج يكتب ما يوافق الأذواق ويجاري الأهواء ولا يكتب ما ينبعث من سليقة حرة وقريحة شاعرة، والذنب في ذلك على الأخلاق لا على القوانين

والأدب الضعيف أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم، لأن النفس الضعيفة لن تهتدي إلى القوة ولو أخلى لها الحاكم طريقها. فهي توافق وتجاري عجزا عن الخلاف والانفراد، لا خوفاً من التفكير الطليق والقول الصريح

والأدب الجامد أدب موافقة ومجاراة، لأنه ينافر الحركة ويوافق السكون والركود .

والأدب الذليل أدب موافقة ومجاراة، لأن الذليل لا يحسن غير التمليق والازدلاف، ولن يكون الملق إلا بالموافقة ولو كانت غير مأجورة، وبالمجاراة ولو كانت غير مشكورة

وما من عيب تعيله على أدب من الآداب إلا انتهى في قراره إلى أن يكون ضرباً من الموافقة ونقصاً في الحرية والإبداع، فالموافقة لا جديد فيها ولا حاجة إليها ولا دوام لها،

وإنما تولع النفوس بالأدب لأنها متغيرة وليست براكدة، ولأنها متطلعة وليست بعمياء، وكيف يتفق التغير والمطابقة؟ وكيف يتمشى التطلع والاستقرار؟

إلا إننا نبادر فنقول إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء المـوافقين المستسـلمين، لأن التمـرد المصـطنع إن هـو إلا موافقـة مسـتورة ومجـاراة معكوسـة، فيـه كل ما يؤخـذ على التقليـد مـن نقـص وكل مما ينعى عليـه مـن وخامـة، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تال.

اسم الملك في مصر القديمة دليل على عراقة النظام الملكي فيها، لأنه دليل الرسوخ والتوطد والعمران المستفيض على حين يعرف الملك في البلدان الأخرى بأسماء قريبة من البداوة أو من حالة البداية الفطرية.

فالملك في اللغات اللاتينية مأخوذ من كلمة الراجا الهندية وهي في الأصل بمعنى الربان.

والملك في اللغات السكسونية مأخوذ من كلمة جناكا الهندية وهي بمعنى الوالد، ولعلها كما يرى بعض الباحثين في اللغات القديمة قريبة من كلمة الخان وما إليها.

والملك في العربية وأخواتها بمعنى الاستيلاء، والأمارة بمعنى الأمر، وكلاهما يتحقق لأصغر الحاكمين ولو كانوا من رؤساء العشائر، لأن المرجع فيهما إلى الرآسة حيثما كان رئيس ومرؤوسون.

أما (بارو) أو فرعون كما نعرفها الآن فمعناها (الباب الكبير) أو (الباب العالي) وهو الاسم الذي كان المصريون الأقدمون يعرفون به ملك البلاد، وتسمية الملك به دليل على (تطور) الحكم عندهم من حالة الأبوة أو الزعامة البدائية أو الرآسة المستمدة من أواصر القرابة إلى حالة السياسة وتدبير العمران وقيام الدواوين ومراسم السلطان.

كذلك كان المصريون يعرفون التيجان ومعانيها السياسية إذ كان لا يتجاوزون عهد العصابة أو عهد الإكليل من النسيج والزهر، ثم من المعادن والجواهر، فكان لملك الوجه البحري تاجه وشعاره، وكان لملك الوجه القبلي تاجه وشعاره، ثم اتحد الوجهان فاتحد الشعاران؛ وظل الملوك حينا يلبسون هذا أو يلبسون ذاك للدلالة على الحقوق السياسية التي تناط بكل تاج وكل شعار.

وعراقة النظام الملكي معقولة طبيعة في بلاد كالبلاد المصرية تحتاج إلى نظام واحد في الرأي ونظام واحد في الحكومة، ويد واحدة تشرف على سقيها وتدبير معيشتها؛

ويساعد على استقرار (النظام) فيها أن أمورها كلها مستقرة تجري على مثال واحد قليل التغيير والتبديل.

قال الأستاذ ألفرد فيدمان الألماني في كتابه (ديانة قدماء المصريين): (إن الهيمنة على جداول الأرض كانت بطبيعتها أقرب إلى التركيز والتوحيد من سائر المرافق الأخرى. إذ لا يتأتى تنظيم الري في مصر على نحو مضمون مكفول بغير هيمنة واحدة تمنع الأفراد أن يجوروا على المصلحة القومية في سبيل المنافع الفردية)

وتناول الأستاذ اليوت سميث هذا الرأي فشرحه وفصله في كتابه (التاريخ الإنساني) وأيد فيه ما سبقه إليه العالم الألماني من تعليل عبادة الملوك في مصر القديمة، إذ كان المالك عندهم لزمام النيل ومقادير الماء مالكا في ظنهم لمصادر الحياة، خليقاً أن يحاط بمظاهر من التعظيم ومناسك من التقديس لا يحاط بها الإنسان، ولا تكون لغير الأرباب.

ويزكي هذا الرأي أن (مينا) رأس الملوك الذين وحدوا البلاد وجمعوا بين حكم الوجهين إنما كان في معظم أعماله مهندساً يسوس الماء ويدري من ثم كيف يسوس البلاد، وإليه ينسب المؤرخون الأولون تحويل مجرى النيل وإقامة في أقاليم منف والفيوم.

ثم جاء عهد الحضارة العربية وهي الحضارة الثانية التي بقي لها بعد الحضارة الفرعونية أخلد الآثار في تكوين الشعائر وتقرير نظام الحكومة بين المصريين.

والفرق بين مظاهر الملك فيها ومظاهر الملك في الحضارة الفرعونية هو الفرق بين حاكم يقول: إنه (عبد الله) وحاكم يقول ويقال له: إنه هو الإله وسيد الخلق والأمر وباعث الخير من الأرض والسماء.

فليس للملك العربي (تاج) ولا يحب الملوك العرب أن يتشبهوا بالأعاجم في هذه المراسم. مدح عبد الله بن قيس الخليفة عبد الملك بن مروان بقصيدة من جيد شعره فيها.

إن الأغـــــــر الـــــــذي أبـــــــوه أبـــــــو العـــــــا

صـــــي عليــــــه الوقـــــــار والحجــــــب

خليفــــــــــة الله فـــــــــوق منبـــــــره

جفـــــــت بــــــذاك الأقــــــلام والكتــــــب

يعتـــــــدل التـــــــاج فـــــــوق مفرقــــــه

علــــــى جبــــــين كأنـــــــه الــــــذهب

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس! تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب (ابن الزبير):

إنمــــــا مصــــــعب شــــــهاب مــــــن الــــــل

ه تجلــــــت عــــــن وجهــــــه الظلمـــــــاء

ملكــــــه ملــــــك عــــــزة لــــــيس فيــــــه

جبــــــروت ولــــــيس فيــــــه ريــــــاء

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً. . هذا وعبد الملك بن مروان كان من ملوك العرب الذين أكثروا من اقتباس الأزياء والشارات الفارسية، إلا مراسم التيجان التي بغضتها إليه النعرة العربية كما بغضتها إليه موجدته علي ابن الزبير ومن مدحوه وجنحوا إليه!

وأيا كان سر الإنكار في نفس عبد الملك فقد ظل الملوك المسلمون يؤثرون العمامة على التاج ويتخذون آثار النبي عليه السلام - ومنها البردة والخاتم - شعاراً للخلافة أعز عندهم وعند الرعية من كل شعار.

ثم جاء خلفاء الترك فاختاروا العمامة على التزين والترصيع، حتى لبسوا الطربوش وميزوه على سائر الطرابيش بحلية من حلي التجميل، كراهة منهم أن يتخذوا التاج ويتشبهوا بالملوك الأوربيين

أما ملوك مصر فقد لبثوا يتخذون الآثار النبوية شعاراً للخلافة حتى زالت عنهم هذه الآثار فعوضوها بما يشبهها، ثم جروا على سنة الولاة العثمانيين حين دخلت مصر في حوزة الدولة العثمانية.

ثم قامت الأسرة العلوية على أساس الانتخاب والتولية في وقت واحد: فقد أساء الوالي العثماني الحكم فاجتمع العلماء والنقباء بدار المحكمة واستقر رأيهم على اختيار محمد علي الكبير والياً عليهم وإبلاغه ذلك والكتابة إلى الآستانة في هذا المعنى. وانتقلوا إلى دار محمد علي باشا هاتفين: إننا لا نريد هذا الباشا - يعنون خورشيد باشا - والياً علينا. وقال السيد عمر مكرم: (إننا خلعناه من الولاية)... فقال محمد علي باشا: ومن تريدونه والياً عليكم؟ فقالوا بصوت واحد: إننا لا نرضي إلا بك لما نتوسم فيك من العدالة. قال بعد تردد: إنني لا أستحق هذا المنصب وقد يكون في التعيين مساس بحق السلطان. فعاد العلماء والنقباء يقولون: إن العبرة برضى أهل البلاد وقد أجمعنا على اختيارك.

فقبل محمد علي وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي الكرك والقفطان وهما خلعة الولاية. ولم يمض على ذلك شهران حتى جاء الفرمان من قبل السلطان بإقراره في منصبه وتعزيز ما اختاره الشعب لنفسه، فكانت هذه هي بيعة الشعب المصري لمحمد علي الكبير ولأسرته من بعده

وكانت النهضة المصرية وشاء الله لمصر أن تكون ولاية مليكها المحبوب (فاروق الأول) فتحاً جديداً في تاريخها لا مثيل له في جميع هاتيك العصور، وقدوة للاحقين جمعت كل حسن سائغ من الماضي وتنزهت عن كل ما يأباه المليك ويأباه رعاياه:

استقلال الفراعنة بغير شوائب الوثنية، وملك العرب بغير رعاية أجنبية، واختيار الشعب بغير الولاية العثمانية. وقد كانت الدولة البريطانية تزعم لنفسها المزاعم في إبان الحرب العظمى، فبطلت هذه المزاعم وقام الملك الفاروق بالأمر بيننا أول ملك خلص لمصر عرشه وخلص له حبها واختيارها. فلا نظير لهذا الملك في عهد الفراعنة ولا في عهد العرب ولا في دولة العثمانيين ولا في دولة الإنجليز. وهنيئاً لمصر هذه البداية،

وهنيئاً للفاروق هذه المزية، وهنيئاً للمستقبل ما يرجى له من طوالع هذا الفأل الحسن وهذا البشير السعيد

وإن من الخير لمصر أن يكون تاجها هو التاج الذي اختاره الله للمليك الفاروق الفارق بين جيلين وعصرين:

تاج محسوس بالقلوب مثاله هو شخص المليك المحبوب، ورمز تراه الأفكار قبل أن تراه الأبصار، وطلعة كما قال عبد الله ابن قيس:

شـــــــــــــهاب مــــــــــــــــن الـــــــــــــــل

ه تجلـــــــــــــت عـــــــــــن وجهـــــــــــه الظلمـــــــــــاء

ملكـــــــــــه ملـــــــــــك عـــــــــزة لـــــــــيس فيـــــــــه

جبـــــــــــروت ولـــــــــــيس فيـــــــــه ريـــــــــــاء

أدب التمرد

في ختام مقالنا عن أدب الموافقة قلنا (إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة: فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص، وكل ما ينعى عليه من وخامة، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تال)

فليس كل التمرد إذن خيراً من كل الموافقة؛ وليس كل التمرد ابتكاراً وخلقاً واستقلالاً بالرأي والفطرة. فكيف على هذا نميز بين التمرد النافع المحمود والتمرد الذي هو ضرب من الموافقة المعكوسة؟

والمحك الذي لا يخيب ولا يخطئ في التمييز بين كل أدب صحيح وكل أدب سقيم هو هذا: هو أن الأدب الصحيح لن يكون آلياً يجري على نمط الأشياء التي تصنعها الآلات والتي تعرف سلفاً كما يعرف كل مصنوع في قالب مصبوب.

والأدب الذي يوافق ولا يخالف (آلي) محض، لأن صاحبه ينزل عن مرتبة الإنسان إلى مرتبة الآلة التي تحذو حذو ما سبقها ولا تضيف إليه أو تمسه بتحسين وتنقيح.

وكذلك الأدب الذي يتمرد على كل شيء ولا يميز بين ما هو أهل للموافقة وما هو أهل للنسخ والمناقضة إنما يصنع كما تصنع الآلة ويغنيك عن صاحبه كل الغنى، لأنك تعرف رأيه قبل أن تسمعه، وتدرك أسلوبه قبل أن تراه.

وغاية ما بين هذا وذاك من فارق أن الموافق يؤتى له بشيء فيراه كما يراه السابقون ولا يحب أن يراه على خلاف ما نحلوه من لون ورسموه من شكل ونهجوه من طريق: يقال له هذا أبيض، فيقول نعم هذا أبيض؛ ويقال له هذا جميل، فيقول نعم هذا جميل.

أما المتمرد الكاذب أو المتمرد المصطنع فأنت تعلم ما يقول عن الأبيض قبل أن يلمحه بعينه، وما يقول عن الجميل قبل أن يتأمله بفكره ويروزه بحسه وبصره: فالأبيض عنده أسود، والجميل عنده قبيح، والنافع عنده ضار، والضار عنده نافع

على غير قياس وفي غير تمييز وتمحيص. فإذا به ينزل عن مرتبة الإنسان وينقلب آلة معروفة الوزن والحساب على العكس والمناقضة؛ ومثل هذا لا يخلق جديداً ولا يحمل في عالم الأدب والفن أمانة، ولا يبالي بشأنه إلا كما يبالي بشأن المريض لاستطلاع حالة من أحوال سقم النفوس والأذواق.

إن (الآلية) هي الوصف الوحيد الذي ما جاز قط ولن يجوز أبداً في نتاج أدب صحيح أو فن صحيح.

وإنما يجوز الخلاف فيما عدا ذلك من الأوصاف. أما وصف الآلية فالاتفاق على إنكاره بداهة من البداهات، إذ كان معدن الفن كله حرية السليقة والقدرة على الإبداع والإتيان بالجديد حتى في عرض المعنى القديم.

ونحن حين نقول الحرية لا نقصر الغرض منها على حرية الفنان في مواجهة العسف والإملاء والإيحاء من غيره، ولا نقصد منها أن الفنان يأبى ما يرسم له ويساق إليه على حكم القسر والاضطرار؛ ولكننا نقصد بها مقصداً قد يلوح في بادئ الرأي غريباً نابياً وهو هو المألوف المشهود فيما يمارسه وفيما قد مارسه كل صاحب فن وكل صاحب رسالة أدبية: نقصد بها (حرية الفن) حتى بين الفنان ونفسه، فليس له أن يعتسف ولا أن يدعو ملكته إلى غير ما ترضاه وتنساق أليه بمحض (الحرية) وعفو السليقة، وليس له هو أن يخط للحرية الفنية حدودها أو يشق لها طريقها، لأنها (حرية مطلقة) لا فرق عندها بين طغيان صاحبها وطغيان عدوها، ولا محاباة عندها في استجابة أمر تراد عليه.

ومن الأدباء الواقعيون والخياليون، ومنهم أنصار الماضي وأنصار المستقبل، ومنهم الماديون والروحيون، ومنهم المتفائلون والمتشائمون، إلا أنهم جميعاً في هذه الخصلة سواء؛ وهي الخصلة التي يتمردون بها على الآلية ويرتفعون بالإنسانية إلى ذروتها العليا؛ وما كانت للإنسانية علامة ترفعت بها عن درك الحيوان إلا التكليف؛ وما كان التكليف إلا الدرجة الأولى من سلم الحرية التي تأخذ بشيء وتدع ما عداه، والتي تختار بين الحميد والذميم والمطلوب والممنوع. أما الدرجات فوق ذلك فهي (الحرية الفنية) التي تنبعث من باطن الإنسان بغير آمر ولا زاجر، ولا تتوقف على التكليف والتخيير.

نعم ليس الواقعيون أو الماديون عنواناً آخر للموافقين أو المقلدين. فمن يصف الواقع ليس باللازم اللازب أن يخضع له ويرضاه، ومن ينكر المثل العليا ليس باللازم اللازب أن ينكر الحركة ويخلد إلى الجمود.

لقد كان المتنبي (واقعياً) إلى جانب العمل، وكان المعري واقعيا إلى جانب الزهد والقعود، وكلاهما مع هذا مثل بارز في التمرد والثورة على (الآلية) والتقليد؛ فأسلوب المتنبي جديد، وخبرته للناس جديدة، وثورته على الواقع معناها أنه من المتمردين وليس من الموافقين.

أما المعري فهو على تشاؤمه وزهده قد دفع الحاضر المحيط به دفعة الجبار الذي يهدم بيديه وهو قائم في مكانه. وقل فيه ما شئت إلا أنه آلة وليس بإنسان في الصميم من الحرية الإنسانية؛ وقل في تمرده ما شئت إلا أنه تمرد آلي وليس بتمرد (حر) يمتاز به المعري بين سائر المتمردين؛ وإلا فمن هو المتمرد الذي يشبه المعري في تناول الأمور ونقد العيوب وصياغة النقد في منظومه ومنثوره؟؟ تلك علامة الأدب الصحيح أو الفن الصادق: علامته أن عشرين شاعراً ينكرون أموراً بعينها ثم يختلفون في نمط الإنكار اختلافا يحمل عنوان كل شاعر منهم ولا يخالط غيره من العناوين.

من الواجب أن نثور على أدب الموافقة

وأوجب منه أن نثور على أدب (الثورة) الكاذبة، أدب التمرد البخاري أو الكهربائي الذي يحطم ذات اليمين وذات الشمال كما تحطم القاطرة بغير سائق.

وفي أوربا اليوم غاشية من هذا التمرد الزري يوشك أن تسري إلى أمم الشرق، لأنها أشبه الأمور معاً بكسل الكسالى وجموح الجامحين. فأما الكسلان فالتمرد الآلي مغنية عن التحصيل، ومغنية عن إجهاد الذهن ورياضة الذوق على التفريق والتمييز؛ وأما الجامح الأهوج فالتمرد الآلي في يديه كالسيف الذي يشهره المجنون وهو مغمض العينين أو مفتوحهما على حد سواء.

وأظهر ما كان ظهور التمرد الآلي في عالم التصوير، لأنه الفن الذي يفاجئ العيون ولا يخفي الشذوذ فيه حتى يتسرب إلى الأفكار والأذواق. فالمصورون المجددون اليوم في أوربا اللاتينية يصورون لك ما شاءوا إلا ما تراه وتحسه وتتخيله وتفقه مغزاه. ومن

المحقق أنك تبحث عن وجه الرجل المرسوم فلا تراه، وعن مشاهد الطبيعة المرسومة فلا تراها، وعن الرمز المتوقع أو الشبه المنتظر فلا تلمح أثراً لهذا ولا لذاك... وكل شكل جائز أن تلقاه في الصورة إلا الشكل الذي يجب أن تلقاه!! ولا تدري بعدها ما الذي على الإنسان أن يتعلمه ليسلك في عداد المصورين؟ هل يتعلم الرسم؟ هل يتعلم مزج الألوان؟

هل يتعلم التشريح؟ هل يتعلم التعبير؟ هل يتعلم مشابهة الملامح؟؟ كلا! لا ضرورة لذلك في صناعة التصوير إلى مذهب هؤلاء المجددين. فما من صورة حديثة فيها سمة من تلك السمات. ولعل تعلم الحلاقة أو تعلم الطبخ أو تعلم النسيج أقرب إلى إخراج صورة الإنسان على هذا المثال من تعلم الرسم والتشريح والألوان.

وإنما تبدو لنا حقيقة هذا التمرد إذا نظرنا نظرة واحدة إلى وجوه دعاته والمتظاهرين بفهمه واستحسانه. فجميعهم أمساخ مشوهون، أو ضعفاء مهملون، لا يقعون في موقع من الأنظار ولا الخواطر. ودأب هذه الزمرة من الناس أن تنكأ الأذواق والضمائر لتبلغ ممن يعافونها ويعرضون عنها مبلغاً من الانتباه والمبالاة، وتلك سريرة خفية في جماعة الخلعاء حيث كانوا وحيث تهيأ لهم الظهور بالتفحش في الأخلاق، أو التفحش في الأذواق، ومن كان منهم سويَّ الخلق معتدل التركيب في ظاهر الأمر فآفته لا محالة نقمة مطوية تلحقه بزمرة الأمساخ والمشوهين، ولولا ذلك لما جنح إلى إيذاء الشعور واللجاجة في إيذائه حتى يقال من حوله إنه ليس بحقير وإنه لا يترك بغير انتباه.

ذلك نموذج من وباء (التمرد الآلي) في الفنون الأوربية الحديثة، وهو تمرد أدنى إلى الغثاثة والعقم من كل جمود وكل موافقة.

الخروج من النفس

كل ناقد لابد له من قدرة على الخروج من نفسه بعض الأحايين، أو من قدرة على تصور الأشياء كما يتصورها مائة إنسان لا كما يتصورها فرد واحد في جميع الحالات .

وما كان (الخيال) ملكة من أنفس الملكات وألزمها للناقد والأديب والشاعر والعالم إلا لأنه يتيح للإنسان أن ينظر إلى نفسه أحياناً كما ينظر إلى غريب، وأنه ينظر إلى الغرباء أحياناً كأنهم نسخ أخرى منه يحس معها وتحس معه، ويحس باللحظة عينها بالفوارق بين تلك الأحاسيس جميعها، فينقد ويؤلف ويقسم ويوزع ويعلم أن الصواب لا ينحصر في سمت واحد ولا حالة واحدة، وأن الأمر لا يكون خطأ لأنه يخالف ما استصوب، ولا يكون دميماً لأنه يخالف ما استحسن، ولا يكون بدعاً غريباً لأنه يخالف ما تعود، ولكنما الحقيقة فصيلة من فصائل الجان، تتشكل كما يتشكلون بمختلف الأشكال والنماذج والألوان.

وبعض الأمم يبتلون بضعف الملكة الناقدة لأسباب كثيرة بعضها أصيل وبعضها عارض يزول.

فمنها ما يؤتى من جانب الغرور عقب النصر الباهر، وفي أيام الرخاء والوافر؛ ومنها ما يؤتى من جانب الجمود والركود وطول العهد بالحضارة، بين جيران من ذوي الخشونة والجلافة؛ ومنها ما يؤتى من جانب العزلة وقلة المخالطة والهجرة؛ ومنها ما يؤتى من بلادة الحس وضيق العطن وشيوع الجهل والقدامة؛ ومنها ما يؤتى من التعصب الشديد الذي يؤصله في النفس طول الظلم والاضطهاد مع قوة في الشكيمة وقدرة على التحول والتصرف تحول دون الأمة والفناء

وأحسب أن المصريين من أكثر الأمم سخرية بما استغربوه ولم يتعودوه، فلا يكون الخطيب خطيباً ولا الواعظ واعظاً ولا الممثل ممثلاً إلا إذا خاطبهم باللهجة المصرية التي لا تشوبها مسحة من اللهجات العربية الأخرى ولو كانت ريفية من صميم البلاد المصرية

وأذكر أن ممثلاً سورياً كبيراً حضر إلى مصر بعد اغتراب سنوات في أوربا تتلمذ خلالها على أساطين المسرح الحديث وعاد إلى مسرحنا بنمط جديد في بعض الأدوار يبذ به أنداده وسابقيه، فذهبت ومعي اثنان من الأدباء - وأقول من الأدباء لا من عامة السواد - وأصغينا إلى الرجل وهو يترقى في دوره حتى شارف القمة وألهب النفوس بالتشوف واحتداد اللهفة، ونظرت إلى جانبي فما راعني إلا أحد الصاحبين، وقد غلب ضحكاً، وإلا الصاحب الثاني يكاتم الضحك مكاتمة شديدة، وكل ذلك لأن الممثل قد مط الحروف وهو يصرخ ويهيج على نحو يقارب الفرنسية من جهة، والسورية من جهة أخرى، فنسي الأديبان أن الإنسان قد يتألم سورياً وفرنسياً وليس من الضروري أن يتألم مصرياً وقاهرياً وإلا انقلبت الخوالج الآدمية فأصبح الألم مما يضحك والهياج مما يدعو إلى الفكاهة، وحسبا أنني لم أفطن لاختلاف اللهجة كما فطنا... فخرجا يتندران بهذه القصة ويزهيان بالفطنة التي رزقاها وحرمتها، والذوق (الدقيق) الذي عداني وما عداهما!

وكان عيد الحرية الثمانية فذهبنا جمعاً من الإخوان نشهد الحفل الحافل في بعض المسارح المشهورة يومذاك، وكان بين الخطباء ترك وعرب وسوريون. فما أحسب أن رواية هزلية في ذلك المسرح أثارت قط مجانة وضحكاً وسخرية كالتي أثارتها (حماسة) الخطباء والشعراء وذكريات الفجائع والمظالم في أيام الاستبداد. وكان أحد الخطباء مبيناً مفوهاً متدفقاً كأحسن ما يكون الخطيب في لغة من اللغات، إلا أنه ارتضح لهجة غريبة فبطلت محاسنه واحتجبت مزاياه. ولم يكن قصارى الأمر عند أصحابنا أنه يجهل العبارات المصرية والمخارج القاهرية، وإنما كان عندهم جاهلاً بكل شيء يجعل الخطيب خطيباً ويجعل السامعين يستمعون إليه.! فلما قلت لهم: إني أعد الرجل من أقدر من سمعت وأوفاهم بياناً، قام أحدهم يحكيه ويردد عباراته ويمثل إشاراته وحركاته فسقطت الحجة كلها وقطعت جهيزة قول كل خطيب!!... وإلا فماذا يبقى من قول القائل الذي يخالف اللهجة القاهرية هذه المخالفة، والذي يستطيع القاهري أن يحكيه ويتماجن عليه؟؟ لا يبقى بالبداهة شيء

ويؤمن العامة إيماناً عجيباً بملازمة الأشياء لصورها وأسمائها وعاداتها التي ألفوها حتى لا يجوز أن تقع التفرقة بينها بنحو من الأنحاء

سألت أحدهم مرة: ما اسمك؟ فأخفى اسمه الصحيح وقال لي إن اسمه (علي) وهو في الحقيقة يسمى إدريس، وكأنه امتحن ذكائي بهذه الأكذوبة وظن أنني لا أفرق بين الكذب والصدق إذ كان الرجل الذي يسمى (إدريس) تلزمه هذه التسمية لزوماً لا فكاك منه ولا يمكن أن يسمى علياً بحال من الأحوال.! فلما دعوته مرة أو مرتين باسم (علي) وصدقت ما قال تدرج إلى غشي ومخادعتي في غير ذلك موقناً أنني سأجهل الحق كما جهلته في استبانة اسمه الصحيح. وأين... نعم أين بالله علي من إدريس؟!

هذا مثل هابط جد الهبوط في ملازمة الأشياء لمظاهرها وأسمائها بحيث لا تقبل الاختلاف ولا التصور على مثال آخر، ولكن الذين يهبطون هذا الهبوط كثيرون وإن لم يظهروا هذا الظهور. وما من ناقد ينكر كلاماً لأنه يخالف أسلوباً من الأساليب إلا وهو قريب إلى طبقة ذلك الفدم الذي يستجهل كل من يتخيل أن أسماء تطلق على الناس غير اسم إدريس!

كنا نناقش أستاذاً مدرساً في مسألة اجتماعية فاحتج علينا برأي فيها لبعض الأئمة السابقين، قلنا: وهل هذا الإمام حجة فيما نحن فيه؟

قال: سبحان الله! إننا نقضي العمر نتعلم اللغة العربية ولا نحذقها كما حذقها ذلك الإمام وهو طفل لم يتعلمها على معلم. أفيكون هذا حظه من الفهم ثم يجهل كلاماً نحن ندريه؟

قلت: أو لم يخطر لك أن ذلك الإمام يقضي العمر يتكلم اللغة العامية التي نحذقها نحن ولا يبلغ من حذقها ما بلغناه؟ أو لم يخطر لك أن الطفل المولود بين الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان يسبق ذلك الإمام إلى معرفة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية؟؟ أتظن أن العربي وحده يحسن اللغة التي يتكلمها؟ وإذا أحسنها أتظن أنه يحسن كل شيء على هذا المنوال بغير كتب وبغير معلمين؟

فلاح عليه وأنا أساجله السؤال أنه لم يكلف بداهته قط أن تتصور للأمور أوضاعاً غير الوضع المعروض عليه. وقد تنساق أمة كاملة إلى خطأ شبيه بخطئه كما انساق العرب إلى تسمية الناس جميعاً (بالأعاجم) لأنهم لا يفهمون ما يقولون

ولست أرى ميزاناً للنقد والذوق أصوب وأحكم من سؤال المرء عن عشرة شعراء أو فلاسفة يقرأ لهم ويعجب بهم ويشهد لهم بالشعر والفلسفة. فكلما اختلف هؤلاء وتباعدت بينهم أوجه الشبه وأسباب الاختيار والترجيح كان ذلك دليلاً على سعة القريحة وقدرتها على الاستحسان لجملة أسباب متفرقات لا لسبب واحد متكرر محدود. وكلما تماثل هؤلاء وتقاربوا كان ذلك دليلاً على ضعف النقد وعجز الملكة الموكلة بالاستحسان والانتقاء

ومن هنا نعتقد أن البارودي خطا بالنقد العربي خطوات كما خطا بالشعر في معناه وأسلوبه.

فانتقل بنا من المدرسة التي كانت تقصر الشعر على الجاهليين والمخضرمين إلى مدرسة تعرف الفضل للعباسيين والمحدثين، وانتقل بنا مع ذلك من جماعة الزي الواحد والنمط الواحد إلى جماعة المكاثرين بالأزياء والأنماط. فقد كان الناقد قبله يستحسن البحتري ثم لا شيء بعده ولا شيء غيره، فجاء البارودي على آثار من سبقوه يجمع بين المعري والبحتري وبين ابن الرومي وابن المعتز في ديوان واحد

ولا تزال في مصر بقية من المحدودين المطويين على أنفسهم يلج بهم الغرور ويشتد بهم الوهم على مقدار ما يضيق بهم المجال وينحسر بهم الذوق والشعور. فهم على يقين ما بعده يقين أن (الذوق) لم يخرج من مصر، وأن الذوق هو ما اصطنعوه من الفكاهة الغثة أو الرقة المحفوظة المدبرة المتشابهة العبارات والتحيات والمصطلحات، أو الجناسات الكلامية والفكرية التي لا تطلع على الذهن بلمعة من نور، ولا تترك فيه فضلة من فهم، ولا تبعث فيه حركة من حياة. وتسألهم: كم عدد الشعراء الفحول في عشرة آلاف سنة بين القوم الذين رزقوا الذوق كله والإحساس كله ولم يتركوا على زعمهم بقية منهما إلا كما يترك السؤر في الإناء المهجور؟؟ وكم واحداً من (أبناء البلد) الذين لا ذوق إلا ذوقهم، ولا إحساس إلا إحساسهم، ولا فكاهة إلا فكاهتهم، ولا فطنة إلا فطنتهم، قد صعد في مراتب الفن والشعر إلى مواطئ أقدام المحرومين المساكين، الذين لا يشعرون ولا يتذوقون، ولا يستمرئون اللطافة ولا يستملحون المعاني والنكات؟؟ وإذا كان ما استقروا عليه هو غاية الحس والذوق، وحمادي الإبداع

والإحسان، وقصارى الأناقة والجمال، فما بالهم لم ينجبوا رجلاً واحداً خلاقاً في عالم الشعر أو الكتابة أو التصوير أو الموسيقى، وقد أنجبت الأمم المئات والألوف؟

سيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء الذوق بيننا أنهم صفر من الذوق، وأن الله لم يخلق على الأرض طائفة أغلظ منهم حساً، وأثقل منهم روحاً، وأفرغ منهم لباً، وأعضل منهم داء على العلاج

سيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء النقد عندنا أن الذوق الذي يستحسن حسناً جميل، وأجمل منه الذوق الذي يستحسن الحسنين، وأجمل منهما الذوق الذي يستحسن الشيئين بينهما تناقض في الحسن كأنهما ضدان

وسيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يشيع بيننا أن الآكل قد يشتهي طعاماً لذيذاً ولا يمنع ذلك أن تشتمل الأطعمة على ألف لون لذيذ غيره، وأنه إذا جاز هذا في الآكال التي تعد وتحصر فأخلق أن يجوز فيما ليس له آخر، وهو أطعمة الألباب وأصناف المعاني وألوان الشعور

ونرجو ألا يطول الزمن قبل أن يتعلم الهازلون الماجنون كيف يخرجون من نفوسهم ليعرفوها ويعرفوا سواها، كما يخرج السائح من وطنه ليعرف وطنه، ويخرج القارئ من زمنه ليعرف زمنه، ويبتعد المصور من صورته ليراها حق الرؤية ويبلغ بها جهده من التسوية والتجويد

وتلك نقلة صعبة على من يحتاج إليها. ففي عالم المادة أكثر الناس انطلاقاً إلى الخروج المحبوسون في المكان المغلق المحدود. أما في عالم الفكر والروح فالمحبوسون في المكان المغلق المحدود هم أقل الناس انطلاقاً إلى الخروج وأكثرهم قناعة بما هم فيه.

يجتمع اليوم في مصانع العالم ومخازنه من أسلحة الحرب وأدوات الهلاك ووسائل التدمير ما لم يجتمع مثله قط في تاريخ الإنسان.

فهل يعقل العقل أن تلبث هذه الآلات مشلولة معطلة ينتهي أمرها بانتهاء صنعها ويقف الخطر منها عند حد التخويف والإنذار؟

وإذا هي استخدمت فيما صنعت له وانطلقت من عقالها وفعلت كل ما يخشى من فعلها الموبق الوخيم، فماذا يبقي من الحضارة؟ وماذا يبقي من تاريخ الآدمية بعد أن عبر هذا الشوط الطويل في آفاق الزمان؟ ألا تكون النهاية؟ ألا نرجع كرة أخرى إلى حالة بين الهمجية والحيوانية ينقطع السلم بعدها فلا نهتدي منه إلى طريق صاعد، ولا نعود - إذا ملكنا رأينا - إلى تجربة قد رأينا في خواتمها ما يصد النفوس عن البدء فيها؟

أكبر ما يرجوه الآملون في مستقبل الإنسان أن تنقبض هذه الشرور الجهنمية في محابسها كما تنقبض الشياطين في القماقم، فتخيف الناس خوفاً يعصمهم من آفاتها ويذودهم عن اللعب بنيرانها

فإن لم يصدق هذا الرجاء فأكبر الرجاء بعده أن تصمد البنية الآدمية للخطر المحيط بها وأن تفلت منه ببقية صالحة تحفظ عناصر الحضارة والأخلاق كما تصان الذخيرة المنتقاة من أنقاض الحريق

وأصحاب الرجاء في هذه العاقبة السليمة يعلقون رجاءهم على اختلاف الحال بين العصور التي سبقت زوال الحضارة فيما سلف وبين العصور التي نحن فيها والعواقب التي نحن منساقون إليها

ففي الأزمة الغابرة كانت غارات الهمج على الأمم المترفة هي المعول الأكبر الذي يضرب في أركان الحضارة ويقتلع العمران من أساسه، وكانت غارات الهمج مصحوبة بحال من العقم في القرائح والأفكار تصيب الفنون والعلوم بالفاقة والكساد والنضوب، فكانت تنقضي السنون وراء السنين ولا جديد في عالم التأليف ولا في عالم

الاختراع ولا في عالم الفنون والآداب، وتلك في الوقع هي علامة الدثور والاضمحلال التي لا تزيدها الغارات الهمجية إلا التسجيل والإعلان. ولا شك في أن الحضارات الأولى قد أخذت تموت وتتهاوى قبل أن يجهز عليها المغيرون من أبناء القبائل العارمة، ولا أدل على موتها من ضمور ملكة الخلق والابتكار فيها.

أما اليوم فالأمر بيننا مختلف والاختراع بيننا أروج وأكثر مما كان في أيام ازدهار الحضارات البائدة، وما تطلع الشمس صباحاً واحداً في أنحاء العالم المتمدن على غير كتاب جديد أو ثمرة فنية جديدة أو اختراع طريف أو تنويع وتحسين في اختراع قديم. فالبنية الآدمية بما اشتملت عليه من قدرة على التفكير أو قدرة على الشعور أو قدرة على الابتكار بنية سليمة مهيأة لطول الحياة ومغالبة الأحداث وتعويض المفقود.

هذا مع اختلاف آخر لا يقل في أثره ولا دلالته عن ذلك الاختلاف، وهو أن الغالبين والمغلوبين في أيامنا سوف يكونون من أبناء الحضارة الحديثة المشاركين في علومها وصناعاتها وأدواتها وآلاتها، فمن كتب له النصر من المحاربين في المعمعة القادمة سوف يضطلع بأمانة الحضارة وحده إذا قدرنا أن المهزومين يعجزون كل العجز عن متابعة الطريق واستئناف العمل النافع؛ وسوف يستبقي من علومنا وأفكارنا ما يصلح أن يكون خميرة يأكل من زادها أبناء الأجيال المقبلة، ثم يفتنون فيها ويزيدون عليها.

هذا وذاك مع اختلاف ثالث لا يقل عن ذينك الاختلافين في تغليب دواعي الأمل على دواعي القنوط، وذاك أن معارف الحضارة الحديثة لا تشبه معارف الحضارات الأولى في جواز الفناء عليها. فقد كانت معارف المصريين واليونان والرومان الأقدمين أشبه شيء في جملتها بحرفة الصانع القديم الذي يصون سره ويحمله معه إلى قبره، أو كانت بمثابة الخبرة الشخصية التي لا تقبل التعميم ولا اتصال النسق بين حاضرها وماضيها، لأنها مسائل اجتهادية يكاد يبدأها كل عامل من البداية ولا يدعمها إلى أساس يبني عليه من يخلفه من أبناء الصناعة.

أما حضارة العصر الحديث فهي حضارة قائمة على أساس العلم الشائع المقرر الذي جعل لكل اختراع قاعدة ولكل صناعة أصلاً ولكل مرحلة من مراحل التعليم مسافة وحدًّا؛ فلو فنيت ثلاثة أرباع المصنوعات الحديثة من الدنيا لكان الربع الباقي

مشتملاً على جميع قواعدها وأصولها ومراحل التعليم والابتكار فيها؛ ومن البعيد عن التصور أن تعمد الحرب إلى عناصر العلم المتفرقة فتجمعها كلها إلى بقعة واحدة وترسل عليها صيباً من القذائف الناسفة فتمحوها محواً ولا تذر منها بقية للتجديد والترميم.

ذلك بعيد عن التصور، ولا خوف من اتجاه النية إليه أو اشتمال الطاقة على تنفيذه لو جاز أن يداخل النيات على أبعد الفروض.

نعم إن هناك خطراً أخطر على الحضارة من تدمير عناصر العلم بالقذائف الناسفة والآلات الجهنمية التي هي نفسها مادة من مواد العلم وجزء من أجزاء الصناعة.

هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية وهو إفساد الطبائع ومسخ العقول وتلويث الأخلاق وتعويد الناس أن يسخروا بكل نبيل جليل وأن يقنعوا من الدنيا بمعيشة البهم ولذائذ الحيوان.

فلو شاعت هذه الآفة - بل هذا الوباء - بعد الحرب المقبلة لكان بقاء العلوم والصناعات وزوالها على حد سواء، ولكانت الحضارة شيئاً لا يستحق الحرص عليه ولا الأسى لفقده ولا التفكير في استبقائه، ولبلغت الحرب بالناس أقصى ما نخاف من وبالها المحذور.

ومن خاف هذه العاقبة فله عذره الواضح مما نراه من تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الخسيسة وتهافت على المثل العليا والأخلاق الفاضلة والمطالب التي تتجاوز ساعتها أو يومها أو عمر طالبها على أبعد احتمال.

الاشتراكيون لا يؤمنون بغير الخبز، والفاشيون لا يؤمنون بخير الخنجر، والذين يأنفون من مذاهب أولئك ومن مذهب هؤلاء حيارى لا يهتدون إلى قرار؛ ومتى أصبحت الغاية المنشودة ما كان فيه آباؤنا وأجدادنا منذ ألوف السنين فنحن راجعون إلى وراء مقبلون على هبوط يشبه الفناء.

إلا أن الأفق لا يخلو في هذه الظلمة أيضاً من بارقة بعيدة يوشك أن يستفيض منها ضياء شامل.

فكلما شاعت اللذة كذلك شاعت السآمة من اللذات، وشاعت النزعة إلى التبديل، وتسرب القلق إلى الضمائر، فليست هي في حالة استقرار، ولكنها في حالة تحفز وانتظار.

ويخيل إلينا أن الدنيا تتجه إلى تفكير جديد في القرن العشرين يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من طور العقائد التقليدية إلى طور العقائد بالبحث والاجتهاد، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من هذا إلى الإيمان بالعقل وحده، ثم الغلو في التعويل عليه كما غلا العقليون المعروفون (بالراشنلاست) في أوائل القرن الغابر، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من (الراشنلازم) إلى المذهب الروحي أو مذهب البصيرة والإلهام الذي شاع منذ خمسين سنة في الأمم الغربية كافة

أما هذا التفكير الجديد الذي ننتقل إليه الآن فهو التقاء العالم المشهود وعالم الأسرار عند (الفلسفة الرياضية) التي انتهى إليها البحث في النور والإشعاع

فقديماً كان العالم الطبيعي في ناحية والعلم الرياضي في ناحية أخرى

كان العلم الطبيعي في تجارب المحسوسات، وكان العلم الرياضي في الحقائق الذهنية التي لا تحتاج إلى العالم المحسوس

فاليوم وصل العلم الطبيعي بكل شيء إلى الإضاءة والإشعاع، ووصل بالإشعاع إلى النسب العددية والتقديرات الرياضية، وجاز في عرف العقل المثقف السليم أن تقاس الحقيقة من (باطن) العقل وداخل السريرة، على مثال يقارب هداية الملهمين ومكاشفة القديسين في الزمن القديم.

تلك البارقة من التقاء عالم المادة وعالم الأسرار بشيرة بالخير وشيكة أن تعصم النفوس من تيه الظلمات، وأن تسلم زمام الحضارة الإنسانية إلى غاية أبعد من الغاية التي يدين بها عباد الخبز وعباد الخنجر، حيثما اهتدى بها العلم والفلسفة والعقيدة في أعقاب الضياء.

توارد الخواطر

قبل أربع عشرة سنة كتب صديقنا الأستاذ المازني مقالاً عن الخيام ألمع فيه إلى تصوف الخيام واستغرب أن يدين رجل مثله بخيالات المتصوفة وشطحاتهم البعيدة عن تحقيق الحلم وتقرير الواقع لأنه (كانت له موهبة تنأى به عن التصوف: ذلك أنه كان رياضياً بارعاً؛ ومما يذكر له في هذا الباب تنقيحه التقويم السنوي تنقيحاً أظهر فيه من الحذق والأستاذية ما أطلق لسان جيبون المؤرخ الإنجليزي بالثناء عليه. وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف في علم الجبر بالعربية؛ والذهن الرياضي مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر وتعليق النتائج بأسبابها والمعلول بعلته، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب ما لا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف. ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفطن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف).

ومن رأيي الذي لا أزال أراه أن الملكات الرياضية أقرب الملكات إلى التصوف والفروض البعيدة والعقائد الخفية، فكتبت يومئذٍ بصحيفة البلاغ مقالاً عن القرائح الرياضية والتدين، ناقشت فيه رأي الأستاذ المازني وبينت فيه أسباب العلاقة بين القريحة الرياضية وبين التدين والإيمان بالغيب؛ وأهمها أن حقائق الرياضة ذهنية وليست خارجية، فهي أقرب إلى الفروض وأبعد عن مراجعة الواقع الذي يراجعه علماء الحس والتجربة والمشاهدات العملية؛ فاعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الملاحظة، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة: وموقفهم أمام المجهول موقف يسلم به فرضاً ولا يستبعد فيه أي شيء، وهذا سر تدينهم وإخباتهم وميلهم إلى تصديق المعجزات والخفايا وما شاكلها مما يلي البديهة الغامضة ولا تكاد تجمعه بظواهر الأشياء صلة. وفي عصرنا هذا لم يشتهر أحد من الرياضيين كما اشتهر أوليفر لودج الإنجليزي وفلامريون الفرنسي وأديسون الأمريكي، وكلهم من أعظم علماء الرياضيات، وكلهم مسترسل في إثبات أسرار الروح وكشف غوامض الاستهواء.

قلنـا: (لهـذا تتـآخى فـروع هـذه الحقـائق أحيانـاً وتتـآلف العلـوم التي تبحـث فيهـا وتتقارب الملكات التي تكون في المشتغلين بها، فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معاً.

فالفارابي مثلاً كان رياضياً مبتكراً في الموسيقى، وفيثاغورس أقدم فلاسفة ما وراء الطبيعة عند اليونان كان يبني فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد. وقد مر بمصر قبل أيام نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت اينشتين صاحب الفلسفة النسبية التي دهمت النـاس ببـدع في تعريـف الوقـت والفضـاء يكفي أن نـذكر منهـا أن الخـط المسـتقيم لـيس مـن الـلازم أن يكـون أقـرب موصـل بـين نقطتـين. وهـو فيلسـوف رياضي وموسيقار بارع في العزف على القيثار. وليس يخفى الشبه القريب بين ملامح العظماء من الفلاسفة والرياضيين وملامح العظماء من نوابغ الموسيقيين. فقد تلتبس عليك صورهم حتى لا تكاد تميز بعضهم من بعض ولا سيما في نظرات العين وسعة الجبهـة وارتفاعهـا.) ومـن ذلـك أن ينبـغ العـازفون والحاسـبون والعـدادون في الطفولـة الباكرة وفيما دون الخامسة أحياناً ولا يحصل ذلك في سائر العلوم.

ذكرني ذلك البحث القديم الجديد اتفاق عجيب بين أمور متعددة لا رابطة بينها في هذه الأيام.

فالأسـتاذ المـازني يكتـب عـن تـوارد الخـواطر، وفي مقـالي الأخير بالرسـالة كلمـة عـن الرياضيات واتصالها بعالم الروح، وبينما أفكر في هذه الموضوعات إذا بكتاب جديد يصـدر مـن مطبعـة (جـولانكز) الإنجليزيـة عنوانـه (عظمـاء الرياضـيين) لمؤلفـه الأسـتاذ (بل) الرياضي المشهور في الجامعات الأمريكية. فتصفحته واستقصيت بعض تراجمه فـإذا بـه لا يقـول مـا قلتـه عـن الصـلة بـين التـدين والرياضـة والموسـيقى والحقـائق الفرضية، ولكنه يعرض لنا تراجم العظماء الرياضيين وعجائب آرائهم ونوادر صباهم وطرائف أخبارهم فلا يسع القارئ إلا أن يخرج منه بتلك النتائج التي أجملناها قبل أربع عشرة سنة كأنها استقصاء ثم تلخيص لكل ما ورد في ذلك الكتاب.

من ذلك أن الرياضي الكبير سلفستر يقول: (ألا يجوز إذن أن توصف الموسيقى بأنها رياضيات الحس، وأن توصف الرياضيات بأنها موسيقى العقل، وأن يقال إن

الموسيقار يحس رياضياً وأن الرياضي يفكر موسيقياً؟ فالموسيقى هي حلم الحياة، والرياضة هي عمل الحياة، وكلتاهما تستوفي نصيبها من الأخرى حين يرتقي الذهن البشري إلى أوجه الأعلى، ويسطع في مزدوج من العبقرية يجمع بين موزار وديرشليه، أو بين بيتهوفن وجاوس، وهو الازدواج الذي تجلى وميض منه في عبقرية هلمهولتز وأعماله).

ومن ذلك أن الرياضي السويسري النادر المثال ليونارد إيلر الذي قيل فيه إنه يصنع المعادلات كما يتنفس الهواء، كان شديد التدين، وكان يصلي بالأسرة في منزله؛ وخطر له أن ينتقل من ألعوبة دبروها في البلاط الروسي للفيلسوف (ديدرو) إلى الجد كل الجد في إثبات وجود الله بالمعادلات الرياضية. فلما تمادى ديدرو في تكفير رجال الحاشية الروسية ومجادلتهم في وجود الله تعمدت كاترين الكبيرة أن تداعبه وتفحمه من طريق الرياضيات التي كان يجهلها كما يجهل اللغة الصينية، فوكلت به إيلر فواجهه في جد ورصانة ولفق له معادلة وتحداه أن يجيب إن استطاع الجواب... فلم يدر الفيلسوف بماذا يجيب، وكانت أضحوكة البلاط إلى حين.

قال الأستاذ (بل) مؤلف الكتاب: (ولم يقنع إيلر بفكاهته الفاخرة بل حاول بعد ذلك أن يجلو الزنبقة وراح وهو جاد غاية الجد يركب المعادلات والبراهين الرياضية التي تثبت أن الله موجود وأن الروح مجردة من المادة. وقيل إن هذه البراهين تسربت إلى فلسفة الفقه والتصوف على أيامه فكانت على الأرجح نخبة الأزاهير التي تتمثل فيها عبقريته الرياضية بمعزل عن الشؤون العملية).

ومن ذلك أن جاوس الملقب بملك الرياضيين عرف تصحيح الحساب قبل بلوغه الثالثة من عمره. وكان أبوه رئيساً لطائفة من العمال، فلما كان يوم السبت واستدعاهم لإحصاء ما لهم وما عليهم بمسمع من طفله الصغير غلط في الجملة فصاح به الطفل: (يا أبتاه! ليس هذا بصحيح، وإنما الصحيح كيت وكيت) وروجع الحساب فإذا هو على صواب.

ويقول المؤلف: (ومما تشوق ملاحظته - لما هو معهود في الرياضيين من الميل إلى الموسيقى - أن فيرستراس الكبير لم يكن يقبل الأنغام على ضروبها مع اتساع مشاركاته، فلم تكن تعنيه ولم يزعم هو أنها تعنيه).

وعندنا أن هذا غريب حقيق بالملاحظة كما قال المؤلف، إلا أن غرابته تهون كثيراً متى ذكرنا أن فيرستراس هو القائل إن الرياضي لا تستقيم له ملكة الرياضة إلا بقسط من الشاعرية فيه، وأنه كان يعارض إخوته في تعلم الموسيقى لأنهم كانوا يروضونه بها على الرقص وشهود المجتمعات.

وكان (كبلر) يزعم أنه اهتدى إلى نسبة بين حركات الكواكب السيارة ومواقعها تشابه النسب التي بين الأنغام الموسيقية والمقامات.

وتعددت الأقوال التي ترجع بتركيب الكون كله إلى النسب الرياضية ولا سيما بعد ما ظهر في السنوات الأخيرة من تحليل النور ورد المادة كلها إلى الإشعاع، ورد الإشعاع كله إلى مقدورات عددية يوشك أن تخرج به من عالم المادة إلى عالم الحساب. فبعد مقال أفلاطون: (إن الله يهندس) ومقال جاليلي: (إن كتاب الطبيعة العظيم مكتوب بلغة الرياضيات) ومقال جاكوبي: (إن الله يحسب) يقول الأستاذ جينس في كتابه (الكون الخفي) وهو من أقطاب العصر الحديث: (إن مهندس الكون الأعظم قد بدا لنا اليوم محض رياضي... وإن الكون يلوح لنا رياضياً على منوال مخالف لكل معنى تصوره الفيلسوف (كانت) أو كان في وسعه أن يتصوره في أيامه؛ فإن الرياضيات بالإيجاز تهبط إلى الكون من عل ولا تصعد إليه من الأدنى).

ومن الاتفاق الذي ينساق في هذا المساق ما رواه الأستاذ جينس في كتابه المتقدم عن رأي هكسلي في المصادفات وتوارد الخواطر. فهو يعتقد اعتقاده أننا لو أسلمنا الآلات الكاتبة إلى ستة قرود يدقون على حروفها بغير قصد ولا معرفة، ملايين بعد ملايين من السنين لكان لزاماً أن يجيء الوقت الذي (تنكتب) فيه بهذه الوسيلة جميع الكتب التي في المتحف البريطاني).

ولا يخفى ما يريده هكسلي بهذه النكتة المنطقية، ولكنه على كل حال قد خرج بالمسألة إلى (ما وراء الطبيعة) وأبطل حكم العقل والإرادة فيها. فمهما يطل عمر

الإنسان فما هو ببالغ أن يفسر لنا على هذا النمط اتفاق الخواطر في صفحة واحدة بله الألوف من المجلدات التي تحويها دار الكتب البريطانية.

ولا حاجة إلى القرود الستة وملايين السنين والآلات الكاتبة لتعليل توارد الخواطر في الآراء أو في العبارات، فإن علم النفس يغنينا حيث لا يغني التطوح ملايين السنين وراء المشهود والمحسوس. وقد كان علم النفس كافياً حتى الآن لتعليل حفظ العقول صفحات عديدة في حالة (الغيبوبة) أو حالة التنويم المغناطيسي أو حالة (التنويم الذاتي) أو ما يشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية. فإذا رأينا حالة كالتي رواها صديقنا الأستاذ المازني يستوعب فيها الإنسان بضع صفحات لا يخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يعيدها وهو معتقد أنه يمليها من وحي بديهته فلنرجع إلى علم النفس في وصف العوارض التي تأتي بهذه الغرائب فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها.

وإنما العبرة من جميع ما تقدم أن نسأل: ترى لو صدر كتاب (عظماء الرياضيين) قبل كتابة المقال الذي ناقشت به الأستاذ المازني منذ أربع عشرة سنة، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أنني قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذي فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين؟ أم كان من المستغرب يومئذٍ أن يقال إنني لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأي الذي بسطته، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين وعجائبهم في سجل واحد؟

فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لا شك فيه فهذا التوافق يبدو سهلاً جائزاً خلواً من الغرابة. ومن ثم ينبغي أن نقدم الاستقراء العقلي - في تمحيص الخواطر المتواردة - على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه، لأن استقراء التاريخ وحده لا يكفي للبت في جميع الأمور.

ونعني بالاستقراء العقلي أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته في تفكيره؛ فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ما قال، وأن يخوض حيث خاض، ويتوجه حيث توجه، فالاتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل، وإن لم يكن كذلك فهو متهم ولو لم يكشفه استقراء التاريخ.

أما حين يقع الاتفاق في العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نحتكم إلى الاستقراء العقلي من طريق علم النفس ودرس الذهن الذي تقع له أمثال هذه الغرائب، فقد يهدينا الحكم الوئيد هنا حيث يضلنا الحكم السريع، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان في النهاية بعد الموازنة والمقابلة بين جميع الفروض.

الفيلسوف الحاكم

شهدنا بعد الحرب عجباً من عجب السياسة والرآسة لم يشهده جيل واحد من تاريخ بني الإنسان.

شهدنا موسيقاراً على رأس دولة، وفيلسوفاً على رأس دولة أخرى، وهو قبل ذلك ابن حوذي[1] وتلميذ حداد، ونقاشين وأفقيين على رؤوس دول أخرى يجلسون على عروش القياصرة والخواقين[2]، ويسوسون شعوباً كبيرة بلغ بعضها الذروة من الحضارة والنظام .

أحب هؤلاء جميعاً وأولاهم بعطف النفس الإنسانية فيما نظن هو الفيلسوف الحاكم (مازاريك) الذي قام على جمهورية التشك والسلواق بعد الحرب العظمى، وقضى نحبه في الشهر الغابر وهو في السابعة والثمانين.

قرأت له قبل أن أسمع الشيء الكثير عن سيرته في الجهاد الوطني وعن مساعيه في السياسة الدولية: قرأت له كتابه الحافل عن (روح الروسيا) فأكبرت منه اطلاعاً واسعاً يخيل إليك أن صاحبه لن يفرغ معه لعمل من الأعمال الجسام. وخلاصة ما يقال في الكتاب أنه لم يدع فيلسوفاً واحداً من الأقدمين أو المحدثين إلا ألم برأيه وتعقب الصلات الفكرية والاجتماعية بينه وبين عقول الدعاة البارزين من فطاحل الروسيين.

ووقعت لي بعد هذا الكتاب شذور من تواليفه الكثيرة يكفي لبيان نطاقها الواسع وموضوعاتها المختلفة أنها تناولت التنويم المغناطيسي كما تناولت فلسفة باسكال وهيوم، وتناولت أدب الصقالبة كما تناولت الثورة العالمية، وصدرت في ذلك كله عن صدر رحب بريء من العصبية والضغينة وعن ذهن شامل مفتح المنافذ على شتى الأنحاء في تاريخ هذا الرجل عبر لا تنتهي لمن شاء أن يتأمل في أخلاق الناس وفي موازين

[1] الحُوذِيّ :سائق عَرَبَةِ الخَيْلِ .
[2] الخاقَانُ :لقب لكلِّ ملكٍ من مُلوك التُّرك .

العـدل والأنصـاف بـين الأمـم، وفي ضـعف الإنسـان ولـو كـان مـن الحكمـاء وكـان مـن الحاكمين .

كنت أقرأ الثناء عليه وأقرأ الزراية على (روجر كازمنت) الشهيد الأيرلندي في وقت واحد .

وكنت أقرأ الثناء والإزراء على عمل واحد في وقت واحد وصحافة واحدة، فأعجب للعقول وأعجب للأهواء، وأعجب لمن خطر لهم أن يقولوا مرة من المرات ولو من قبيل التجوز والمزاح: كل شيء بالعقل في هذه الدنيا!! وما في هذه الدنيا شيء إلا وللعقل فيه حيرة، وللضلال فيه جانب مقرون بجانب الهداية .

هرب مازاريك من بلاده واتفق مع الحلفاء على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعـدين، ونجح فكان مـن الأبطـال وأقـام في قصـور هابسـبرج، ومـات بـين التعظيـم والمحبة والإطراء

وصنع (روجـر كازمنـت)، مـا صـنع مازاريـك فهـرب مـن بـلاده واتفـق مـع الألمـان على تـأليف جيـش مـن أبنـاء وطنـه الأسـرى والمبعـدين، وفشـل فكـان مـن الخونـة المجـرمين، وسيق إلى القبر وهو ينظر إلى الشمس السافرة ويهتف: ما أجمل هذا الصباح! ولكنه كان صباحه الأخير .

والصحف البريطانيـة يومـذاك تـذكر هـذا وتـذكر ذاك، فأمـا مازاريـك فبطـل كـريم، وأمـا كازمنـت فخـائن أثـيم. ويتبـع ذلـك مـا يتبـع الإخفـاق والخـزي مـن فريـة المفتـري، وأكذوبة الكاذب، واجتراء اللئيم

كان مازاريك في صباه عوناً للمستضعفين ولو كانوا مبغضين منبوذين، وكان نصيراً للحق ولو كان الباطل أدنى منه إلى الشهرة والإعجاب. فدافع عن اليهود في بلاد لا يطاق فيها اسم أبناء إسرائيل، وزيف الأسانيد الموروثة التي يفخر بها أبناء قومه ويعتدونها من تراث الوطن الحرام المضنون به على النقد والتشكيك، فكان أبوه أول من صدق فيه تهمة القادحين وذهب إليه يستأديه بعض المال الذي قبضه من مصارف اليهود، وكان الغلاة من دعاة الوطنية في بلاده أول من تبرأ منه وخاض في عرضه حتى قال قائلهم: (إن عاراً على وطنه أن يكون بين نسائه امرأة حملت في بطنها مازاريك)

ودارت الأيام دورتها فإذا بهذا العار هو عنوان وطنه، وهو القائل باسمه والكاتب باسمه والوكيل الذي اجتمع وكلاء بلاده بعد الحرب العظمى يعلنون على الملأ الأوربي أن كل ما وقعه مازاريك في ديار الهجرة والاغتراب هو صك نافذ على البلاد تدين به وترعاه

وجرى حديث مستفيض بين الحاكم الفيلسوف وبين المؤرخ المشهور أميل لدفج استغرق أياماً، وجمعه لدفج في كتاب جاوزت صفحاته ثلاثمائة صفحة، واختار له عنواناً: (حامي الديمقراطية. أو مازاريك يتكلم)

من قرأ هذا الكتاب سمع أفلاطون وأرسطو يتكلمان في العصر الحديث؛ غير أن الإيمان بالديمقراطية فيه أكبر من إيمان صاحب المدينة الفاضلة وصاحب السياسة المدنية، لأن الحاكم الفيلسوف لا يعدل بالحرية الفردية نعمة من نعم الأرض ولا نعم السماء؛ وينعى على كارل ماركس كما ينعى على موسوليني أنهما يطويان الفرد في الحكومة، ويضحيان بالواحد على مذبح الجملة؛ ويسأله لدفج أيهما أحق لديه بالتقديم والإيثار: السلطان أو الحرية، وإرادة الحكومة أو إرادة الأفراد؟ فيقول: (ليس في وسعي أن أعتقد أن ضمير الفرد مطوي في ضمير اجتماعي واحد. إذ ليس في الدنيا من شيء محقق غير الضمائر الفردية. وليس أمام السياسة إلا أفراد اجتمعوا على هذا النحو ليتألف منهم مجتمع واحد يكون على ضروب شتى ومنها الفاشية. أما أنا - وأنا من الفرديين - فليس يسعني أن أسيغ فكرة الإدماج أو إلغاء الأفراد، وأن تكون الحكومة أو الأمة أو الشعب ممثلة في شخص واحد. ولا أنسى أن هنالك علماء اجتماعيين ودعاة سياسيين يقبلون ما يسمونه ضمير المجتمع وينكرون ضمائر الأفراد متفرقين، ولكنها فكرة لا يقرها العلم، ومصدرها النزعة الأرستقراطية في السياسة...)

وودت لو أن (مازاريك) حين مات كنت محتفظا له بتلك الصورة التي تناسقت وتلاحقت من جهاد الشباب ومن ثورته في الكهولة، ومن بحوثه ومصنفاته، ومن رسالة الديمقراطية التي قام بها على سرير الدولة كما قام بها من قبل على منصة التعليم وعلى منبر الدعاية

ولكن الفيلسوف الذي يستبقي في الحكم صورة أفلاطون أو صورة (السياسة الغدرية) إن هو إلا أسطورة من أساطير الخيال، نتوهمها بالنظر ونترسمها بالأمل، ولا نلمحها بعين الواقع ولو أغضينا عن كثير قبل أن يقضي الموت قضاءه في الحاكم الحكيم بأشهر معدودات وقع لي كتاب عن أوربا الوسطى للكاتب الإنجليزي هنري بوتسي أسماه (اليد السوداء على أوربا) أحصى فيه مظالم الشعوب الصغيرة التي ضمتها معاهدة فرساي إلى حكومات لا تحبهم ولا يحبونها، ومنها شعب السلواق المضمومين إلى حكومة (مازاريك) رسول الديمقراطية ونصير كل شعب مظلوم أيام كان الظلم نازلا بتلك الشعوب من آل هابسبرج!

وكان مازاريك قد عاقد وكلاء السلواق المقيمين بالولايات المتحدة في السادس والعشرين من شهر مايو سنة 1915 أن تكون حكومتهم مستقلة في داخل الدولة على مثال الولايات المتحدة الأميركية، وأن يكون لهم مجلسهم النيابي، ومحاكمهم التي يضعون لها شرائعها، ولغتهم في التعليم والإدارة والحياة العامة فلما جاء يوم الإنجاز وقامت الدولة التي مهد لها أولئك الوكلاء إذا بأرضهم مستعمرة مملوكة، وإذا بهم أتباع مسخرون، وإذا بالعقد المبرم قصاصة مهملة، وإذا بالحاكم الحكيم يتحلل من عقده فيلجأ إلى حيلة لم يلجأ إليها عاهل من عواهل هابسبرج ولا متحذلق عندنا من صناع الفتاوى وطلاب الحيل الشرعية، فيقول لوكلاء الشعب المهضوم إن العقد إنما أبرم في يوم بطالة رسمية عند الأمة الأميركية، وذلك في شرع البلاد التي أبرم فيها مبطل لشروطه ناقض لفحواه!

ويلي ذلك قصة أليمة من قصص المظالم والدعايات الكاذبة، بحت فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المغلوبين على آذان عصبة الأمم كما تذهب زمجرة البحر الصاخب بين أجواز الفضاء

سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفد. أولها: أن الفيلسوف لم يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير وأسلف الجهاد الطويل في قضايا المظالم والشكايا

وثانيها: أن الديمقراطية لا تسلم في وطن تختلف أجناسه ولغاته وأديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس (الولايات المتحدة) التي يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع

وثالثها: أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب العظمى غيلاً تصطرع فيه ضواري الأحقاد ويوشك أن يندفع بالعالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة

وإننا على ما أنتاب الديمقراطية من خيبة، وما تعاورها من نقض وتقويض، لا نزال على إيمان وثيق بها أنها هي كهف السلام ومعقل بني الإنسان، ومآل الحكم في المستقبل البعيد إن لم يعجل لها النصر في مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية، وبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام العالم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية

ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة إنما تسالم الدول الأخريات لأنها شبعت من المستعمرات فلا حاجة بها إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات، لكنه اعتراض وجيه في ظاهره غير وجيه في لبابه. إذ أن المسالمة والاكتفاء شأن جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة في بلاد المستضعفين؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تمتلك أرضاً وهي من اليسر والرواج في حال يحسدها عليه المالكون؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينان لا يفترقان، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية، والعسكرية لا تستقر طويلاً بغير قتال، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال.

كلبي (بيجو)

أنا أكتب هذا المقال عن (بيجو) وهو ينظر إلي، ثم يذهب ويعود ليطل مرة أخرى ولا يدري أنني أكتب عنه وأشيد بذكره؛ وكل ما يدري أنني جالس في هذا المكان الملعون الذي يحب كل مكان في البيت غيره، وهو كرسي المكتب.

ففي كل مكان في البيت يراني مستعداً لملاعبته واستجابة نظراته، والتفرج على فنونه وألاعيبه وقفزاته، أو يراني مستعداً للإشارة إليه واستدعائه فإذا هو واثب وثبة واحدة إلى حيث يستوي على مكانه بجانبي، ويغريني بملاطفته ومجاملته أن أبذل له الملاطفة والمجاملة وأحييه بعبارات التودد والمجاملة.

ينتظر مني ذلك في كل مكان إلا كرسي المكتب... فإذا جلست إليه لأكتب أو لأقرأ فهو حائر لا يدري ما يصنع: يدنو من الكرسي إلى مسافة قصيرة، ثم يرفع رأسه وينظر، ثم يعيد النظر كرة أخرى، ولعله يسأل نفسه: ما بال صاحبي لا يناديني ولا يجيبني؟ وما بال عينيه تتجهان أمامه وقلما تتجهان ناحيتي؟ فإذا طال عليه التساؤل والترقب رجع أدراجه وغاب هنيهة ثم عاد إلى المكتب يترقب كلمة النداء، أو نظرة الاستدعاء، أو لمسة التربيت والاحتفاء؛ ولا يزال كذلك حتى ييأس ويسأم فيولي وجهه شطر ألعوبة يتلهى بها، أو شغلة أخرى من الشواغل البديعة التي يفرضها على نفسه ولا يفرضها أحد عليه، وأولها حراسة الباب والعواء على من يصعدون السلم أو يهبطونه!

وقد تبعني اليوم إلى المكتب ونظر إلي قليلا ثم غادر المكان الملعون يائساً عابساً دون أن يلح في الانتظار والمناورة، لأنه تعلم بالمرانة الطويلة أن الانتظار في هذا المكان لا يفيد، وأن الكلب العاقل الرشيد هو الذي يغادر مكان الكتب والأوراق بغير تدبر ولا تأمل ولا إطالة. والحق معه حتى في آراء الأناسي العقلاء الراشدين!

وقد أردت اليوم أن أدهشه وأخلف عادته فرفعت رأسي من الورق في بعض جيئاته وصحت به منادياً: بيجو! بيجو! تعال... إن كتابتي اليوم تعنيك. ألا تريد أن تقرأ ما

كتبت؟ فوجم ولم يكد يصدق أذنيه. وتردد لحظة، ثم قفز إلى الكرسي فالمكتب حيث الورق الذي أخط عليه هذا المقال... كأنه يريد حقاً أن يقرأه ويستطلع ما فيه، وكأنه لا يفضل بالعقل والرشد أولئك الآدميين الذين يعنيهم ما يكتب عنهم الكاتبون كما ظننته لأول وهلة! ولكنه ما لبث أن أخافني من أسلوبه في القراءة والمطالعة، لأنه هو والتمزيق في عرفه شيء واحد. وهل هو بدع في أسلوبه وهذا شأن كثير من الآدميين الذين أكتب عنهم؟ فنحيته برفق وحملته إلى الباب وأرسلته في الدهليز، وعدت إلى المكتب فأقفلته ولا أزال أسمع نباحه يلاحقني بلهجات تتراوح بين الاستغراب والشكاية والسباب!

ويجب أن أعترف للقراء بأن كلبي (بيجو) ليس بكلبي على التحقيق، ولكنه كلبي في شريعة الدعوة والاغتصاب، أو هو كلب صديقي العزيز (فيفي) الذي لم يجاوز السنتين إلا منذ شهرين، ولا أخاله إلا مطالبي به قريباً بعد أن زال الموجب لإقصائه وهو انحراف صحته في موعد التسنين، وفيما أصابه على أثر ذلك في مصاب أنقذه الله من خطره الشديد.

والأصل في المصائب أن تجمع بين الأصدقاء لا أن تفرق بينهما كما افترق فيفي وصديقه بيجو... ولكن اللوم في هذا الافتراق على صداقة بيجو دون غيرها - أي على إفراطه في الصداقة لا على تقصيره فيها - فمعاذ الله أن يتهم كلب بخيانة الأصدقاء

كان بيجو يرى (فيفي) على سريره ساكناً من التعب والإعياء فلا يحسب أن شيئاً تغير بينه وبين مولاه، ويقفز إلى السرير ليعرض خدماته التي لا يكل عنها ولا يتوانى فيها، وهي المواثبة والملاعبة واصطناع العض والمصارعة، ومولاه في شاغل عن ذلك ولكنه هو لن يقبل العذر ولن يعرف شاغلاً أهم من تلك الخدمات المرفوضات.

وإذا أقبل الطبيب وصرخ (فيفي) من مقاربته وجسه وفحصه كما يصرخ جميع الأطفال من جميع الأطباء فما هي إلا لمحة كأسرع ما يكون لمح البصر وإذا بأنياب (بيجو) توشك أن تنغرس في ساق الطبيب الذي يعتدي على مولاه بما يبكيه!

أما إذا ربطوه اتقاء لهذه المفاجآت فلا راحة ولا قرار في البيت كله، لا لمولاه العزيز ولا للنائمين حوله أو الساهرين عليه

لهذا عوقب (بيجو) على إفراط صداقته بالنفي من جوار مولاه في أثناء توعكه وانجراف مزاجه، ورضيت أنا أن أتولى مؤاساته وحراسته أيام منفاه، حتى تنجلي الغاشية فيعود إلى مأواه

وما انقضت فترة وجيزة حتى أصبح (بيجو) شخصية من شخصيات البيت المعدودة، وحتى فرض على نفسه واجبات وأعمالاً لم يفرضها أحد عليه، ولكنه يغضب ويتذمر إذ أنت قاطعته فيها أو عوقته عنها، كأنك تحسبه مخلوقاً عاطلاً لا يصلح لعمل ولا يؤتمن على واجب...

عرف الفرق بين جرس التليفون وجرس الباب، فلا يدق هذا أو ذاك إلا أسرع إلى الإجابة، وغضب من الخادم كلما سبقه إلى غرضه فتظاهر بعضه والوثوب عليه. ومن عجائب ذكائه أنه إذا سمع جرس الباب أسرع إلى الباب ولم يفعل كما تعود أن يفعل حين يسمع جرس التلفون. ومع أن جرس الباب يدق في المطبخ حيث يكون الخادم ولا يدق في المكان الذي يجري إليه. ولعله عرف أن فتح الباب هو المقصود بدق الجرس في المطبخ كلما جرى الخادم لفتحه على أثر سماع دقاته، ولكن تفريقه بين الجرسين براعة تشهد له بالقدرة على مزاولة الأعمال والواجبات ومن الأعمال والواجبات التي فرضها على نفسه ولم يفرضها عليه أحد أنه لا يدع إنساناً ولا حيواناً يصعد السلم إلا أدركه بنباح الاحتجاج من وراء الباب فيعدو أمامي ويعود إلي ولا يزال يرقص ويتوثب حتى أجزيه على استقباله بالتحية الواجبة والتربيت المحبب إليه.

ألأجل الطعام يهش لي (بيجو) هذه الهشاشة ويرعاني هذه الرعاية؟ أنا أود من الباحثين في طبائع الحيوان أن يراجعوا ملاحظاتهم وأحكامهم في أسباب التآلف والمودة بين الحيوان والإنسان، فإن إطعام الكلب ولا شك سبب من أسباب وفائه وتعلقه بأصحابه، ولكن لا شك أيضاً في أن الكلاب تفهم للمودة أسباباً غير الإطعام وتدرك معنى من معاني الصلة النفسية ليس مما يرتبط بالمنافع؛ وأوضح دليل على ذلك أن (بيجو) يعتبر نفسه تابعاً لمولاه (فيفي) ولا يعتبر نفسه تابعاً لأبيه أو خادم أبيه، وكلاهما يطعمه ويلاطفه ويسقيه. أما (فيفي) فهو لا يطعمه ولا يسقيه ولا يتورع عن خطف طعامه إذا ساغ في مذاقه، وقد يتبرم به فيضربه أو يقبض على لسانه أو يضع

إصبعه في عينه، وبيجو في كل ذلك لا يقابل الأذى بمثله ولا يفتأ متعلقاً بالطفل أشد من تعلقه بآله وذويه.

فلما زارني (فيفي) مع أبيه بعد شفائه ونجاته من خطره كان المعقول المنظور أن يخفف (بيجو) إلى الأب الكبير الذي يعني بإطعامه وإيوائه، ويشمله بمودته وحبائه، ولكنه ألتفت أول ما التفت إلى (فيفي) العزيز دون غيره، وتهافت عليه يعانقه ويلحس وجهه بلسانه ويئن أنيناً من فرط حنينه وفرحه؛ وجهدنا جهداً شديداً في التنحية بينه وبين مولاه الصغير لفرط ما أرهقه بتحياته ومجاملاته، وكنا سبعة منا أستاذ في علم الزراعة والحيوان، وأخ له أديب جم الاطلاع، وصديق مهذب من أدباء الموظفين، وسيدة إنجليزية وابنها اليافع، ووالد فيفي وكاتب هذه السطور، فأتعبنا الكلب الأمين الودود جد التعب ونحن نبعده من هنا فيرجع من هناك على حال من اللهفة والاشتياق تجلب الدمع إلى الآماق. فماذا بين بيجو ومولاه فيفي من البر والمجازاة غير الصلة النفسية التي لا شأن لها بالطعام والشراب؟ ولماذا يحسب نفسه تابعاً للطفل ولا يحسب نفسه تابعاً لأبيه؟ أنه لا يفقه أنهم أهدوه إلى فيفي الصغير ليكون لعبته وحارسه وعشيره، ولكنه قد يفقه أنه نده وقرينه بواشجة الطفولة والملاعبة الصبيانية، وهي على كل حال واشجة غير وشائج المنافع والطعام والشراب

ويشبه هذا في الدلالة على إدراك الخلائق العجماء للصلات النفسية أن (بيجو) لا يطيق (الطاهي) أحمد حمزة ولا يرتاح إلى رؤيته ولا يسمع النداء على أسمه حتى يحسبه تهديداً له بالعقوبة والإقصاء، وهو مع هذا يألف فراش المنزل (محمدا) ويهش له ويستريح إلى مصاحبته في المنزل وفي الطريق... فلم كانت هذه التفرقة عنده بين هذا وذاك؟؟ كلاهما يقدم له الطعام، ويزيد صديقه (محمد) بتجريعه الدواء الذي يتعاطاه لعلاج السعال أحياناً وهو يمقته وينفر منه أشد النفور. غير أن الطاهي (أحمد حمزة) يتحاشى (بيجو) خوفاً من النجاسة فيشعر (بيجو) بجفائه ويلقاه بمثله، ويحتمل التجريع والغصص من زميله لأنه يحتفي به ويأنس إليه.

من إدراكه (للمعاني) الفكرية أنك إذا لمسته بالعصا وهو غافل عن رؤيتها فهو لا يبالي ولا يحفل ولا يحسبك غاضباً أو قاصداً لعقابه، ولكنه إذا ألتفت إليك ورأى أن

العصا هي عصا التأديب التي تخوفه بها ظهر عليه الرعب، أو ظهر عليه الأسف والتوسل، كأنه يقرن بالعقاب معنى غير معنى الضرب وألمه، وهو استياء سيده وأعداده له عدة العقاب.

والخلاصة أن (بيجو) مخلوق مفيد ومخلوق أنيس، وهو أفيد ما يكون في المكتبة التي يبغضها ويستثقل ظلها، لأنني استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الكتب الحديثة في علم النفس وعلم الاجتماع.

يقول علم النفس أن التعاطف في التربية والتعليم أنفع وأنجع من تبادل الأفكار؛ وبيجو يؤكد لي ذلك، لأنني أرى منه أن الكلاب أسرع تعلماً من القردة، وهي أرفع في مرتبة التكوين والإدراك؛ وإنما فاقت الكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الإنسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ.

ويقول علماء الاجتماع من أنصار (الفاشية) إن الغرائز لا تتبدل، وإن الحرب والعدوان غريزة الإنسان، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام، ونصح الناصحين بالإخاء والعدل والمساواة. وبيجو يدحض ذلك أيما ادحاض، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فما زالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بني الإنسان، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن.

ويعد (بيجو) بحق من أحسن الشراح للعالم الروسي العظيم (بافلوف) صاحب التجارب المشهورة في أخوان بيجو من الكلاب الروسية... فأنه جرب أن الكلب يسيل لعابه إذا شاهد الطعام، فقرن بين تحضير الطعام له ودق الجرس على مقربة منه، فإذا بفمه يتحلب كذلك كلما دق الجرس ولو لم تصحبه رؤية الطعام، فبنى على ذلك مذهبه في مقارنات العواطف ومصاحبات الشعور وظواهره الجسدية، وجاء علماء النفس والتربية فاستفادوا من ذلك فوائد شتى في علاج الخوف والجشع والعادات الذميمة التي يصعب علاجها في بعض الأطفال، فجعلوا يقرنون الشيء المخيف بالشيء المحبوب ليعودوا الطفل أن يسكن إليه ولا يخشاه، ويقرنون الشيء المرذول الذي

يحبه الطفل بالشيء المزعج الذي يصده عنه وينفره من إتيانه، ليقلع عن ذميم الخلال بداهة وعفواً بغير أمر ولا إلحاح.

بيجو خير مفسر لهذا المذهب النافع الذي كان الفضل الأول فيه لواحد من أبناء جنسه، فقد عهدته في منزله الأول وليس أبغض إليه من السلسة والطوق، لأنهم كانوا يقيدونه بهما في حديقة الدار كلما أضجرهم بعبثه وفضوله، فلما جاء عندي وليس للمنزل حديقة واسعة أطلقه فيها أصبحت السلسة والطوق من أحب الأشياء إليه وادعاهما إلى طربه وابتهاجه، لأنه تعود كلما ربط بالسلسة والطوق أن يخرج مع الخادم لغشيان الطريق وقضاء ساعته المنذورة للمرح والرياضة في الخلاء!

ولبيجو فنون أخرى يشارك في تفسيرها وتفهيمها، وفضائل شتى يتبرع بهداياها ومزاياها، وإن في بعض هذا لما هو حسبنا من تقدير للأستاذ بيجو والصديق بيجو والزائر الكريم بيجو... الذي نخشى أن نسطو عليه، لفرط ما نستفيد منه ونأنس إليه.

فلسفة الأسماء

أقام السير رونالد ستورز طويلاً في القاهرة، واشترك في كثير من حوادث مصر والشرق الأدنى قبل الحرب العظمى وبعدها، وأعطى نفسه نصيباً وافياً من المتعة بالأدب والفنون ولاسيما الموسيقى والتصوير إلى جانب اشتغاله بالسياسة خافيها وظاهرها. وقد لقيته مرة أيام البحث في تحويل (الأوقاف) من ديوان إلى نظارة، وكان يومئذ (سكرتيراً شرقياً) لدار الوكالة البريطانية، فبدأنا الكلام بروايات برناردشو والنقد الإنجليزي الحديث، ثم استطردنا إلى أعمال الاحتلال والإدارة الوطنية فقال: أظن أن ديوان الأوقاف مختل لأنه المصلحة الوحيدة التي ليس عليها رقابة أجنبية! ولا أدري أكانت هفوة لسان منه أم كان سبراً لغوري واختباراً لمقدار ما يستبيحه من الأقوال والآراء على مسمع مني في صدد الأوقاف وتحويلها إلى رقابة الحكومة. فقلت له: إن المجلس البلدي الإسكندري أعظم اختلالاً من ديوان الأوقاف وهو مملوء بالرقابة الأجنبية. فاستدرك كلامه الأول وأخذنا في حديث آخر، وانصرفت وهو يقول بعد انصرافي للأستاذ حسين روحي الذي كان واسطة التعارف بينه وبيني: (صاحبك لا يزال في بداية الشباب)

ولم أره بعد ذلك، ولكني سمعت بمشروعاته الكثيرة ومنها ما حدثني به في تلك الزيارة، كإحياء صحيفة (المؤيد) وإنشاء بعض الصلات الأدبية والفكرية بين الغرب والشرق على أيدي المثقفين من الأوربيين والمصريين. ثم وصل إلينا في هذا الشهر كتابه الذي أسماه (تشريقات) أو مشرقيات، وضمنه تاريخ حياته في مصر وفلسطين وقبرص وبلاد العرب وغيرها من الأقطار الشرقية القريبة، فإذا هو كتاب حافل بالملاحظات واللمحات كما ينتظر من تعليقات رجل سياسي فنان حسن المراقبة للناس والمتابعة للحوادث والأحوال. ولقد أخطأ في بعض هذه الملاحظات واللمحات خطأ ربما ساقه إليه حب الزخرفة والتنميق. ولعلنا نعود إلى بيان بعضه في مقال آخر، ولكني أردت في هذا المقال أن أقف عند ملاحظة لاحظها على أسماء الخدم والخصيان في قصر الأميرة نازلي وغيره من القصور، وهي أنها محصورة في محاكاة الجواهر والرياحين قلما تخرج

عنها، لأنني عنيت بهذه الأسماء في بعض الأوقات ودار البحث فيها بيني وبين أناس من المشتغلين بعلم النفس في المدارس المصرية العليا، فعللوها تعليلاً يخالف ما اعتقدت ولا يوافق المتواتر عن تاريخ الزنوج والعبيد

كنا في إحدى المكتبات العامة فدخل إليها خادم زنجي له اسم من أسماء الجواهر، فقال أستاذ واقف معنا: ألا ترون (مركب النقص يفعل فعله في أسماء هؤلاء الخدم؟ إنهم يشعرون بما لهم من بخس القيمة فيعوضونها بنفاسة الأسماء!)

وكان هذا التعليل يستقيم على ذلك الوجه لو أن الخدم الزنوج يختارون الأسماء لأنفسهم ولا يختارها لهم النخاسون والسادة الذين يشترونهم، ولكن الواقع أنهم يسمون بغير علم منهم، وعلى غير معرفة باللغة العربية ولا بأسماء الجواهر والرياحين فيها أو في غيرها

وإنما الحقيقة على ما يبدو لي أن رغبة السادة هي الملحوظة في التسمية لا رغبة العبيد والخدم المبيعين، ولهذا يقصرون تسمية العبيد على نوع من أربعة أنواع بين الأسماء: المقتنيات النفيسة وما شابهها من الرياحين الجميلة، أو ألفاظ التفاؤل، أو الشهور والأيام التي تم فيها الشراء أو تمت فيها الولادة، وإلا فكلمة عبد مضافاً إليها اسم من أسماء الله الحسنى كعبد الله وعبد الكريم وعبد الباسط وما يشعر بالتفاؤل والدعاء خاصة

فالخصيان والعبيد يسمون بجوهر وفيروز ومرجان وياقوت ولؤلؤ وألماس كأنهم قنية نفيسة يباهي بها صاحبها؛ ويلحق بهذا تسميتهم بريحان وكافور ونرجس كأنهم من أدوات التجمل والزينة في البيوت

فإن لم يكن هذا فهم يسمون بما يدل على التفاؤل والاستبشار بالخير بعد شرائهم، فيدعونهم بسعيد وبخيت وسرور وفرحات وقدم خير وخوش قدم وما إلى ذلك من ألفاظ التمني والرجاء؛ والملحوظ في ذلك هم المالكون كما أسلفنا لا العبيد والجواري

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فأسماء العبيد تكثر فيها أسماء الأيام والشهور والمواسم مثل خميس وجمعة وشعبان ورمضان ومحرم وعيد وربيع، لأن مالكيهم حين

يشترونهم لا يعرفون لهم سمة يسمونهم بها غير اسم اليوم أو الشهر الذي كان فيه الشراء

عنيت باستقصاء هذه الأسماء ودلالاتها في بلدي أسوان حيث تعيش جمهرة من الزنوج السود، وحيث يندر بيت لا يكون فيه عبد أو جارية من بقايا أيام الدراويش

ثم التفت إلى الأسوانيين أنفسهم فتبين لي من أسمائهم وحدها أن البلدة (عصبة أمم) عجيبة يلتقي فيها أناس ترجع أصولهم إلى جميع القارات ما عدا القارة الأمريكية، فمنهم من هو في أصله تركي أو كردي أو من فارس وأعلى العراق، ومنهم من هو عربي أو مغربي أو حبشي، ومنهم من هو مجري أو بشناقي أم من أهل البلقان، وبعضهم لا يذكرون هذه الأصول وإن دلت عليها حروف وإضافات في الألقاب

على أنني لم أكن أحفل بالدلالات الجغرافية والتاريخية كما كنت أحفل بالدلالات النفسية والاجتماعية، ففي هذه دليل أمتع من كل دليل على قرابة الإنسان وتشابه العقائد والخوالج بين البشر وإن باعدت بينهم البحار والصحاري وآماد الدهور

كنت أعجب لأناس يدعون بأسماء الكلاب والحشرات، وأحسب أنها ألقاب تحقير أطلقها عليهم الأعداء أو المتهكمون الماجنون ثم غلبت عليهم فعرفوا بها بدلاً من أسمائهم، ولكني علمت أن أسماء الكلاب والحشرات هي أسماؤهم التي دعاهم بها آباؤهم وأمهاتهم، وأن الآباء والأمهات قصدوا إلى ذلك قصداً ليعيش لهم أولئك الأبناء، كأنما يحقرونهم ويشبهونهم بالحيوان الأعجم والحشرة المهينة ليزهد فيهم الموت ويأنف من أخذهم إليه!

والعجيب أن هذه العقيدة كانت سارية في يونان القديمة ومصر القديمة والشرق القديم، ولا تزال سارية حتى اليوم في بعض القبائل الأفريقية التي تؤمن بالأرواح الشريرة وتخاف منها على أطفالها وصغارها، وتحصنهم منها بمحصنات شتى إحداها حقارة الأسماء أو بشاعتها. ولا شك أن اسم (معاوية) مثلاً وهي الكلبة التي تعاوي الكلاب يمت بصلة إلى هذه العقيدة، كما يمت إليها اسم هريرة وما إليه ولحقارة الأسماء وبشاعتها سبب آخر غير تزهيد الأرواح الشريرة فيها، وذاك هو التخويف بها أو

احترام (الطواطم) المعبودة حيث كان الأقدمون يتبركون بها ويعتقدون أن أسلافهم من سلالتها

ففي القبائل المقاتلة التي تعيش على الغارة ولا تزال في خوف من الإغارة عليها يسمى الرجل بما يكره الأعداء، وترى بينهم من يدعونه ذئباً أو أسداً أو حنظلة أو جمرة أو حرباً وما إلى ذلك من المخوفات والمنفرات

وفي القبائل التي تؤمن أو كانت تؤمن (بالطواطم) يسمى الرجل كلباً أو ثعلباً أو صقراً أو نسراً كما يتفق من أصول الطواطم القديمة الباقية بعناوينها وإن نسيها أبناء القبيلة

ويقول السائحون بين القبائل التي على الفطرة إنهم يكرهون البوح بأسمائهم ويستريبون بمن يسألهم عنها، لاعتقادهم أن الاسم جزء من الإنسان من عرفه استطاع أن يسلط على صاحبه أرواح الشر والمرض واتخذه هدفاً يقذف عليه المتاعب والملمات. ونحن المتحضرين المحدثين نحسب أننا بعيدون مترفعون عن هذه الطبقة المسفة من طبقات العقول الآدمية، حتى نسمع (سحاراً) يسأل عن اسم المقصود بالسحر واسم أمه فنعلم أن المسافة بيننا وبين الفطريين أقرب مما نتوهم، ولاسيما في سراديب الظلام التي يهبط إليها من يهبطون ساعة الفزع أو ساعة الضغينة

ولا ريب أن حياة الأمة بين ماضيها وحاضرها تتمثل كثيراً في أسماء أبنائها؛ فنعلم أن الأقوام التي تنحصر أسماؤها في الظواهر الطبيعية سماوية كانت أو أرضية إنما هي أقوام فطرية لم تدرك من العلامات غير هذه الظواهر لتمييز الرجال والنساء، وأن الأقوام التي تظهر فيها أسماء الصناعات كالنجار والحداد والقصاب والزيات والعطار والعقاد قد تقدمت أشواطاً في الحضارة، وأن الأقوام التي تظهر فيها العناوين الاجتماعية قد عرفت بذخ الملك وألقاب التشريف ومراتب الطبقات، وأن الأقوام التي يذكر فيها الحرب والبطش والعداء قد درجت على الغزو ورعاية الماشية، والتي يذكر فيها الهدى والرشد والصلاح وأوصاف الفضائل قد أخذت بقسط من الدين وفلسفة الإخاء، وقس على ذلك ما تنم عليها معاني الأسماء وتراكيبها

بل ربما استطلعنا تاريخ الأمة السياسي من بعض الأسماء. فاسم (تفيدة) في مصر يدل على أن المصريين كانوا زمناً من الأزمان يتشبهون بالترك تشبه المحكومين بالحاكمين، إذ الاسم في أصله عربي صحفه الترك من (توحيدة) لأنهم ينطقون الواو فاء ولا ينطقون الحاء، فأصبح تفيدة ونقلناه نحن عنهم نقل المحاكاة

بل ربما عرفت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الرجل من دلالة اسمه واسم أبيه، فالأغنياء مثلاً قلما يسمون أبناءهم بعبد الغني أو عبد الرزاق، والمثقفون قلما يسمون أبناءهم بالأسماء المنسوبة إلى أماكن وبلاد إلا لمناسبة مفهومة، فالرجل المثقف لا يسمي ابنه (حجازي) أو (حبشي) وهو لم يولد في الحجاز أو الحبشة أو في موسم حج وعلاقة حبشية، ولا يسمي ابنه (مرسي) وهو لم يولد في مرسية ولا في مكان إلى جوار المرسي أبي العباس وما شابه ذلك من المناسبات

وربما ألممت بقبس من تاريخ الأسرة وتكوين ذريتها إذا سمعت اسم رجل أو امرأة منها.. فإذا سمعت في الصعيد باسم (قنعنا) فاعلم أنها اسم بنت لها أخوات ثلاث أو أربع، ويغلب أن تسمى إحداهن (رضينا) والأخرى (حمدنا) وهكذا مما يشف عن الغيظ وعن الخوف مع ذلك من التمرد والشكاية

ونحن نعرف أسماء كثيرة تكذب مسمياتها: حسن وهو دميم، وبدر وهو مظلم، وعزيز وهو ذليل، وصادق وهو كاذب، وسليم وهو شديد الإيذاء، ولكني لا أعرف اسماً يكذب مسماه أدل على المجون والظرف من اسم (قبيحة) جارية الخليفة (المتوكل) وقد كانت أشهر جواريه بالصباحة وروعة الجمال؛ ولخير ألف مرة أن يفاجأ الإنسان هذه المفاجأة من أن يترقب الحسن فيخيب رجاؤه بمرأى قبيح ومخبر لئيم. ومن سمع اسم (قبيحة) قنع بجمال يسير ليرضى ويبتهج، أما من سمع اسم (جميلة) فهو يحسب أنه مغبون مخدوع إن لم ير هذه الجميلة في الذروة العليا من الجمال

إن فلسفة الأسماء بحث ليست له نهاية، وفيما تقدم نموذج لمن يشوقه أن يسترسل فيه

من العقول عقل كالرسول الذي تثق بقدميه ولا تثق برأسه: ترسله وتفصل له ما يعمل في كل حالة، فإذا طرأ طارئ لم تُسلف له فيه وصية فلا عمل ولا تصريف حتى يرجع إليك. فالشيء عنده إما معمول بأمر أو متروك بأمر، وإما حسن كما تراه أو قبيح كما تراه، ولا توسط ولا تدرج بين الأمور

ومن العقول عقل كالرسول المفوض: تنبئه بمرادك ثم تكل إليه تحصيله كما يريد، فلا تبيح ولا تمنع، ولا تقسم الأمور كما تراها، بل تدع له أن يقسم ما يشاء حين يشاء

العقل الأول لا غنى له عن الحدود الحاسمة في الكلام؛ فالشيء عنده إما أبيض أو أسود، وإما حلو أو مر، وإما مأخوذ أو متروك؛ ولا يجوز أن يكون مأخوذاً في حال ومتروكا في حال، ولا أن يكون حلواً ومراً في وقت واحد، ولا أن يكون بين البياض والسواد تارة يبيض وتارة يسود على حسب الضياء والظلام، وعلى حسب الموقع الذي تنظر منه إليه

والعقل الثاني لا يتقيد بالحدود الحاسمة ولا يحتاج إليها، لأنه يرى الدرجات بين المسافات، ويرى الظلال بين الألوان، ويرى التشكيلات بين الأشكال

فالشيء عنده لا يكون بعيداً وحسب، ولا قريباً وحسب، وإنما يكون بعيداً بمقدار كذا وقريباً على درجة من القرب مقسومة بين الدرجات؛ وقس على ذلك سائر ما يدركه ويحده ويعيه

ولغات الأمم تبين لنا مقدار نصيبها من العقل المسخر ومن العقل المفوض

فاللغة التي تقل فيها (الظروف) هي اللغة التي قلما يستغني أصحابها عن الحدود الحاسمة والأوامر المفروضة، لأنهم يجهلون الفروق ولا يدركون وجوه الاختلاف، إلا إذا بلغت من الظهور والاتضاح مبلغ النقيض من النقيض، أو مبلغ الشيء المميز بعلامة لا تشتبه بغيرها من العلامات

واللغة التي تكثر فيها الظروف هي لغة العقول المفوضة أو العقول المتصرفة، لأنها تمح الفرق الصغير فلا تقف عند الحد الحاسم الكبير، وتري العمل الواحد على أشكال متعددات، فلا تحصره في شكل واحد محدود محتوم

و (الظرف) في اللغة هو الكفيل بإظهار هذه الفروق الصغيرة، وتقسيم الدرجات بين المسافات الواسعة. فإذا رأينا (الظروف) في لغة من اللغات فنحن إذن أمام ناس متصرفين غير محدودين، أو أمام عقول تستنبط الفهم من بواطنها ولا تنتظر حتى يقال لها: أفهمي هذا هكذا، وافهمي ذاك على ذاك المثال

وأحسب أن (الظروف) تقل، وأن العقول تعجز عن التصرف لسبب من سببين:

أحدهما طول عهد الاستبداد، فيتعود العقل إملاء الأوامر عليه وإسناد الفرائض إليه، فيصدع بما يؤمر ويطيع ثم لا يتصرف، وينتظر الإرشاد والتسديد في كل خطوة وعند كل طارئ جديد

والثاني نشأة الأمة في بيئة محدودة لم تتشعب فيها مسالك العمران ومذاهب التفكير، فكل ما فيها فروق كبيرة بارزة، ومسافات بعيدة شاسعة، فلا محل فيها للفرق الدقيق ولا للدرجة الصغيرة ولا للمسحة المترددة بين الألوان

وأنت تستطيع أن تفتح (معجم) اللغة من اللغات فتعرف نصيبها من الحرية أو من سعة العمران بتلك العلامة التي لا تخطئ، وهي علامة (الظروف) المصوغة أو التي تسهل صياغتها من الأسماء والأفعال

يضحك الإنسان ضحكة السرور، وضحكة الألم، وضحكة التشفي، وضحكة التهكم، وضحكة الرصانة، وضحكة الطيش، وضحكة المعرفة والحكمة، وضحكة الجهل والبلاهة، وضحكة القوة والعزة، وضحكة المجون والاسترخاء؛ وكله ضحك إذا نظرت إلى اسمه في اللغة... فماذا يفيد هذا الاسم إن لم يميزه مميز من الظروف؟

وتقول مثلاً في عنوان مقال أو قصيدة: (شجاعة الجبن) فيفهم العقل المتصرف أو عقل (الظروف) معنى ما تقول

أما العقل المغلق أو عقل الحدود الحاسمة فيعجب حتى يغرب في الضحك ويسخر ممن يلقي إليه بذلك العنوان، لأن المسألة عنده إما شجاعة وإما جبن ولا يلتقيان. وليس في علمه أن الجبن قد يؤدي إلى الإقدام بعض الأحيان، وأن الجبان والشجاع في بعض المواقف سيان

ومن هنا كان استغراب الجامدين لما كانوا ينعتونه (بالتفرنج) من تلك العناوين، وما هو بالتفرنج ولا بالوصف الموقوف على الفرنجة، ولكنه وصف شائع بين جميع العقول التي بلغت رشدها وخرجت على وصاية (الحدود الحاسمة) أو على وصاية الأسماء والأفعال التي لا تميز بينها الظروف والإضافات

وليس أصعب من إفهام عقل حاسم يتحذلق ويقيم الاعتراضات على ما سمع. فأنت إذا قلت مثلاً: إن النهار مضيء والليل مظلم، فذلك تفريق من أصدق التفريقات بين الأضداد: يسمعه العقل المتصرف فيعلم ما تعنيه لأول وهلة، ويسمعه العقل الحاسم المحدود المتحذلق فيقول لك: كيف؟ إن النور الكهربائي يضيء بعض الحجرات بالليل، وإن الستائر لتلقى الظلام على بعض الحجرات بالنهار! وقس على ذلك أمثال هذه الاعتراضات وما تنم عليه من الضيق والعجز وقلة التصرف والتواء التفكير

وإلا فانك إذا أردت أن تمنع ذلك الاعتراض وأشباهه فقد وجب عليك أن تقول: إن النهار مضيء والليل مظلم، ثم تتبع هذا التفريق بإحصاء جميع الحجرات التي تحجبها الستائر والنوافذ وجميع الحجرات التي تضيئها المصابيح الكهربائية وغير الكهربائية، وتعود فتقول: إن النهار مضيء والليل مظلم ماعدا حجرة في بيت زيد في طريق كذا في مدينة كيت وكيت بمصر بالقارة الإفريقية، وهكذا حتى تستوفي بيان جميع الحجرات في جميع الطرقات في جميع المدائن في جميع الأقطار. فإن لم تذهب إلى هذا التفصيل فأقل ما في الأمر أن تعمد إلى استثناء لا حاجة إليه ولا مزيد فيه

فما الذي يدعو العقل المحدود إلى أشباه ذلك الاعتراض؟ أَدقة في فهم؟ كلا! بل عجز عن إدراك الحدود بغير إملاء حاسم وعجز عن طلب المعرفة يشغله بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن مهام الأمور

وهنا ينبعث لنا من التمثيل مثل آخر للتفريق بين العقل المتصرف المفوض والعقل الحاسم المسخر

فهل من الضروري أن يلجأ العقل المتصرف إلى التفريقات والظروف في تعبيراته؟

وهل إذا قال القائل: (إن النهار مضيء والليل مظلم) نحسبه من أصحاب اللغات الغنية التي يتكلمها المتصرفون أو من أصحاب اللغات الفقيرة التي يتكلمها المحدودون المغلقون؟

الجواب هنا ينفع فيه التصرف المطلق، ولا ينفع فيه الحسم المغلق!

الجواب هنا أن ذلك القائل يكون من المتصرفين إذا قدر أن سامعيه لا يعترضون على ذلك الاعتراض السخيف ولا يطالبونه ببيان الحجرات في جميع البيوت والطرقات والأمصار والقارات، أو باستثناء هو وذلك على حد سواء. فإذا هو سكت بعد تفريقه الموجز فسكوته خير من الإفاضة والتشعيب

وأنه يكون من المحدودين إذا قال: (إن النهار مضيء والليل مظلم) ثم سكت عن المزيد لأنه يجهل مواقع الاستثناء كما يجهلها سامعوه

فالتصرف لازم في جميع التفريقات حتى التفريق بين المتصرفين والمحدودين

ومن ثم نستطيع أن نقول: إن (الظروف) والتفريقات تكثر في اللغات الغنية، ثم نرى أن أصحاب تلك اللغات قد يستغنون عن الظروف والتفريقات ويعرفون كيف يستغنون عنها ومتى يحسن الاستغناء؛ فلا نعجل بالاعتراض ولا نحسب أننا متناقضون، لأن التصرف خليق أن ينفي هذا التناقض الظاهر عن أذهاننا وأن يغنينا عن الإسهاب حيث لا حاجة إلى إسهاب

ساقني إلى موضوع الحد الحاسم رأيٌ في علاقة الأدب والديمقراطية قرأته في كتاب (لونارد وولف) المسمى بعد الطوفان، وسأعود إليه ببعض الشرح والتعليق في غير هذا المقال

وخلاصة رأيه أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات. أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية

فأبطال القصص (أفراد) مستقلة قلما تتكرر في غمار السواد، وليست نماذج من طبقة أو طائفة أو قبيل

وعلاقة الديمقراطية بهذا في رأي (لونارد وولف) ومن يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

رأي جميل لا شك في صدقه واحتوائه للكثير من الأصول والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل

ولكن ما نصيب ذلك الرأي لو وقع للمحدودين من أصحاب الحدود الحاسمة ومن جماعة المطالبين بتعداد الحجرات إذا قيل إن النهار ضياء والليل ظلام؟

فقبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله (هملت) وهو ولا ريب (فرد) بين أمراء جميع الأزمان وليس بالنموذج المتكرر في طبقة الأمراء

وقبل القرن الأول رسم هومير أبطاله الفرسان وهم مختلفون اختلاف أفراد لا اختلاف نماذج

فأين يذهب رأي وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى على هذه الوتيرة؟

يذهب إلى حيث نخسره ويخسره النقد وميزان الآداب، لأن وصف الشخوص بعد القرن السابع عشر قد اختلف وكانت لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما في ذلك مراء. وعلينا نحن أن (نتصرف) في التفريق بين أجزاء ذلك الرأي فنضيف إلى ميزان الأدب صنجة تعين على الضبط والتمييز. أما إذا أبطلنا الرأي وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان الحجرات المضيئة في الليل والحجرات المظلمة في النهار فنحن الخاسرون لأننا نجهل مواقع التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق في نقد الآراء

الحد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى، وهو علة الركود في آدابنا وفنوننا، ولكننا نتغلب عليه ونروض عقباته، ولا نستدل على ذلك بشيء أدل من زهدنا في الجدل (البيزنطي) عاماً بعد عام

النماذج والأفراد في الأدب

أشرت في مقالي السابق إلى رأي (لونارد وولف) في كتابه (بعد الطوفان) وخلاصته أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات، أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فقد أصبح أبطال القصص (أفراداً) مستقلة قلما تتكرر في غمار السواد. وعلاقة الديمقراطية بهذا التغير الواضح أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

أشرت إلى هذا الرأي وقلت إنني سأعود إليه ببعض الشرح والتعليق في مقال آخر؛ وأظن أن تاريخ الآداب لا يفهم حق فهمه إلا بتجلية هذا الرأي وأمثاله والوقوف على مبلغ ما فيها من الحقيقة والتمييز بين الأدب القديم والأدب الحديث، لأن تاريخ الآداب إن هو إلا المعالم التي نميز بها عصراً من عصر وطريقة من طريقة وموضوعاً من موضوع، سواء أكان هذا الموضوع بطلاً موصوفاً في رواية أو قصيدة، أم كان عاطفة إنسانية يصورها الراوي والشاعر حسبما يراه

لقد كان اليونان يصورون الإنسان لأنه يستحق النظر إليه ويقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟ وعلى هذا كان تصويرهم مقصوراً على الجميل والنبيل والرائع والمشهور، وهي الصورة التي تسترعي الأنظار وتشغل الخواطر وتفعم النفوس بالفتنة والإعجاب كان ذلك شعارهم في عالم التصوير الفني، فهل تغير اليوم هذا الشعار؟

لا. لم يتغير، ولم يزل من دأب القاصين والشعراء والرسامين والمثالين والكتاب المسرحيين أن يصوروا ما يستحق النظر، وأن يقولوا كما كان اليونان الأقدمون يقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فيكف تجد من يصورك؟!

لم يتغير شعار الفن القديم، وإنما تغير الذين يستحقون النظر فأصبح الدميم والسقيم والوضيع والخامل مستحقين أن ينظر إليهم الناظر، وأن يبحث فيهم الباحث، وأن يتناولهم التشريح، وأن يتعلق بعرفانهم عرفان أخلاق الإنسان وأطوار الجماعات وأدواء الأجسام وآفات الضمائر، وأصبح الهمل المنبوذون أهلاً للدرس والفحص والمراقبة مذ أصبحت جثة الميت أهلا للعناية بها ومراقبة الأدواء والأدوية فيها. فإذا قال القائل الحديث: كيف تجد من يصورك وأنت لا تجد من ينظر إليك؟ فهو معبر عن رأي الأقدمين والمحدثين على حد سواء؛ ولكنه إذا سأل: من الذي يستحق النظر أو من الذي يستحق التصوير؟ فهنا يظهر الخلاف ويتبين الفارق بين شعار الفن القديم وشعار الفن الحديث

وقد أصاب (لونارد وولف) حين قرن بين هذا التغيير وبين الديمقراطية، وأصاب أكثر من ذلك حين قال: إن الأديان فتحت باب هذا التغيير حين عرفّت الإنسان أن له روحاً مستقلاً بحسابه، منفرداً بثوابه وعقابه، معدوداً أمام الله خلقاً لا يفنى في غمار الخليقة، ولا يزال له ميزانه وكتاب حسناته وسيئاته لا يختلط بميزان غيره ولا بكتابه

وتلك في الحقيقة هي أول خطوة خطاها الإنسان في إظهار (الفرد) وتمييزه من غمار الجنس كله أو الطائفة برمتها

فمنذ أصبح الإنسان (فرداً) معزولاً في حكم الدين، لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم، ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم؛ هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والإحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية في التاريخ فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار

وغاية الفرق بين الفردية الدينية والفردية الديمقراطية أن حساب الدين إنما يكون في الآخرة فلا ضرورة لفرز الأفراد في هذا العالم الأرضي ولا لتمييزهم بالخصائص الدنيوية وما يتصل بها من الخلائق الاجتماعية والملامح الفكرية والأطوار السياسية

أما الديمقراطية فلا مناص فيها من التمييز بهذه المزايا ولا من فرز الناس على حسب ما يتراءى بينهم من فوارق الدنيا وعلامات الحياة وشياتها. ومن ثم بدأ التحليل

النفسي بعد ظهور الديمقراطية ولم يبدأ تواً بعد ظهور الأديان؛ وكان من دواعي ظهوره مع الديمقراطية عدا ما تقدم أنها جاءت على أثر النهضة العلمية وعلى أثر انتشار العلوم والمباحث في أطوار الناس مجتمعين ومنفردين، فتيسر التحليل النفسي الذي لم يكن

ميسوراً قبل ذلك في صدر المسيحية أو في صدر الإسلام، وأمكن التفريق بين الأفراد في الطائفة الواحدة والجنس الواحد، لأنهم من جهة قد ملكوا الحرية التي يبرزون بها خصائصهم ونزواتهم، وينطلقون بها مع أهوائهم ورغباتهم؛ ومن جهة أخرى قد وجدوا من يدرسهم ويطبق عليهم قواعد العلوم ويصوب إليهم مجاهر النقد والملاحظة. ولم تكن أسباب ذلك كله مهيأة عند ما جاءت الأديان بدعوة الفردية الدينية وجعلت كل إنسان (روحاً) له حسابه وكتابه وليس بالقطرة المنسية في الغمار

على أن العبقريات الرفيعة قد سبقت نهضة الديمقراطية إلى تمييز (الخصائص الفردية) على اختلافها ولو كانت في أوضع النفوس وأهونها وأبشع مياسمها. فكان المصور العظيم (ليوناردو دافنشي) يتعقب المشوهين والمسخاء في الطرقات ويغريهم بالخمر والمال، حتى يتكشفوا عن سرائر نفوسهم، ويخرجوا من حجاز الكلفة والمهابة، فيرقص منهم من يرقص، ويهذي منهم من يهذي، ويقهقه منهم من يقهقه؛ وتزداد بذلك بشاعة وجوههم وفسولة طبائعهم، وهو ناظر إليهم يترقب لمحة عارضة فيسجلها بقلمه دون أن يقطع عليهم مجانتهم وخلاعتهم. وكان شكسبير يصور عشرات النساء وكل واحدة منهن امرأة غير سائر بنات حواء في حبها وبغضها وحيلتها وكيدها وكلامها وسلوكها، حتى لا مشابهة بين صاحبة هملت وصاحبة عطيل وصاحبة مكبث وبنات الملك لير إلا في صفة الأنوثة التي تشمل جميع النساء

أما من عدا هذه الطبقة من العبقريين فأبطالهم كما قال (لونارد وولف) نماذج يشترك في صفاتها المئات والألوف، فحسن التاجر البصري مثلاُ هو تاجر كسائر التجار، وهو عنوان طائفة وليس بفرد من الأفراد، وكذلك عجيب وغريب وغيرهما من أبطال ألف ليلة وليلة، هم نماذج للفرسان والأمراء، وللأخيار والأشرار وللشيوخ والشبان، لا تحس فرقاً بين أحدهم وبين غيره من أبناء قبيله وعامة أقرانه وزملائه،

ولا مشابهة بينهم وبين أبطال القصص الحديثة - ولاسيما التحليلية منها - حيث ترى البطل فرداً ليس بالمتكرر وليس بالشائع بين أبناء صنعته وإخوان طرازه، وإن شابههم في صفة من الصفات فبمقدار ما يستدعيه اتفاق الصناعة واتفاق البيئة دون أن يفنى معهم في الغمار أو يغيب وراء العنوان يلوح لي أن هذا الرأي الذي أجملته وتصرفت في تفسيره بما أخلي المؤلف من تبعاته - هو على الجملة رأي صواب لا غنى عنه في نقد الفنون والآداب

ولكني أفضل أن أقول إن التحليل النفسي لم يكن نتيجة الديمقراطية وإنما كانت الديمقراطية والتحليل النفسي معاً نتيجة شيء آخر: هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة، أو هو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الإنسانية

ففي الوقت الذي ظهرت فيه القصة التحليلية كان الإنسان قد فرغ من كشف الأرض ووصل إلى أقصى مجاهل العالم المعمور

ولم تكن هناك قصة تحليلية قبل كشف الهند وكشف أمريكا وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية

فلما كشف كل هذه الأصقاع ووقف حب الاستطلاع والتماس الغرائب، من هذه الناحية، بدأ الالتفات إلى دخائل النفس وأخذت غرائب الأخلاق في الظهور، وأخذت العناية بها والتوفر على درسها في التقدم والشيوع

لقد كان معظم الرواية القديمة رواية رحلات ورحالين وكان الإنسان مشغولا بكشف (المكان) الذي يحيط به ويغريه بسحره ووعوده ومجازفاته، فكان شغفه بالاستطلاع والإحاطة بالدنيا مستغرقاً كله أو جله في هذه الناحية، وكان أمامه من العالم شيء يستوفيه ويستكمله ولا يزال له متعقباً متأثراً حتى ينتهي به إلى مداه

ولم يكن مجرد اتفاق ولا مصادفة أن تمت الكشوف الجغرافية وبدأت الكشوف النفسية في عصر واحد، فقد فرغ الإنسان من كشف الظاهر فانقلب إلى كشف الباطن، وعرف العجائب من البقاع المجهولة، فانثنى إلى العجائب من الخلائق الخفية، وكان هذا هو الترتيب الطبيعي المعقول في تاريخ الكشف والاستطلاع، فإن

الاهتداء إلى المكان أسهل وأوجب من الاهتداء إلى سرائر الأخلاق، والعلم الذي يحتاج إليه المرء في سياحة جغرافية أقل من العلم الذي يحتاج إليه في سياحات الضمير، إذ هو في الواقع ملتقى جميع العلوم ومشتجر الفلسفات والديانات والمذاهب أجمعين

لقد بدأت الديمقراطية وبدأ التحليل النفسي معاً بعد كشف الأمريكتين وكشف الهند وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية، ولولا انكشاف الأرض للإنسان لبقي مشغولاً بالمجهول منها عن سرائره وخصائصه وما يتميز به الأفراد من حقوق وواجبات.

هل الحرب ضرورة؟

جرئ من يقول أن الحرب ليست من ضرورات الطبيعة الإنسانية في هذا الزمن الذي قلما نسمع فيه إلا حديث حرب وخوفاً من حرب واستعداداً لحرب وبحثاً في محالفات ومؤتمرات ليس الغرض منها إلا اتقاء العداوات والحروب.

والواقع أن محاربة الحرب في العصر الحاضر تحتاج إلى كل ما في الإنسان من شجاعة، وكل ما عنده من رأى، وكل ما ينطوي عليه من سجية، لأنه يحارب أقوى القوى متضافرات متشابكات: يحارب قوة المال وقوة السلاح وقوة الجهل وهي أقوى عناصر هذا الثالوث.

وربما كان خير الميادين للغلبة على الحرب ميدان الثقافة وما يلحق به من ميدان التربية والتعليم. فإن التربية تصلح ما أفسدته التربية، ثم تزيد فتصلح ما لم تفسده قبل ذلك، وهي على كل حال سلاح لا غنى عنه في هذا الميدان، لأن وسائل السلم كلها لن تفيد في تعويد الناس غير ما تعودوه ما بقيت تربيتهم وتثقيفهم عقولهم على الحال التي هي عليه في طليعة الكتاب المعنيين بفلسفة الحرب (الدوس هكسلي) حفيد العالم الإنجليزي هكسلي الكبير.

وهو وأقرانه في هي هذا الجهاد الإنساني الشريف لا يبحثون عن الحرب بحث الصحف والأخبار والمؤتمرات والوزارات، فإنهم يعتقدون وهم على حق فيما يعتقدون أن سياسة الأمم اعمق وأخفى واعرق من هذه الجوانب التي يتناولها السواس وتلغط بها صحف الأخبار، ولكنهم يبحثون الطبيعة الإنسانية وينقبون في تواريخ الأمم ليعرفوا منها ما هو طبيعي أصيل، وما هو عرضي قابل للتهذيب والتبديل. ومعظم النابهين بين كتاب هذه الطائفة ينتهون إلى أن الحرب بدعة طارئة وليست ضرورة من ضرورات الطبيعة الإنسانية ولا قانوناً من قوانين الاجتماع، وهذا هو الرأي الذي يلوح غريباً ممعناً في الغرابة للذين سمعوا وطال سماعهم لقوانين تنازع البقاء وإرادة القوة وإرادة الحياة، وحسبوا أن هذه القوانين ودوام الحرب معنيان مترادفان

كتاب (الغايات والوسائل) هو آخر كتب هكسلي في هذا العام، وإن كان قد ردد فيه بعض الآراء التي شرحها في كتبه السابقة منذ سنوات.

وفصل الحرب في هذا الكتاب من أبرع الفصول التي كتبها هذا الأديب اللوذعي المطلع القدير، وهو الفصل الذي نلخصه في هذا المقال، ونعتقد إننا - نحن المصريين والشرقيين - خلقاء أن نبحث الحرب من هذه الناحية بعد أن طال حديثنا عنها من نواحيها العرضية التي تجيء وتذهب مع الأخبار، بل لعلنا أحوج ما نكون إلى تدعيم بحوثنا كلها على هذا الأسس وعلى هذه الأصول

يقول هكسلي ما خلاصته أن الحرب ظاهرة إنسانية لا وجود لها في عالم الحيوان، لأن الحيوان يتقاتل في إبان الثورة الجنسية أو طلباً للطعام أو لهوا ولعباً في قليل جداً من الأحايين، وليس من الحرب بالبداهة أن يقتل الذئب الشاة أو تلعب الهرة بالفأر، فإنما هذا شبيه بعمل الجزار حين يقتل ما يطعمه الناس، أو شبيه بعمل الصياد حين يتعقب الثعلب والأرنب. نعلم أن بعض علماء الحياة وعلى رأسهم السير أرثركيت يزعمون أن الحرب كالمنجل في يد الطبيعة تقطع الفاسد وتبقي من أفراد الحضارة وشعوبها كل صالح للبقاء

ولكن هذا كما هذا ظاهر لغو فارغ، لأن الحرب تقضي على الشبان والرجال الأشداء وتترك الضعفاء والشيوخ الذين لا يذهبون إلى الميدان. وقد دلت التجربة على أن اعنف الشعوب وأصلحهم للحرب لم يكونوا قط أفضل الشعوب وارفعها في مراتب الأخلاق والثقافة، إذ ليس انفس بني الإنسان وأغلاهم قيمة في معيار الحضارة أوفاهم (نزعة حربية) وضراوة في حومة القتال.

وأوجز ما يقال في هذا الصدد أن الحرب تختار الأفراد على طريقة عكسية فتفني الأقوياء وتترك الضعفاء، وإنها تختار الشعوب على سنة المصادفة والمناسبات الموقوتة، فكثيراً ما تفنى الشعوب المقاتلة وتترك الشعوب الموادعة، وكثيراً ما كان انطباع الأمة على الحرب طريقاً لها إلى الوبال والاستئصال.

والذي يدل أكبر دلالة على أن الحرب أليست طبيعة في الإنسان ولا في الاجتماع إنها لم تظهر في التاريخ إلا بعد ظهور درجة من الحضارة ونوع من الحكومة، فهي مجهولة

بين قبائل (الإسكيمو) التي تسكن الأصقاع الشمالية حتى اليوم. وقد كانت مجهولة في أطوار الإنسانية الأولى فلم يعرف عن الإنسان في تلك الأطوار انه اتخذ السلاح للقتال وحب الغلب والسيادة، إنما كان يتخذ السلاح لدفع الضواري أو لصيد بعض الحيوان

وصحيح أن (تنازع البقاء) قانون قائم في عالم الإنسان كما هو قائم في عالم الحيوان، ولكن من أين لنا أن تنازع البقاء مستلزم داوم الحرب كما ألفناها ونألفها في الحضارات الغابرة والحاضرة؟ ومتى شوهد الحيوان وهو يتجمع مئات وألوفاً ليقاتل بعضه بعضاً من فصيلة واحدة؟ فليس في عالم الطبيعة كلها ظاهرة تشبه اجتماع جيش لمحاربة جيش آخر، ولم يعلم قط أن قطيعاً من الذئاب احتشد الهجوم على قطيع مثله، أو أن سرباً من الطير فعل مثل ذلك على سنة الآدميين في الحروب.

فالقول بان الحرب قانون طبيعي قول لا يستند إلى اصل من الطبيعة الحيوانية في حالي التفرد والاجتماع، إنما هو تفسير خاطئ لقانون صحيح.

إن الآداب الأوربية قد شوهت الأخلاق حتى وهم الناس أن التضحية بالحياة أنبل ما يستطيعه الإنسان، وان الشهيد أي الميت الحسن على زعمهم افضل من الرجل العامل أي الحي الحسن. وعلى خلاف ذلك كانت آداب الشرقيين في الهند والصين، فعند اتباع كنفشيوس أن المغامرة بالحياة لا تليق، وان الحكمة أفضل من الشجاعة البدنية، وان العاملين في السلم أفضل من العاملين في القتال وان الفضيلة العليا أن يحجم المرء عن الكبرياء والعدوان ويروض نفسه على الوداعة ومجازاة الإساءة بالإحسان

ولما جاء المسيح بدين الوداعة والمسالمة دخلت المسيحية بين شعوب أوربا المقاتلة فجعلوا (الاستشهاد) غاية الغايات في النبل والفضيلة، لأنهم هكذا ينظرون إليه في لآداب العسكرية حتى التبست دعوة السلام بدعوة القتال.

أما في الهند فالحضارة البوذية تأبى العدوان على أحد من الأحياء وتوصي بمحاربة الشر بالكف عن مقابلته بمثله، وهو ما يسمونه عندهم (اهمسا) أي اجتناب الأذى مع الأحياء كافة حتى ما يؤذيه الآخرون طلباً للطعام.

وفي شرع البوذيين أن (الغضب) رذيلة دائماً وان الإكراه محظور في جميع الأحوال، فشاعت البوذية وعمت بين مخالفيها دون أن تلجأ إلى اضطهاد أو جاسوسية أو محكمة تفتيش

وعلى هذا، وعلى ما تقدم من نفي ضرورة الحرب، يسوغ لنا أن نعتقد أن الدعوة إلى إلغاء الحروب ليست بالدعوة التي تقاوم مجرى الطبيعة أو تعارض تيار السفن التاريخية، وانه من الجائز أن يشيع السلام في وقت من الاوقات، وبخاصة في العصور المقبلة القريبة بعدما استفحل خطر الحرب وتعذرت النجاة منه على المسالمين في البيوت والمقاتلين في خطوط النار.

واستطرد الكاتب إلى إجمال أسباب الحرب فقال ما خلاصته أنها أسباب نفسية قبل أن تكون اقتصادية أو سياسية كما يزعم الاشتراكيون ورجال السياسة، وان كان هذا لا يمنع أن لها أسباباً اقتصادية تعالج بترياق غير ترياق الدماء.

فمن أسباب الحرب الخوف، فهو يدفع إلى الاستعداد، والاستعداد يضطر الأمم إلى الحرب، لأنه يهيئ الأذهان لها بكثرة التوقع والشك في إمكان اجتنابها، وأحرى أن يكون ذلك في العصور الحديثة والبلاد المتحضرة، حيث اصبح السلاح عرضة للتغير والبلى بعد قليل من سنوات، فمن العسير أن تنفق الدول الملايين ثم تلقى بها في التراب.

ومن أسبابها شيوع الملل في الحضارة إذ يشيع الكفر بالأمثلة العليا فتعود الحياة عبثاً ثقيلاً لا غرض له ولا وجهة ولا متعة فيها أمتع من الإهاجة واستفزاز الشعور، والحرب تهيج النفوس فتدفع الملل والسآمة وتقل حوادث الانتحار كما ثبت من إحصاءات علماء النفس وفي طليعتهم دركيم وهلباش.

ومن أسباب الحرب الحرب نفسها حين تهجم أمة على أمة أخرى لانتزاع موقع لازم للتحصين ودرء المخاوف واتقاء الهجوم

ومن أسبابها المجد الكاذب وطغيان الأقوياء وتحويل أنظار الشعوب في الأزمات إلى ما يشغلها عن الثورة والانتقاض

ومن أسبابها التربية القائمة على الإفراط في اتباع النظام فان الإفراط في النظام ينشئ (العقلية العسكرية) ويجني على استقلال الأفراد، فتسهل قيادتهم إلى ما يريده القابضون على أعنة الأمور. ولو تربى الأطفال مستقلين لما استطاع القادة سوقهم إلى المجازر كما تساق الأنعام.

أما الأسباب الاقتصادية والسياسية فهي دون ما تقدم في القوة وصعوبة العلاج، وسنعود إليها والى مناقشة آراء الكاتب في غير هذا المقال

على أن الرأي الذي نود أن نختم به مقالنا هذا هو إصرار هكسلي على السخر بكل ما يقال عن الحروب التي تختم الحروب

فعنده أن التاريخ الإنساني ليس (كرة أرضية) يخرج فيها الإنسان إلى اليابان فيلقى نفسه في أقصى المغرب من طريق الشرق البعيد

إنما التاريخ الإنساني خط مستقيم، فإذا أردت أن تتقدم فيه إلى إلغاء الحرب فلن تصل إلى وجهتك بالرجوع إلى الوراء.

ظهور المذهب في الأمة شيء، وشيوع العمل بذلك المذهب شيء آخر لكن ظهور المذاهب مع هذا لا يخلو من دلالة قوية على طبيعة الأمة ومعدن أخلاقها وطرائق معيشتها، ولو لم يعمل به الناس أو يتقيدوا بأحكامه في الحياة اليومية

فالجنود والفلاسفة ورجال المال وأصحاب التجارات الواسعة موجودون في بلاد الحضارة كافة، وربما تساوت (النسبة) بينهم في العدد والقوة والجاه، ولكن مما لاشك فيه أن البلد الذي (مثله الأعلى) رجل الحرب غير البلد الذي يتخذ له (مثلاً أعلى) من الرجل الغني أو من الرجل الحكيم أو من الرجل الزاهد. فإذا ظهر في الصين حكيم يوصي الناس بالوداعة وحب السلم وكراهة القتال فليس بالمعقول ولا بالميسور أن يشيع العمل بوصاته حتى يمتنع ظهور الجند ووقوع القتال بين تلاميذه ومريديه؛ ولكن ليس بالمعقول كذلك إن نسوي بين هذا البلد وغيره من البلدان التي يتمنى حكماؤها شيوع الحرب أو شيوع الثروة أو شيوع الزهد والرهبانية، إذ يكفي أن يتمنى الإنسان شيئاً ليكون مختلفاً في تفكيره وشعوره ممن لا يتمنونه وقد يتمنون نقيضه، ولا يسوى

بينهم بعد ذلك أنهم يشتركون في عمل واحد يعمله بعضهم مضطراً مسوقاً إليه، ويعمله بعضهم مختاراً شديد الرغبة فيه

لقد أوصى حكماء الصين بالسلام وبغضوا الناس في الحرب وفيمن يجعلها صناعته وهمه وهجيراه، فليس معنى هذا أن حرباً لم تقع في الصين وأن حكيماً لم يظهر بين أهلها يحثهم على الكفاح كلما دعت إليه حاجة أو قضت به مصلحة سياسية؛ فقد ظهر من الصينيين فلاسفة بالغوا في تمجيد الحرب كما يبالغ فيها اليوم فلاسفة المذاهب (الفاشية) أو مذاهب العسكريين. وقال أحدهم وهو (كنج سوف يانج): (إن الأمة التي تجتمع فيها القوة حقيقة أن ترهب وتصبح عظيمة البأس والمهابة؛ أما الأمة التي تلهو بالكلام فهي وشيكة التمزيق. ولو أن ألفاً اشتغلوا بالزرع والحرب وواحداً بينهم أشتغل بنظم القصيد ورواية التاريخ وتنميق الأحاديث لأفسد عليهم أعمالهم أجمعين...) إلى أمثال هذا الكلام الذي يخيل إلى قارئه أنه من عربدة المعسكرات لا من نصائح الوعاظ والحكماء

ظهر في الصين من قال بهذا وظهر فيها من قال بغيره وهو الفريق الغالب والقدوة العامة المرموقة من الأكثرين، وربما كان ظهور الحكماء المسالمين وانتشار حكمتهم هو الباعث إلى ظهور المخالفين لهم وإغراقهم في دعوة الحرب وآداب القتال، كما يصيح الإنسان ويبالغ في الصياح كلما أحسن أنه ضائع الصوت والصدى محتاج إلى جذب الأسماع ولفت الأنظار؛ وإنما عبرة هذا جميعه أن النيات لها دلالة قوية وليست الدلالة كلها للأعمال والوقائع؛ فإذا رأينا أناساً ينوون السلم ويحاربون فليس بالصحيح أن نسوي بينهم وبين من ينوون الحرب ويحاربون: هم مختلفون وإن تشابهوا في عمل واحد، ونحن رابحون إذا أشعنا دعوة السلم وإن لم يتبعها على الأثر شيوع السلم وبطلان القتال

ومن الأشياء التي لها دلالتها في العصر الحديث كثرة الناعين على الحروب بين الأمم الحرة، وكثرة المنكرين لمظاهر الزهو التي كانت تحيط فيما مضى برجال الفتوح والغزوات، فسيكون لذلك كله أثره كما كانت له دلالته وكانت له دواعيه. وحسبنا أن

العمل في هذه الوجهة ليس بالعبث ولا بالعقيم، بل حسبنا أنه واجب محمود، بل حسبنا أنه ليس بذميم، ليكون ذلك من أسباب المضي فيه والإقبال عليه

يقال إن الضراوة ليست من طبيعة الوحش في حالة التأبد والسهولة. ويقول هدسون: إن ألبوما - وهو من أشد السباع الأمريكية - لا يهجم على أحد إلا وهو مدافع عن حياته. ويقول كومستوك: إن الثعابين والدببة وغيرها من السباع لا تتعلم الضراوة إلا حين يظهر بينها الإنسان ويوغل بينها في الصيد والاعتداء والتحرش والإيذاء. وحسبنا من ذلك أن الضراوة ليست أصلاً في الخليقة حتى بين السباع والعجماوات، وإنها ضرورة وليست بشهوة مطلوبة، وأنها تحول إذا امتنعت الضرورة وتغيرت الأسباب. فلا نزعم كما يزعم الفاشيون أن تربية الإنسان على الحرب فضيلة متى ثبت أن الحرب رذيلة ليس عنها محيد: ذلك خطأ لا ريب فيه، لأنه لم يثبت أولاً أن الحرب طبيعية في الأحياء، ولن يثبت بعد ذلك أن الرذيلة تصبح فضيلة مرغوباً فيها متى علمنا أنها عسيرة الاجتناب

ولست أكبر من شأن الدلالة التي أشار إليها الكاتب (الدوس هكسلي) صاحب كتاب الغايات والوسائل حين قال: إن الإنسان في دور الفطرة لم يكن يعرف الحرب على نظامها المعروف بين أصحاب الحضارة، فإن الرجل الذي يحارب ليس بأبشع ولا أقسى من الرجل الذي يقتل بعد تدبير وإصرار؛ ولعله أقل بشاعة وقسوة لأنه يقتل وهو مهتاج مستثار بما يثير الجنود في حومة الصراع. إلا أنني أومن بما تواترت به الآراء عن قلة الضراوة بين الأحياء التي تعيش على الفطرة في حالة التبدي والسهولة، فإن ذلك معناه أن الحرب آفة قابلة للعلاج في زمن من الأزمان، وأنها متى بطلت أسبابها الأولى ووضحت أضرارها الجسام وكثر المصابون بتلك الأضرار خفيت من عالم الإنسان المتحضر كما خفيت من عالم الإنسان الفطري أو من عالم الحيوان

وربما لاح عجيباً للمصريين أن يعلموا أنهم أول أمة في العالم قد اخترعت (فن الحرب) على النظام المعروف؛ فقبل الحضارة المصرية لم تكن حرب منظمة ولا تعبئة مدروسة ولا حركات يتعلمها القادة كما يتعلم صناعته كل ذي صناعة محفوظة الأصول والقواعد؛ وإنما كانت هناك مشاجرات يدخل فيها استخدام السلاح ولا تعتمد

في فنون التعبئة على نظام سابق. فما أعجب أن يكون المصريون الموادعون هم اسبق الأمم إلى اختراع فن القتال! وما أعظم ما في ذلك من دواعي التفاؤل عند أناس ودواعي التشاؤم عند آخرين! فأما التفاؤل فذاك لأن هذه العجيبة دليل على أن الحرب ضرورة معيشة في بعض حالات الحضارة الأولى، وليست بشهوة مقرونة بالوحشية التي تناقض الوداعة والمسالمة؛ وأما التشاؤم فذاك أن يقول القائل: هذا شأن الموادعين فكيف بالضراوة المقتحمين؟!

ومع هذا نقول ويقول هكسلي: إن علاج الحرب نفسي وليس باقتصادي على زعم الاشتراكيين أصحاب التفسير المادي للتاريخ، وإن المعيشة تابعة لحالة النفس قبل أن تكون الحالة النفسية تابعة للمعيشة. فهذب الرجل وأصلح من ذوقه وتفكيره ينتقل من منزل إلى منزل ومن حي إلى حي ومن كساد إلى كساد ومن طعام إلى طعام، وهكذا يكون العلاج لآفات الأمم في هذا الزمان

وقد وعدنا في المقال السابق أن نلم بأسباب الحرب الاقتصادية كما يراها مؤلف الكتاب. فأهمها وأسبقها تاريخاً في نظره هو التماس المرعى الخصيب وانتزاعه من أيدي مالكيه؛ ثم تبدل هذا الباعث في زماننا فحل التماس الأسواق محل التماس المرعى الخصيب، وأدى التماس الأسواق إلى إنشاء المصانع في البلاد المستعمرة فقام النزاع بين المصالح في أيدي الأقوياء والضعفاء على السواء

ومن أهم أسباب الاقتصادية معامل السلاح ونفوذ المنتفعين بترويج الأسلحة بين المتحاربين. وليس من العلاج الناجع في رأي هكسلي أن تستولي الحكومات على هذه المعامل فتبطل الدعاية للحروب، لأن الحكومات تحتاج إلى المال كما تحتاج إليه الشركات؛ ويزيد على المشكلة مشكلة جديدة وهي أن الحكومات أقوى على الجملة من الشركات

ويمضي الكاتب في سرد أمثال هذه الأسباب مجتهداً في إبراز غرضه الأصيل من كتابة الكتاب وهو تغليب العوامل النفسية على العوامل الاقتصادية وتوجيه الأذهان إلى ابتغاء العلاج الأدبي مع العلاج الاقتصادي في وقت واحد. وخلاصة العلاج الأدبي ترجع بنا إلى مذهب كمذهب أهل الهند أو مذهب المتصوفة القائلين بأن عظمة

الإنسان على مقدار استغنائه عن قيود اللذات والشهوات وقيود الأوجاع والهموم، وأن المثل الأعلى في التربية هو الترفع عن الحاجات وليس الخضوع لها والانقياد لغوايتها. أما خلاصة العلاج الاقتصادي فهي العناية بالوسائل الزراعية التي يجريها الدكتور ولكوكس صاحب كتاب (الأمم تعيش على مواردها الداخلية)؛ وفحواها أن الأمة بالغاً ما بلغ عدد سكانها قادرة على استخراج طعامها من أرضها إذا هي عمدت إلى تطبيق بعض الأساليب العلمية التي حققها بالتجربة المشهودة. ويتوقع هكسلي أن طريقة ولكوكس ومثلها طريقة الأستاذ جريك في كليفورنيا ستحدثان في العالم انقلاباً شاملاً لا يذكر إلى جانبه انقلاب الصناعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا كما تذكر التوافه واللمم في معرض الأخبار الجسام وجميع هذه الخلاصات إنما هي فهرس للعناوين يشوق من يعنيه الأمر إلى المراجعة والاستقصاء. فإذا راجع واستقصى علم أن الجزاء أكبر من العناء، وأن من مباحث الزراعيين في عصرنا هذا ما يلذ القارئ كما يلذه البحث في الأدب والفن والفلسفة وأصول العقائد وقوانين الاجتماع، فلا سبيل إلى علاج عالمي يعصف بآفات القرون الأولى ويحيط بعواملها الفكرية والشعورية ما لم يكن مصحوباً بدراسة هذه الشؤون

في عليين

سلفادور مدرياجا أديب إسباني كان أستاذاً للدراسات الإسبانية بجامعة أكسفورد. ثم ظهر في عالم السياسة الأوربية على أعقاب الثورة التي قام بها في بلاد الأسبان جمهرة الأدباء والمثقفين، فمثل حكومته في عصبة الأمم والولايات المتحدة وفرنسا، وراجت تواليفه التي تتمثل فيها عبقرية بلاده، فترجمت إلى معظم اللغات الغربية

وقد لازمته روح الأدب حتى في أعماله السياسية فرويت له طرائف شتى أثناء المناقشات المحتدمة في مشاكل الدول وأزمات الحكومات، ومنها انه حضر (مؤتمر السلاح) وسمع ما يقترحه كل فريق من الدول القوية من تقييد هذا السلاح أو السماح بذاك على حسب اختلاف العدة عند كل فريق، فأصغي إلى الأعضاء الجادين في مناقشاتهم ومساجلاتهم ثم قال:

(أيذكر مسيو لتفينوف خرافة الحيوانات التي اجتمعت للبحث في التقليم والتجريد؟ لقد نظر الأسد في ذلك المؤتمر إلى النسر ثم قال: علينا أن نلغي المخالب؛ ونظر النمر إلى الثور ثم قال: علينا أن نلغي القرون؛ ونظر الثور إلى النمر ثم قال: علينا أن نلغي الأظافر؛ ونظر الدب إليهم أجمعين ثم قال: بل نلغي كل شيء إلا حق الصراع والعناق!)

وعجب الناس من هذه المؤتمرات التي تجتمع ثم تفترق، وتفترق ثم تجتمع، وهي لا تأتي بنتيجة وتعلم أنها غير آتية بنتيجة. فذهب إليه مراسل بعض الصحف وسأله: ما جدوى كل هذا الاجتماع والافتراق وكل هذا الافتراق والاجتماع؟ وما يعني الساسة المحنكون بهذا العناء في غير طائل؟ فكان جواب مدرياجا للمراسل:

(أسمعت قصة الصبي اليهودي؟ إن كنت لم تسمعها فاعلم أن صبياً يهودياً تعود أن يصرف ريالاً أرباعاً ثم يصرف الأرباع سنتيمات ثم يعود فيرد السنتيمات في دكان آخر إلى أرباع فريال صحيح؛ وهكذا كل يوم بغير تحول ولا انقطاع. فتعقبه بعضهم

يوماً بعد يوم ولحق به في طريقه بين الدكاكين فسأله كما تسألني الآن: فيم هذا العناء على غير جدوى؟ قال الصبي: لابد من يوم يقع فيه بعض الناس في خطأ حساب، ولن أكون أنا بعض الناس هؤلاء!)

وقس على ذلك طرائفه التي يتناول بها معضلات السياسة بين الجد والمزح والنوادر والأمثال

آخر كتاب لهذا الأديب اللبق الأريب ظهر في اللغة الإنجليزية هو كتابه (في عليين) وهو على هذه الوتيرة محاورات وأمثال ومحادثات وقعت كما تخيلها في عليين بين أرواح العظماء المرفوعين إلى السماء:

منها روح فولتير الفرنسي وجيتي الألماني وكارل ماركس زعيم الاشتراكية وواشنطون ونابليون وماري ستيوارت ونخبة من طراز هؤلاء

وهي غير مقصورة على أرواح الأموات دون الاحياء، بل يشترك فيها بعض الأحياء الذين يستدعيهم أولئك العظماء من الأرض في حالة النعاس أو حالة الغيبوبة

ويدور البحث بين هذه الأرواح في كل ما يخطر لتلك العقول من مسائل الفن والسياسة والاجتماع، ويتخلل ذلك كلمات بعضها مخترع وبعضها مما روي عن قائليه أثناء الحياة؛ وقراءتها من أمتع ما يطلع عليه القارئ في الأدب الحديث

من أمثلة ذلك أنهم اختلفوا على مشاركة الولايات المتحدة للأوربيين في حل المعضلات العالمية. فأمر واشنطون باستدعاء روح من رجال مجلس الشيوخ المعارضين في ذلك. فجاء الروح وكان أول ما استشهد به قول الرئيس واشنطون في خطاب الوداع، وجرى الحوار على هذا المنوال

الشيخ - ولم يا سيدي؟ إن الجواب لظاهر. وتوقيراً لذكرى الرئيس واشنطون أعيد كلماته التي يعيها جميع الأمريكيين في أطواء القلوب... لقد قال: (إن لأوربا طائفة من المصالح الأولية التي لا مصلحة لنا فيها أو تكون علاقتنا بها جد بعيدة، ومن ثم نتورط في أسباب الخلاف والشقاق التي لا تني تتعاقب وتتلاحق، وهي أسباب غريبة عن

شواغلنا، فليس من الحكمة أن نزج بأنفسنا في غمارها، ونعقد الروابط المصطنعة بيننا وبينها، في أحوال سياستها المألوفة أو علاقات الصداقة والعداوة بين أجزائها)

ثم قال: (إن سياستنا هي أن ندير شراعنا بعيداً عن رياح الدول الأجنبية)

فالتفتوا جميعاً إلى القائد واشنطون فإذا به يقول:

واشنطون - عجيب! إنني لم... متى قلت ذلك يا حضرة الشيخ الموقر؟

الشيخ - أخالك أنت الرئيس واشنطون إنك لشبيه بتمثالك ولكن ليس بالشبه كله، أفأنت الرئيس واشنطون بعينه؟

واشنطون - نعم يا سيدي: ما يخلد منه

الشيخ - إني سعيد بلقائك أيها الرئيس. إن الكلمات التي سمعتها هذه اللحظة مقتبسة من خطاب وداعك

واشنطون (متذكراً) - وما ذاك؟

الشيخ - حسن أيها الرئيس. إنه الخطاب الذي ألقيته لدواع لست اذكرها الساعة، ولكني أذكر منها أنك ألقيته يوم اعتزمت ألا تغزو ميدان الانتخاب للرآسة

واشنطون - أغزو؟ أنا ما غزوت قط ميدان الانتخاب، ولكني أفهم ما تعنيه وإن كانت عباراتك غريبة عني بعض الغرابة

الشيخ - لم تكن من عباراتك. إلا أننا نحفظ دروسك عن ظهر قلب. لا اشتباك في المسائل الأجنبية!

واشنطون - ومع هذا يا حضرة الشيخ أقول لك إن الابتعاد عن حوافر الخيل سياسة حسنة لصغار الجراء، ولكنها ليست بالسياسة الحسنة لكبار الأفيال

ومن أحاديث الرسالة كلمة توجهها ماري ستيوارت إلى الشاعر جيتي - وهو أستاذها ودليلها في السماء - فتقول له:

(إنك أيها الأستاذ العزيز تطلب (الحرية في النظام) ولكني أرى أن الحرية راجحة على النظام، لأن الحرية خلاقة موجدة. أما النظام فقصاراه أن يحفظ ما هو موجود، وهو يحفظ كل شيء؛ ويا له من شيطان مسكين: يحفظ ما يستحق الحفظ وما هو حقيق بالتلف والزوال، وكأنه ربة البيت المجنونة بالشح والتدبير، فهو يحيط الحياة بنطاق من حديد؛ ثم تأتي الحرية - حرية الأرواح القوية - فتحطم النطاق ولا تزال تفتحه فتحاً يوسع أطراف الحياة)

ومن أقوال ماري ستيوارت في هذا الحديث: (ليست الحياة متاجرة، ولكنها مقامرة. وليست هي مقامرة الرجل مع رجال آخرين، وإنما هي مقامرة الرجل مع الحياة نفسها)

ويقول فولتير في بعض أحاديثه: (لست أزعم أنني موضع ثقة الإله وأنني مؤتمن على سره كالدكتور جيتي الذي يطلع على الأسرار الإلهية! بل إنني معترف بقلة الفهم لأساليبه، ومن ثم لست على يقين من أسباب لجميع هذه الأشياء)

فيقاطعه واشنطون قائلاً: لابد من أسباب على كل حال. فتصيح بهم ماري ستيوارت: أفكل شيء يجري على حكم العقل وحكم أسبابه؟ ما أحسب ذاك!

فيجيبها كارل ماركس: (ليست الدنيا مستشفى مجاذيب)

فيعود فولتير قائلاً: (أحقاً؟ لست أدري، ولكن إذا جرت الأمور على هوى أتباعك الاشتراكيين وأتباع الإمبراطور - يعني نابليون - العسكريين. فمن يدري؟)

ومن فكاهات فولتير في الرسالة قوله: (إن مذهب الشيوعيين الذين يدعون إلى استيلاء الحكومة على كل شيء لا يختلف عن مذهب الرهبان الذين يقولون باستيلاء الكنيسة على كل شيء) ثم يقول: (إن الشيوعيين هم الطبقة العصرية لطائفة اليسوعيين! الغاية تبرر الواسطة، وإلا فالأقوال الحتمية والتعميم والطاعة، كأنما الإنسان جثة ميتة باختياره، وإلا فهو جثة ميتة على الفور بغير اختيار، ولا احتمال لمذهب غير المذهب، ثم لابد من تسليم البضاعة...)

ويدور بعض الأحاديث في الرسالة عن الحرب كما يلي:

كارل ماركس - حرب. حرب. في أوربا كثير من أسباب الحرب غيري أنا...

جيتي - على التحقيق، ولكن أوربا كانت تعالج إصلاحها ومحوها، واليك مثلاً عصبة الأمم

كارل ماركس - فشل كامل!

جيتي - أتراك تنفض يديك من الشيوعية عند أول تجربة فاشلة؟

كارل ماركس - كلا! لأنني موقن بنجاحها الأخير

جيتي - وكذاك نجاح العصبة الأخير لا شك فيه

نابليون - لا. لا يا دكتور جيتي. هذا يدهشني أن أسمعه من رجل حكيم كما عهدتك

جيتي - إنما دهشتي من دهشتك

نابليون - نهاية كل قول أن الحضارة قائمة على القوة

واشنطون - كلا. بل الحضارة قائمة على العقيدة

كارل ماركس - العزة الإلهية مرة أخرى!

واشنطون - ليس هذا ما عنيت الساعة يا سيدي. وإن كنت أرى أننا لو تعمقنا في الرأي الذي أبديته فنحن منتهون لا محالة إلى العزة الإلهية

نابليون - ولكنك حين تقول إن الحضارة قائمة على العقيدة أيها الجنرال ماذا تريد؟

واشنطون - أعني الصلة الروحية التي تبعث الناس إلى عمل يعلو على مآربهم الحيوانية القريبة. أفتحسب أن جنودك ماتوا من أجلك لأنك أكرهتهم على ذلك؟

نابليون: إنما أحسب جيشي دعامة حضارتي، وإن جيشي على كل حال قوة!

واشنطون - ما كان جيشك إلا شجاعة، وإيمان بك، وحب لفرنسا

نابليون - ومدافع وذخائر وطعام

واشنطون - كل أولئك (مادة ميتة) بغير العقيدة

نابليون - أتريد عقيدة بغير مدفع؟

واشنطون - خير من مدفع بغير عقيدة

جيتي مخاطباً نابليون - فالمي يا سيدي! تذكر معركة فالمي؟ لقد غلبت العقيدة بغير المدفع على المدفع بغير العقيدة في تلك المعركة. إنني معك أيها الرئيس، وإني لشاكر لك إجابة الإمبراطور وإن كان توجيه سؤاله إلي لعجبه من إيماني بعصبة الأمم. ولقد أردت أن أقول له إنني لم أؤمن بالعصبة إلا لإيماني بأن الجماعة من الناس ينبغي أن تبادر إلى حكم نفسها ساعة وجودها أو ساعة شعورها بوجودها، فأما وجد الشعور بالجماعة الدنيوية فالحكومة الدنيوية لابد لها من وجود)

ومناقشة أخرى تدور بين فولتير وكارل ماركس عن سخافة الروايات الروسية الحديثة، فيشير ماركس إلى أسباب اقتصادية لسخافتها، ويعود فولتير فيقول:

فولتير - حتى تثبت أن غباوة جماهير المدينة نجمت من أسباب اقتصادية

كارل ماركس - حقيقة ذلك ظاهرة

فولتير - بل هي على نقيض ذلك، فما الأسباب الاقتصادية إلا وقائع ثانوية؛ أما الوقائع الأولى فهي دوافع النفوس

كارل ماركس - كلمات وليس إلا كلمات

فولتير - أأنت فأر مدينة أم فأر خلاء (تلك حقيقة ثانوية أما الحقيقة الأولى فهي أنك فأر على كل حال)

وجيء إلى السماء بوليام جننجز بريان الذي حارب أستاذاً لأنه علم مذهب داروين في بعض المدارس الأمريكية

قال فولتير - فما هو إلا أن ارتفع إلى هنا حتى مثل بين يدي العزة الإلهية. فتهلل وليام جننجز بريان بشراً، ولكنه لم يلق ترحاباً من جانب العزة الإلهية. فقال وهو في حماسة تشغله أن يلمح ما حوله من قلة الترحاب في هذا الجو لأنه قد صعد في الأرض

بحماسة كافية لأجواء عديدة: رب. هأنذا. لا يزال يغشاني غبار المعركة. لقد كانت حرباً زبوناً، ولكن الظفر كان لنا

فأجابه الله بصبره السماوي - إن لغة المعركة والحرب والظفر لا تعجبني

قال بريان - لكنك يا الله رب الجنود. أو ليس هذا اسمك في كتاب العهد القديم؟

قال الرب في حلمه السرمدي يلطف ما به: لقد كنت يومئذ ناشئاً ألهم أنبياء إسرائيل إلهام الناشئين! ولعلك نسيت أنني أرسلت إليكم منذ عشرين قرناً رسول حب وسلام

فحار بريان ثم توسل قائلاً وهو في ريب مما يسمع: ولكني يا رباه قد حاربت أعداءك

فوسعه حلم الرب وسدده إلى الصواب وهو يوحي إليه أن ليس لي يا بني أعداء. كل ما لي يا بني خلائق

فاضطرب الكتابي المسكين والشك يأكل قلبه، وصاح. لكن آراء داروِن رباه تخالف أقوال كتابك

فأكد له الله قوله في حلم وحزم: (كل ما أخلص كاتبوه في كتابته فهو وحي من عندي، وكل ما استقام على الصراط فهو من مصدر الاستقامة)

وفي بعض المحادثات يقول ماركس لجيتي: إن من يعمل يعيش. فيقول جيتي: إنك إن أقمت حق العامل على عمله لا على صنعته الإنسانية قتلته، ولاسيما حين تكثر الآلات وتقل الحاجة إلى الأعمال والعاملين

وهكذا تفيض الرسالة بالطرائف التي لها مثل هذه الطلاوة أو هذه الدقة أو هذه الفكاهة. وقد رأيت أن أشرك قراء العربية في نصيب منها حتى ينقلها ناقل برمتها وهي قلما تربي على مائة صفحة صغيرة.

زواج ملكي

لورنس هوسمان أديب شاعر رسام إنجليزي أشتهر بمسرحياته الصغيرة التي كتبها عن حياة الملكة فكتوريا ونشرها أخيراً (نادي اليمين) الذي يعارض جماعة الشمال من أصحاب المبادئ الاشتراكية والدعوات الانقلابية. وإحدى هذه المسرحيات مقصورة على المناقشة بين اللورد ملبورن والملكة فكتوريا عن مسألة الزواج الملكي وقد دار فيها بينهما هذا الحوار:

فكتوريا - إنني لم أفكر في أحد ما على التخصيص... أعني أنني لم أتخذ بعد قراراً حاسماً

ملبورن - يفرج عني أن أسمع هذا يا مولاتي، وأفهم منه إذن أن صاحبة الجلالة لا تزال طليقة الرأي...

فكتوريا - طليقة الرأي؟ نعم. نعم، لاشك أنني صاحبة الخيار في الأمر يا لورد ملبورن

ملبورن - وكيف لا؟ هذا ما أعنيه طبعاً ولا أشير بغيره لحظة

فكتوريا - لكن هناك أموراً قد عقدت النية عليها وبتتُّ فيها

ملبورن - مثل ماذا؟

فكتوريا - أن يكون زواجي يا لورد ملبورن زواج عاطفة

ملبورن - ذلك ما يستطاع تدبيره فيما أعتقد يا مولاتي بغير مشقة

فكتوريا - أعني أنني أريد إنساناً أجل خلائقه، وأستطيع أن أحبه وأن أرتفع إليه

ملبورن - ترتفعين إليه؟!

فكتوريا - نعم يا لورد ملبورن. وربما استغربت ما تسمع؛ إلا أنني أريد زوجاً أتطلع إليه حقاً بعد أن تكمل له الدربة على المرتبة التي سيشغلها

ملبورن - آه. هو كذلك، هو كذلك. إنني واثق من إمكان وجوده. وإذ كانت صاحبة الجلال قد أعربت عن طلاقة رأيها في هذا الصدد فعندي الساعة بيان بالأسماء المحتملة

فكتوريا - آه. لورد ملبورن، ما أعجب هذا! كم عددها؟

ملبورن - حسناً مولاتي. هم في الوقت الحاضر خمسة وحسب، ولكننا ننتظر آخرين. . .

فكتوريا - تنتظرون؟!

ملبورن - أريد أن أقول إننا نستخبر خبرهم

فكتوريا - وكيف تستخبرون؟

ملبورن - عن كل شيء يا مولاتي، وهو واجبنا المفروض علينا، فليس من شأني أن أعرض على صاحبة الجلالة أحداً يتجه إليه اعتراض على وجه من الوجوه

فكتوريا - وقد وجدت منهم خمسة حتى الساعة. . . ما أبرعك يا لورد ملبورن!

ملبورن - تحدثت يا مولاتي عن (المحتملين). . . ولا يزال الاستخبار جارياً عن الآخرين، وأنا قائم بالبحث الآن، ولعله لا يبقى منهم بعد مراجعة صاحبة الجلالة غير واحد

فكتوريا - أود أن ألقي نظرة على بيانك يا لورد ملبورن

ملبورن - إن أذنت مولاتي فبعد تمهيد وجيز عن الملاحظات التي تهديني في بحثي أعرض بياني لنظر مولاتي، ولموافقتها فيما أرجو

فكتوريا - لا يسعني أن أوافق على خمسة!

ملبورن - على سبيل المراجعة الأولى لم لا يا مولاتي؟ من خمسة يجرون تختارين السابق

فكتوريا - يجوز ألا أختار أحداً إلى زمن طويل، ولكن على كل حال هات ما عندك. إنني مصغية ومهتمة

ملبورن - إن المزايا التي يمتاز بها قرين يليق بصاحبة الجلالة هي ولا ريب مزايا فريدة أو مزايا خاصة. ولعلي لا أعدو وصفها الصحيح إن قلت غريبة. فمن الواجب أولاً أن يكون من سلالة ملكية، ومع هذا يجب ألا يكون وارثاً مباشراً أو مرجحاً لعرش من عروش الملك أو الإمارة

فكتوريا - ولم لا يا لورد ملبورن؟

ملبورن - لأن وراثته ربما جرت يا مولاتي إلى بعض المشكلات السياسية. إن تاج هانوفر قد تجاوزك إلى غيرك لأن قانون الوراثة يقصر ولاية الملك على الذكور، وتلك مناسبة سعيدة فيما أحسب، فنحن لا نحب مزيداً من تيجان هانوفر، وإن البلاد لأحسن حالاً بغير تلك التيجان

ولنعد إلى المزايا المطلوبة يا مولاتي. فالقرين اللائق بصاحبة الجلالة ينبغي فوق عراقته الملكية وبعده عن وراثة العرش أن يكون أميراً من بيت لا هو بالصغير المفرط في الصغر ولا هو بالخطير المفرط في العظم. إذ لا مناص لنا من اجتناب المحالفات المعقدة. وينبغي بعد هذا أن يدين بالعقيدة البروتستانتية

فكتوريا - أجل. أجل. فليس في مقدوري أن أتزوج برجل (بابوي)

ملبورن - نعم يا مولاتي ليس في مقدورك. إن قانون الولاية يمنع ذلك. ثم ينبغي أيضاً أن يكون شاباً كي يصبح قرين حياة لصاحبة الجلالة؛ وينبغي أن يعرف أو يتعلم اللغة الإنجليزية، وأن يكون صالحاً لاقتباس العادات والتقاليد القومية. وإن هذه المزية الأخيرة لأصعبها جميعاً لما هو معروف من تحرج الإنجليز مع الأجانب

فكتوريا - لكني يا لورد أحسب ما تقول سيجعل الأمر مستحيلاً

ملبورن - حاشا يا مولاتي. غاية ما هنالك أنه سيضيق نطاق الاختيار. ولابد من العثور على أحد قادر بعد الاصطباغ بالصيغة الإنجليزية أن يقتبس عاداتها ومشاربها. وقد حدث هذا فإن أبن عمك الأمير جورج أوف كامبردج مثلاً يتخذ على عجب صورة

الإنجليزي المطبوع، ولا تمضي سنوات خمس أو نحو ذلك حتى يتعود أن يجفو الأجانب كما نجفوهم

فكتوريا - لكن أتراك تجفو الأجانب يا لورد ملبورن؟

ملبورن - كلا يا مولاتي! كلا! وإنما أصطنع جفاءهم بعض الأحايين لأسباب سياسية

فكتوريا - حسن. وماذا بعد ما تقدم؟

ملبورن - يجمل به فوق ما تقدم يا مولاتي أن يملك بعض الثروة وإن لم تكن عظيمة؛ فإن البرلمان سوف يتكفل بما هو لازم؛ ويجمل به أن يكون صاحب سمت لائق بمقامه، وأن يكون على جانب من العقل لكن على غير جانب عظيم منه!!! إذ لا يحق له أن يتعرض لشؤون السياسة

فكتوريا - هذا حق، ولن أسمح له بالتعرض لتلك الشؤون

ملبورن - ثم ينبغي أن يكون صحيح الجسم سليم التكوين، منحدراً من (أصل أصيل)... وهذا أصعب ما عانيناه في المسألة إذ كان (الأصل الأصيل) في الأسر الأوربية المالكة من أندر الصفات

فكتوريا - وضح من فضلك، فإني لا أكاد أفهم. ويخيل إلى أن كلمة (الأصل الأصيل) تنصرف إلى الماشية

ملبورن - هي كذلك يا مولاتي في بعض معانيها؛ بيد أنها تعني أيضاً ما ينحدر من الوالد إلى الوالد. ونحن نجدها في الوصية الثانية حيث تنبئنا أن خطايا الآباء تنصب على الأبناء؛ وكذلك الفضائل. ففي بعض السلالات الملكية قد امتزجت الخطايا والفضائل حتى لنخشى المزيد من امتزاجها والخلط بينها. ولهذا كان القران بين الأمراء الأقارب غير محمود المشورة

فكتوريا - أوه!

ملبورن - أعني على الجملة لا على التقصي. وفيما يرجع إلى بعض الفروع من شجرة أسرتكم يا مولاتي ينطبق هذا لسوء الحظ أشد انطباق. ومن ثم لم أضمن بياني أسمي أثنين من أبناء عمومتك على الرغم من ذكرهما لي، وإنهما لولا ذلك لكانا من أصلح المرشحين لتلك المكانة، وهما صاحبا السمو الأمير إرنست والأمير ألبرت من ساكس كوبرج جوثا

فكتوريا - ومع هذا كانا يلوحان لي على أتم صحة وقوة عندما رأيتهما منذ سنتين

ملبورن - في الظاهر يا مولاتي، والظواهر طالما تخدع. والمسألة بعدُ دقيقة، بل مؤلمة، غير أني لم أضمن أسميهما - اتباعاً لما عندي من الأنباء الطبية - في البيان الذي أتشرف الآن بعرضه على صحابة الجلالة (وينهض ويقدم إليها البيان فتعبره بلمحة واحدة)

فكتوريا - أوه. ولكن هل تراني أعرف أحداً منهم؟

ملبورن - جلالتك تعرفين أحدهم حق المعرفة

فكتوريا - أوه. لا أحسب. أتعني الأمير جورج؟ إنه أبن عمي أيضاً

ملبورن - في فرع آخر يا مولاتي، وليس على هذا الفرع اعتراض من ذاك القبيل

فكتوريا - أوه، لكنني لا أستطيع أن أقبل أبن عمي جورج... إنه.. إنه

ملبورن - ليس من يريد أن يمس حق جلالتك في اختيارك... هناك غيره

فكتوريا - إلا أنني كما قلت لا أعرف أحداً منهم

ملبورن - يسهل إصلاح ذلك يا مولاتي. تدعينهم إلى البلاط واحداً واحداً ولا تقولين شيئاً، ثم تصرفينهم ولا تقولين شيئاً. أو تقولين ما بدا لك، ويبقى، أو يعود كرة أخرى

فكتوريا - لكنني أنا التي أختار. أليس كذلك؟

ملبورن - نعم أنت التي تختارين يا صاحبة الجلالة، ولا ضرورة تلجئك إلى الزواج إن أبيت

فكتوريا - أوه، لكن لابد من الزواج. هكذا كانت أمي تقول في كل حين

ملبورن - وهكذا سمعت. على أن مسألة لها مثل هذه الخطورة قلما يسمح فيها لولاء البنوة أن يؤثر في اختيار صاحب الجلالة. وإنما أقول يا مولاتي إنه على فرض أن هناك محاولة من محاولات التأثير على اختيارك في وجهة من الوجهات فالواجب يقضي على لما قدمت من أسباب أن أعارض

فكتوريا - لورد ملبورن، إنني لن أقبل معارضة ما في أمر من الأمور التي على هذا النحو. إنها لن تؤثر في رأيي لحظة

ملبورن - لا؟

فكتوريا - علي التحقيق، وربما أثرت على النقيض في وجهة أخرى

ملبورن - فهمت يا مولاتي، وأنا أشاطرك شعورك، ولا أقول كلمة أخرى، وإنما أكل المسألة إلى حسن رأيك، وإلى ضميرك

فكتوريا - أوه. ما أكرمك معي يا لورد ملبورن! وكم ذا أتعلم منك!

ملبورن - بل كم ذا أتعلم أنا من مولاتي. لقد خدمت ملكين أسن من صاحبة الجلالة، إلا أنني لم أخدم أحداً يصغي إلى المشورة بما تبدين من حكمة وحسن إصغاء

فكتوريا - (ناهضة) أستودعك إذن يا لورد ملبورن. أتبقي معك البيان أم تتركه هنا؟

ملبورن - بأذنك يا مولاتي. اذكري ما قلته أو تفضلي بنسيانه... فالاختيار لك وحدك وليس لأحد غيرك

فكتوريا - نعم، ولكنك لم تُرِني بعدُ صورة من الصور

ملبورن - صوراً يا مولاتي، ولماذا الصور؟

فكتوريا - لا يسعني أن أختار أحداً حتى أرى ملامح وجهه، فليس هذا بالإنصاف لهم ولا هو بالإنصاف لي

ملبورن - تستطيعين أن تأمري بدعوتهم.

فكتوريا - كلا! لا أنوي أن أدعو أحداً إن لم يعجبني مرآه

ملبورن - إن الصور لخادعة في بعض الأحيان يا مولاتي

فكتوريا - هذا صحيح. وقد رأيت منذ أيام صورة لأبن عمي الأمير جورج أوف كمبردج؛ فإذا به يلوح فيها وهو جميل

ملبورن - أستطيع أن أحصل على صورهم جميعاً يا مولاتي حسب مشيئتك، ولكن المصورين في البلاط - مثلهم كمثل رؤساء الوزارات - يعرفون واجباتهم، ولا يعملون إلا ما هو منظور منهم أن يعملوه، فإن لم يقدروا على عمله فعليهم أن يذهبوا

فكتوريا - (وهي ذاهبة إلى المائدة)... هذه صورة أرسلت إلى والدتي منذ أيام: صورة ابن عمي الأمير ألبرت

ملبورن - (وقد تبعها إلى المائدة)... أوه.. آه. نعم

فكتوريا - لا شك أنه نشأ جميلاً. ليس في استطاعة مصور بلاط أن يتخيل صورة على هذا المثال

ملبورن - من يدري يا مولاتي؟ من يدري؟ إن الخيال ليجمح... فأما وقد استغنينا عن بيان الأسماء فهل أمضي الآن في جمع الصور لصاحبة الجلالة؟

فكتوريا - أوه. كلا! يا لورد ملبورن. لم أكن جادة حين ذكرت هذا

ملبورن - ولا أنا يا مولاتي. إلا أنني أتوسل إلى صاحبة الجلالة أن تفكر في هذا الأمر جادة... إن مصير هذه البلاد لفي هذه اليد الصغيرة (وينحني على يد الملكة مقبلاً)

هذا الحوار طريف شائق مفيد من جوانب كثيرة، لأنه يرينا نمطاً من أدب الحديث بين الملوك والوزراء في بلاط الإنجليز، ويرينا نمطاً من الشروط السياسية التي تلاحظ في زواج الملوك الأوربيين والملكات الأوربيات، ويرينا نمطاً من اللياقة التي يتذرع بها الساسة هناك إلى تصريف المسائل الدقيقة. ويحسن الإطلاع عليه، والأمة المصرية تبتهج بزفاف المليك الفاروق حفظه الله وأدام ايامه، ليتم الإطلاع على الفارق بين

تقاليـدنا وتقاليـد الغـربيين في هـذه الشـؤون؛ فقـد فـرض العـرف القـديم وفرضـت المواقـف السياسـية قيـوداً على ملـوك الغـرب لا محـل لهـا مـن العـادات الإسـلامية والشرقية. ومن ثم كان زواج الملوك المصريين أقرب إلى الديمقراطية وإلى الحرية وإلى المعاني الإنسانية مما يكون بين الأمم الغربية، وهي فيما توحيه الظواهر مهد الحرية في مسائل الزواج.

كتب الأستاذ أديب عباسي في بعض الأعداد القريبة من الرسالة مقالاً سأل في عنوانه: (هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة في القرن السابع عشر أو بعده؟) ثم عاد سائلاً فيه: (أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت في القرن السابع عشر أو حواليه، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشري عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة؟! إنني أشك في صحة هذا الزعم، بل أكاد أنفيه قاطعاً)

ثم استطرد في جوابه قائلاً: (ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف كل رجأ من أرجائها؛ وليس الاستشراف للمجهول في خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة في رحاب الكون، وأسرارها المحيرة؛ وثمة الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية...) إلى أن قال:

(من يستطيع أن يقول: إن الكشوف الظاهرة التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدْها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التي تمت في القرن السابع عشر أو بعده؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً في القرن السابع عشر؟ أين مغامرات سكوت وشاكلثون وبيرو وغيرهم...)

ومن طرائف المناقشات أن تأتي هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسي تعقيباً لما أسلفناه في مقال (الحدود الحاسمة) الذي قلنا فيه إننا قد نستغني في الحدود والتعريفات عن الإحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غني عن البيانات من ضرورات الاستثناء في كل قاعدة. فإذا قال الإنسان إن النهار مضيء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصي أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التي تظلم بالليل والنهار فقد حدثت كشوف جغرافية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ولكنها كلها لا

تخرج عن (المتممات) التي تأتي بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير. وكذلك نقول مثلاً إن القرن التاسع عشر كان قرن الانقلاب الصناعي ولا نمنع بذلك استمرار الاختراع في عالم الصناعة إلى القرن العشرين بل إلى هذه الساعة فالأرض نفسها كانت مجهولة قبل الكشوف التي بلغت أوجها في القرن السابع عشر وما حواليه والبنية الإنسانية نفسها كانت مجهولة قبل تلك الكشوف، فكان من الناس من ينازع في شكل الأرض وفي القرار الذي هي قائمة عليه؛ وكان منهم من يزعم أن الإنسان في بعض الأصقاع يشبه الكلاب أو يشبه الغيلان، ويجري التناسل بينه وبين فصائل شتى من الحيوان

فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف في أمر الأشكال والظواهر، وانفتح المجال للبحث في الحقائق والبواطن، أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه في موضعه من عالم الأحياء الظاهرين

ولقد ذكر الأستاذ (أديب) كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير والأشعة الكونية، إلى أمثال هذه الكشوف العلمية التي حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث في هذه الأيام

ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه؟ وأين هي من (الحاسة الاجتماعية) التي تتعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات؟ أو التي تتعلق بها الديمقراطية وما لها من الأثر في وصف المجتمع وتحليل أفراده وطبقاته؟

فالسائح الذي يعود من الأقطار الأسيوية وقد روى لأبناء وطنه أنباء البذخ والفخامة ونوادر الذهب والفضة والجواهر والنفائس في أيدي الناس؛ يلهب أشواقهم ويعلق آمالهم وأحلامهم وأوهامهم أضعاف أضعاف ما يفعله كشف الذرة وما إليه من كشوف لا تتصل (بالحاسة الاجتماعية) إلا من بعيد

وألف كشف من كشوف (الذرة) لا يغير وصف الأبطال في القصص والروايات إلا أن يصل إلى اختراع طيارات أو سفن أو أسلحة أو ما شابه هذا من أمور تتصل (بالحاسة الاجتماعية) على نحو من الأنحاء

فالمعول فيما كنا نبحثه من اختلاف وصف الأبطال في القصص بين العصور القديمة والعصور الحديثة إنما هو على شعور الناس بها، أو تعلق (الحاسة الاجتماعية) بموضوعها، وليس المعول على حدوثها في عالم الواقع أو تسجيلها في دواوين العلماء

و (الذرة) بعد لا يكشفها إلا عالم أو مشتغل بعلم وصناعة؛ أما البقاع فيكشفها كل من شاء الرحلة من المغامرين، ويعني بها كل من قعد وراءهم من المتخلفين، ويشتغل بها من يراقب الجماهير ويدرس النفوس ويسجل أطوار الشعوب والأفراد. فهي لا تنعزل عن الحياة الاجتماعية ثم الحياة النفسية التي هي موضوع الروايات ومحور وصف الأبطال، وليست كذلك كشوف الكواكب أو كشوف الذرات

ولعل فيما تقدم توضيح ما التبس على الأستاذ (أديب) فهو غني عن المزيد من التوضيح

وقد كتب إلينا الأستاذ عبد الحميد العبادي يسأل عن كتاب الدكتور ويلكوكس واسمه باللغة الإنجليزية، فذكرنا هذا الاسم في العدد الـ (236) من الرسالة[1]، ووعدنا بالإجابة عما استوضحه الأستاذ من أثر الطريقة الزراعية الحديثة في أحوال العالم بأسره، وأنه ربما فاق في اتساعه وبعد مداه أثر الانقلاب الصناعي منذ قرن من الزمان

أما شرح الطريقة الزراعية العلمية التي تكفل لكل قطر من الأقطار أن يعيش على موارده الداخلية فليست الرسالة محله، ولسنا نحن أصحاب الاختصاص فيه

وأما الأثر الاجتماعي فيستطاع العلم به إذا عرفنا ما كان من أثر الانقلاب الصناعي في القرن الماضي، وعرفنا البواعث التي أفضت إلى ذلك الأثر ولا تزال تفضي إليه

إن الانقلاب الصناعي قد أحوج الدول إلى مستعمرات لجلب (الخامات) وبيع المصنوعات وتسخير الأيدي العاملة بأبخس الأجور

[1] المقال بعنوان :" في عليين " في كتابنا هذا ص 133

وإن الانقلاب الصناعي قد أخرج للأمم طبقات العمال وأثار بينهم وبين أصحاب الأموال ذلك الصراع الذي قوض ما قوض من دول، وأقام ما أقام من مذاهب في السياسة والدين والأخلاق

وإن الانقلاب الصناعي قد أذكى ضرام التنافس بين الحكومات، وأنشب ما أنشب من حروب وثورات

فكل هذا يتغير لا محالة إذا استغنت كل أمة عن الخامات واستغنت عن الأسواق

كل هذا يتغير إذا نجحت طريقة المجددين في الزراعة العلمية واستطاعت الأمم أن تعيش على مواردها الداخلية كما يقول الدكتور ويلكوكس في كتابه الذي أشرنا إليه

كل هذا يتغير، ويتغير معه تقسيم المجتمع وتقسيم الثروة وتقسيم عناصر الحكومة وتقسيم عوامل السياسة وما يتبعها من أهبة الحرب وأهبة الفتح وأهبة (التحالف) من جهة، والتعادى والتباغض من جهة أخرى

لا خامات في الخارج فلا مستعمرات، ولا أسواق في الخارج فلا منافسات، ولا احتكار فلا تكديس للثروة ولا نزاع بين العاملين وأصحاب رؤوس الأموال، ولا تسليح من ثم ولا توجيه للمصانع إلى غير المفيد من صناعات العمار والإنشاء دون التدمير والتقويض. وإذا احتاجت الأمم إلى بعض الخامات أو بعض الأسواق، فإنما يكون ذلك في أمان واستقرار وتعاون واشتراك على النحو الذي يجري به البيع والشراء بين الأفراد، أو على النحو الذي يجري به التبادل بين جماعات التعاون ولا سيما في بلاد الشمال ونعني بها بلاد الدنمرك والسويد والنرويج

ذلك مجمل الدعوة التي يبشر بها المجددون في علم الزراعة والمشفقون على بني الإنسان من أهوال الحروب

والمذهب معقول في أصوله وفروعه. ولو أنه مشكوك في مقدماته أو في نتائجه لكان مع ذلك جديراً بالبحث والمتابعة والجد في تحقيق ما يستطاع من خيراته وحسناته، لأن متابعة الأحلام قد تجوز إذا عظمت الغاية وعظم الخطر المرهوب. وأي غاية أعظم

من اتقاء الحروب؟ وأي خطر أعظم من خطر الفجائع التي تطبق على الشعوب المسوقة إلى تلك الحروب؟

إن متابعة الأحلام قد تجوز في هذا المقام، فكيف بالبحوث العلمية وكيف بالوقائع والأرقام؟

تحية شوبنهور

صديقنا القديم من جديد!

يـوم قـرأت أنهـم سـيحتفلون في معاهـد الغـرب الفلسـفية بانقضـاء مائـة وخمسـين سنة على مولد (شوبنهور) كان شعوري بهذا النبأ كشعور السالك في الطريق يلقاه على حين غرة صديق قديم مستحب اللقاء مذكور البدوات، على شوف إلى مراجعة عهده السابق واستئناف عشرته القديمة

هذا أنت يا صاح؟

وأين كل هذا الزمن الطويل؟

فقد مضت فترة ليست بالقصيرة لم أصاحب فيها هذا (المعري) من بني الجرمان ولم أراجع كتبه ولم أساجل آراءه وخواطره وأفانين تفكيره، فلما سمعت أنه سينبعث من جديد في ذكرى ميلاده، وأن ميلاد إمام المتشائمين القائلين بأن الولادة أدعى (الذكريات) إلى الحزن والندم - سيصبح في الملأ كله موعداً للغبطة والتبجيل، وأن الدنيا ستشهد هذا الحادث المتناقض كما شهدت نقائض شوبنهور في إبان حياته - عادت إلى الذهن تلك النقائض كلها وتلك الطوائف المقرونة بها، ولاح لي شوبنهور الظريف وهو أول ما يلوح للذهن منه قبل الفيلسوف وقبل الشيخ الوقور

وتلك أولى النقائض والبدوات من صاحبنا القديم: فيلسوف متشائم ولا يذكره الذاكر إلا ابتسم لفكاهاته ونكاته وغرائب عاداته، وولع الدنيا بمناوأته واستخراج شكاياته

فإذا ذكرت (شوبنهور) فأنت تذكر الرجل الذي يبشر بالفناء ويستنكر الحياة، ثم يسمع بظهور الهواء الأصفر في برلين فلا يقف في طريقه هرباً حتى يبلغ فرنكفورت، ولا يعود منها حتى بعد جلاء الوباء بسنين

وتذكر الحكيم الزاهد في عرض الحياة وهو لا يترك دانقاً من حسابه في المصرف، ولا يضع النقد إلا في صندوق مكتوب عليه (مادة طبية)... كما فعل العطار الذي يكتب عنوان الفلفل على صندوق الحلوى!

وتذكر الراهب الذي يعربد حتى يلحق به تلاميذه في بيوت بنات الهوى، وينفي لذاذات الدنيا وقد أخذ من جميع لذاذاتها بما استطاع من نصيب

وتذكر المبشر بالبرهمية في بلاد الغرب وقد سمي كلبه (أتما) أي روح الوجود!! وأبى الصبية من جيرانه إلا أن يسموه شوبنهور الصغير، إذ لم يكن في البيت صغير غير ذلك الكلب المسكين... الذي قال بعض المعجبين بالفيلسوف إنه هو أيضاً لابد أن يكون من المتشائمين، ولابد أن يبدو على وجهه ما يبدو على وجه أستاذه من عبوس ظريف

وتذكر الفيلسوف وقد جلس إلى مائدته في المطعم وأخرج من جيبه كعادته كل يوم جنيهاً إنجليزياً فوضعه على المائدة بحيث يراه الحاضرون، ثم يفرغ من طعامه فيرده إلى جيبه ويقول: (قد كسبت الرهان)... أي رهان؟؟ رهانه مع نفسه أن زوار المطعم من الضباط لن يتكلموا ذلك اليوم في شيء غير النساء والكلاب وخيل السباق!

وتذكر طالب الجائزة من جامعة كوبنهاجن برسالة لا نظير لها في كتابات عصره، فلما ضنت عليه الجامعة بالجائزة - غفلة منها عن قيمة الرسالة - طبعها وكتب عليها بالخط العريض: (لم تظفر بالجائزة من جامعة كوبنهاجن)... كأن هذا تزكية لها وضرب من الإعلان!

وتذكر المتهكم الحانق الذي نقم على بعض الممثلين ارتجاله العبارات من غير كلام المؤلف حتى شكاه الكتاب إلى مدير المسرح فنهاه وأنذره بالفصل إن عاد إلى مجونه... قال شوبنهور: فلما ظهر بعدها في المسرح على ظهر جواده نسي الجواد موقفه وأتى بصوت لا يسمح به في مسارح التمثيل، فارتبك الممثل وصاح بالجواد: ألم تعلم أنهم يحرمون علينا الارتجال بغير تلقين؟!

تذكر هذا وأشباهه قبل أن يطرأ على بالك شأن الفيلسوف العظيم وتفصيل ذلك المذهب المستفيض الزاخر المجتمع من بديهة الحكمة وسليقة الفن وشعور الرجل

المتصل بالحياة على غير انقطاع ولا مجافاة، كمجافاة النساك في صوامع الدين، أو النساك في صوامع العلم والدراسة

فإذا ذكرت ذلك المذهب فلعلك واجد فيه من وشائج القربى مثل ما وجدت من طرائف صاحبه ونقائضه وأفانينه. لأنه مذهب شعر بفحواه كل شاب عالج الفلسفة واشتغل بالتفكير في أوائل هذا القرن العشرين

لقد كان التشاؤم طبيعياً معقولاً في زمان شوبنهور فأصبح طبيعياً معقولاً أن يتصل الرأي والشعور بينه وبين الشبان في مثل عهده وفي مثل حاله وإن لم يكونوا على مثاله في مزاجه وأطواره

وخير ما قرأناه في تعليل التشاؤم عند ذلك الفيلسوف الكبير كلمة (دورانت) مقدم طبعته وملخص فلسفته حيث يقول عنه وعن بعض معاصريه:

(لماذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر مبعثاً لتلك الأصوات من أصداء العصر ينطق بها الشعراء المتشائمون على غرار بيرون في إنجلترا ودي موسيه في فرنسا وهيني في ألمانيا وليوباردي في إيطاليا وبوشكين ولرمنتوف في روسيا، عدا الموسيقيين من أضراب شوبير وشومان وشوبان بل بيتهوفن المتشائم الذي حاول أن يقنع نفسه أنه من المتفائلين؟ بل فوق ذلك جميعه فلسفة الحكيم العميق في تشاؤمه ارثر شوبنهور؟

(لقد ظهرت مجموعة الويل والهول المسماة بـ (الدنيا إرادة وفكرة) سنة 1818 وكانت سنة الحلف المقدس بعد أن قضى الأمر في معركة واترلو وخمدت الثورة وقذفت الحوادث بابن الثورة إلى صخرة في البحر السحيق يبلى عليها ويذوي. وإن قبساً من تقديس شوبنهور للإرادة مأخوذ ولاشك من ذلك الأفنوم الفخم المخضب بالدماء المجسد في شخص ذلك الكورسيكي الصغير، وإن قبساً من قنوطه وإحجامه عن الحياة مأخوذ ولاشك من جوانب جزيرة القديسة هيلانة حيث صارت الإرادة إلى الهزيمة والفشل في النهاية، وأصبح الموت وهو الظافر الوحيد المحوم على ميادين تلك الحروب، وقد عاد البوربون إلى عرشهم، ورجع الأمراء والنبلاء يطالبون بأرضهم، وراح خيال الاسكندر الطامح إلى السلام يحتضن في غفلة منه عصابة تقضي على التقدم

من كل صوب وفي كل مكان. فقد ولى العصر العظيم وقعد جيتي يحمد الله على أنه ليس بالشاب الفتيّ في عصر مفروغ منه مقضي عليه بالختام

(خشعت أوربا، وانقرض ألوف الألوف من أشد الرجال، وخربت بطاح واسعات، وكتب على الحياة في كل موضع على القارة الأوربية أن تبدأ من جديد وأن تبدأ من أعمق الأعماق كي تستعيد في ألم وبطء شديد ذلك الفيض الذي التهمته الفتن والحروب. وكان شوبنهور يسيح خلال فرنسا والنمسا في سنة 1804 فيروعه ما يشهد من الفوضى والقذارة في القرى، ومن الفقر والبؤس بين الفلاحين، ومن القلق والشقاء بين المدائن والحواضر. ذهبت حروب نابليون وأعداء نابليون وخلفت وراءها ندوب الويل والهلاك على وجه كل بقعة من هاتيك البقاع: فموسكو في الرماد، والبلاد الإنجليزية على ما أصابها من فخر الانتصار قد مُني فيها الفلاحون بكساد القمح وغلات الزراعة، ومُني فيها صناع المعامل بكل ما يبتلى به الصناع في معمل لا رقيب عليه ولا حسيب، وزاد تسريح الجنود في نكبات البطالة. وروي كارليل عن أبيه في تلك الآونة أن العمال كانوا يذهبون يومئذ فرادا إلى البرك والجداول يملأون بطونهم بالماء بدل الطعام ولا يعنيهم إلا أن يستروا ما بهم من الضنك عن الآخرين. ما كانت الحياة قط أفرغ من معنى ولا أخس مما كانت يومذاك)

هذا منشأ الفلسفة الشوبنهورية من أحوال السياسة وأطوار الدول والمجتمعات. ولهذه الفلسفة منشأ آخر من أطوار الفكر والعقيدة لا يقل في أثره عن حروب نابليون وهزائم الجيوش، وذاك هو شيوع الشك في العقائد والأديان والأمثلة العليا بين الأوربيين بعد عصر النهضة العلمية وعصر الثورة الفرنسية، فلا أمل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا معنى للسعي ولا للقعود، ولا خير في التفكير ولا في التسليم، ولا مناص بعد ذلك من ترجمة هذه الحالة في فلسفة منظمة منسوقة مقنعة كتلك التي بشر بها صاحبنا رسول التشاؤم ونذير الفناء أي حالة هي أشبه بحالة الشاب القارئ في أوائل القرن العشرين من حالة ذلك العصر أو حالة ذلك الانتقال؟

كل شاب يخرج من حظيرة البيت إلى معترك العالم فإنما يخرج من دنيا أحلام وظنون إلى دنيا صراع لا هوادة فيه، ولاسيما في أوائل القرن العشرين حيث كان

للعقائد سلطان، وكان للأمثلة العليا بين الشرقيين خاصة مجال لم تضيقه الحقائق والتجاريب

لهذا كان بين شوبنهور وكثير من الشبان القارئين عندنا نسب قريب في أوائل هذا القرن العشرين. ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع تارة ومن أثر التشاغل تارات، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذي لا محيص عنه مع تعاقب الأيام وتعدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان في القول ما يشبه الفكاهة والدعابة؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجاراة لموضوع الاحتفال وصاحب المذهب. ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته، فلتكن هذه من دعابات الزمن معه، ومن وفاء الزمن له في قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات، وهي مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره. فمن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه، وعرف مكان الصدق في المطابقة بين الوحي ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها. ومجمل تلك الفلسفة في سطرين: أن الإرادة هي صاحبة السلطان في أعمال الأحياء وحركات الحياة؛ وأن الإنسان يلتمس الأسباب والبراهين لأنه يريد، ولا يريد لأنه يلتمس الأسباب والبراهين؛ وأن الفكرة تلغي الإرادة وتشل الحركة وتنتهي بالحياة إلى سكون كسكون (النرفانا) عند الهنود؛ وأن الإرادة تتعلق بالفردية، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة في الكون كله. ومن ثم يجيء الفن والدين والعبقرية على رأس الفكرة ومن وراء الإرادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات، فالمصير الذي يطوينا جميعاً ويطوي أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبه الفناء

وفي مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته، وبين العرض والجوهر في هذه المطابقة. وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده في الثاني والعشرين من شهر فبراير أن نزجي إلى ذكراه تحية المودة والإكبار، وأن نهتف به: مرحى! ومرحباً صديقنا القديم من جديد!

- 2 -

ختمنا مقالنا السابق واعدين أن (نطابق في مقال آخر بين سيرة الرجل وفلسفته، وبين العرض والجوهر في هذه المطابقة)

وإنما رأينا ضرورة هذه المطابقة لأننا اعتقدنا أن كثيراً من القراء سيلمحون جانباً من التناقض الكبير بين دعوة الرجل وسيرته في حياته: بين رجل يزدري الحياة ويستمتع بلذاتها، ورجل يقتضي مذهبه الزهد وهو يحرص على المال، ورجل يهرب من الوباء وهو يبشر (بالنرفانا) والفناء، ورجل عبوس الرأي مشرق الفكاهة

فمن المفيد ولا ريب أن نبين وجهة النظر التي تتجه إليها في تعليل ذلك التناقض، وأن نشرح التوافق الباطن في هذا التناقض الظاهر، وأن نقول إن مذهب الحرص ومذهب التشاؤم كلاما يصدر عن منبع واحد، فلا اختلاف هناك ولا غرابة من وراء الحجاب، وإن بدا لنا الأمر على ظاهره مختلفاً جد الاختلاف مستغرباً جد الغرابة

كان شوبنهور إمام المتشائمين الساخطين على الحياة المستريبين بالناس، المتوجسين من ضمائر الغيب

كان لا يسلم وجهه قط إلى حلاق مخافة أن يذبحه أو يجرحه، وكان يغلق الأقفال على أدوات تدخينه مخافة أن تمزج بالسموم، وكان ينام والى جانبه مسدساته محشوة مهيأة للإطلاق، وكان لا يطيق معاشرة الناس ولا سماع الأصوات، وكان يقول إن الحياة نقمة لا تحمد ومحنة لا تطاق

كان كذلك وكان يخاف الموت ويهرب من الطاعون، فكيف يكون التوفيق بين هذا الفزع من الموت وذلك التشاؤم بالحياة؟

هما في الحقيقة شيء واحد!

فالمتشائم لا يتشاءم إلا لأنه شديد الإحساس بالخطر، شديد الغلو والإغراق في هذا الإحساس؛ وليس مقتضى ذلك أن يطمئن إلى الأوبئة والأمراض ويركن إلى السرائر والنيات كما يلوح في بادئ الرأي، بل مقتضاه أن يفزع من النذير إذا كان غيره لا يفزع من الحقيقة الواقعة، وأن يكتفي بالإيماء إذا كان غيره لا يكتفي إلا بالصيحة العالية،

وأن يهرب من الطاعون قبل أن يهرب منه المستريحون المطمئنون إلى العيش الواثقون بالمصير وكان شوبنهور يبغض الحياة ويستمتع بلذاتها، فكيف يكون التوفيق بين البغضاء والاستمتاع؟

هما كذلك شيء واحد في الحقيقة. فلولا أنه يحب الاستمتاع بها لما أبغضها، ولولا أن الرجل يعرف لذة المعشوقة لما استعرت في نفسه بغضاؤها حين يحال بينه وبين متعتها كما يشتهيها، ولولا الإحساس المرهف لما كان الألم ولا كانت الحاجة إلى الترفيه عن النفس المتألمة بالإقبال على اللذات والتشاغل بالسرور، فإنما اللذات هنا ترياق لا يحتاج إليه إلا من هو مريض في المستشفى، بل هو مرقد لا يحتاج إليه إلا من فارقه الرقاد ولازمه السهاد

وكان شوبنهور ينفر الناس من الدنيا ويحرص على ماله ولا يفرط فيه، فكيف يكون التوفيق بين مذهب التنفير ودافع الحرص الشديد؟

هما أيضاً شيء واحد في بواطن الأمور

فالحرص على المال علامة بعض حالاته على الحذر الشديد من الناس، وقلة الركون إلى الوفاء والإخلاص والمعونة من الأصدقاء والأقرباء، فإذا افتقر إليهم فهو على يقين أنهم لا يسعفونه ولا يحفلون بما يصيبه، وإذا نظر إلى المستقبل فهو على يقين أنه سيفتقر أو يستهدف للنكبات والمتاعب، لعظيم خوفه من العواقب وإشفاقه من غدرات الحوادث، وعلى قدر هذا الخوف وهذا الإشفاق يكون الحرص على المال الذي ينفعه حين لا ينفعه صاحب ولا قريب

وكان شوبنهور عبوس الرأي مشرق الفكاهة كثير التنكيت والتبكيت، فكيف التوفيق بين الخصلتين؟

لا ضرورة إلى الإطالة في التماس التوفيق بينهما، فهما متفقتان لا تتعارضان , فالمرهف الإحساس يتألم، والمرهف الإحساس يفطن للفارق الدقيق بين طوايا الناس ودعاواهم، وهذا - أي الفارق الدقيق بين الطوايا والدعاوي - هو ينبوع التهكم الذي لا ينضب ومبعث الفكاهة ومادة (القفش) كما نقول في لغتنا نحن المصريين.

والمرهف الإحساس من جهة أخرى يشعر بالألم فيحتاج إلى الضحك والسخرية وعنده المادة موفورة كما أسلفنا، فيتزود منها حيناً بعد حين بما يريحه إذا التمس الراحة، وما يصول به على خصومه إذا تعاوروه بالإساءة والإيذاء، وهو يتهمهم أبداً بأنهم يفعلون ذلك وإن لم يفعلوه

ومن راقب إخوانه وعشراءه عرف بالتجربة والمشاهدة أن النكتة المريرة أنفذ وأمضى وأدعى إلى المفاجأة من نكات المرح والخفة والمجانة، ولا سيما إذا اقترنت بالذكاء الثاقب والخبرة الواسعة والاطلاع الموفور، وكل أولئك كان من خصال شوبنهور ولوازم طبعه، ولو ضعفت مرارته لضعفت فكاهته على خلاف المنظور في ظواهر الصفات

وهكذا يؤدي بنا تطبيق المنطق على الخلائق الإنسانية إلى نقيض المتبادر من قريب، فنستغرب الأمر لأول وهلة ثم نمضي قليلاً إلى ما وراء ذلك فإذا المستغرب هو المألوف، وإذا المألوف فيما زعمنا أولاً هو الغريب البعيد

وخطأ أن يقال إن منطق العواطف غير منطق العقول... كلا! بل هما منطق واحد في جميع الحالات، وكل ما هنالك أننا لا نستحضر وجوه المقارنة جميعاً إذا بحثنا في ظواهر العواطف والأخلاق، فإذا استحضرناها وجمعنا أسبابها فالحكم على كل حال لا بد أن يطرد ويستقيم

وهكذا نصنع إذا حكمنا في قضية لها عشرون شاهداً من الجانبين ولم نسمع إلا خمسة شهود من جانب واحد. فهل يجوز لنا إذا اختل حكمنا أن نقول إن منطق القضايا المدنية أو الجنائية غير منطق العقول؟ كلا. بل نقول إن منطق واحد لا تناقض فيه، ولكننا نحن نسينا أسبابه وأغفلنا جوانب الحكم والمقابلة

من هنا يتبين لنا أن (شوبنهور) يعرض لنا صورة منسوقة من سيرته وفلسفته، وأن شذوذه هو اللون الصادق في جلاء تلك الصورة والموافقة بين أنوارها وظلالها، وأنه ابن مزجه وتكوينه في كتبه وفي حياته، كما كان ابن زمانه وأسرته وبلاده وما اختبره واطلع عليه

وما من رأى في كتب الفيلسوف إلا وله مرجعه إلى حالة من حالات زمانه أو دخيلة من دخائل بيته، فقد رأينا كيف علمه سقوط نابليون أن العمل للإرادة وأن الإرادة إلى فشل وحبوط. فهل من علة لتقسيم الإرادة والذكاء بين الرجل والمرأة أو بين الآباء والأمهات؟ أو هل من علة لحقده على جنس النساء وكراهيته للنسل والزواج؟

نعم. علة ذلك أن أباه كان من رجال الأعمال وقد مات مجنوناً وقيل إنه بخع نفسه بيديه، وإن أمه كانت ذكية حصيفة تكتب الروايات وتنافس ابنها في عالم التأليف، وكانت تعيش بعد أبيه عيشة مريبة فاعتزلها ولم يرجع إليها بقية عمرها. فمن ثم كان اعتقاده أن الولد يرث الإرادة من الأب والفكرة من الأم، وأن تمام الفكرة والإرادة في الإنسان إنما يكون على هذا المنوال، فيصبح وهو مثال الدنيا التي تنتهي من الإرادة إلى الفكرة إلى (النرفانا) وما يشبه الفناء

شوبنهور عجيب، وأعجب ما فيه أن شذوذه كله يستقيم مع التعليل وتتفق فيه الظواهر والأسباب، ويعرض لنا نموذجاً صادقاً لنقائض الأخلاق، وهي في باطن الأمر أقرب ما تكون إلى المألوف المطرد المنظور .

الغربيون اليوم معنيون بالبحث في مسائل الشرق من جوانبه كافة. . من جانب السياسة، لأن نهضة شعوبه تضطرهم إلى حسبان حسابه والعدول عن خطة استغلاله والسيطرة عليه؛ ومن جانب الدين، لأنهم حائرون في شئونهم الروحية يلتمسون الهداية من مهبط الأديان، أو يقابلون بين سلطان الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم؛ ومن جانب التجارة، لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغني عن أسواق الشرق ومنابع الثروة فيه؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف مواقع التاريخ القديم، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين في مسألة عامة

ومن الباحثين الصحفيين المشغوفين بالمسائل الروحية (روم لاندو) صاحب كتاب (الله محجة مغامراتي)، وصاحب هذا الكتاب الذي عنوانه (البحث عن غد)، وموضوعه استطلاع أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحت والنهضة الصناعية الاجتماعية التي تقابل نظيرتها في الأقطار الغربية

حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة ولخص هذه الأحاديث في كتابه، وسنعرض لها جميعاً، ونبدأ بنقل حديثه مع رئيسي الجامعتين الأزهرية والمصرية، حيث قال بعد تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى المراغي وقد زاره في بيته بحلوان:

(سألني: هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم في نظري أجبته بشيء من الروغان: كلاهما؛ إلا أنني أشد عناية بما وراء الطبيعة

فقال الشيخ العلامة: قليلة المحصول، قليلة المحصول جداً

وكانت لهذه الكلمة دلالتها، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت في أكبر رعاته بين المصريين

ومع علمي بعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغي أنه يتنحى عن الجواب في كثير من الأحيان، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة، وحرص من التورط في التصريح، فهو في البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لا مراء

وعدت أقول: لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات (التفكير الحر) ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم. فهل صحيح ما سمعت؟

فقال الشيخ: (لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس؛ إذ ليس في القرآن ما يعارض الحقائق العلمية، ولا تناقض بينهما في شيء

وأردت أن أخوض فيما أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت: ألا ترى أن العنصر الروحي - أو الغيبي المتصل بما وراء الطبيعة - هو أهم العناصر في الديانات؟

قال الشيخ في سكينة ولطف: من ذا الذي يعلم كنه الله وكنه الروح؟ إن بعض أساتذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة، وبعضهم يتحدثون عنها كأنها وهم أو فرض مفروض؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين، فإن القرآن لا يفصل بين القولين، ولكنه يحكم حكمه في أمور شتى كأمور الزواج والمواريث والمعاملات

فسألته: وماذا تقولون في قبول العلماء لنظرية قدم المادة؟

ولا ريب أن الأستاذ المراغي لم يكن يتوقع قط أنني علمت شيئاً عن هذه القضية، إلا أنه لم يظهر الدهشة، ولم يبد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التي لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ما وراءها من قلة الاكتراث. فقد انبعثت الحياة من خلالها وقال:

(إنك لم تقع على الخبر الصحيح في هذه القضية، فليس هناك إلا أن عالماً كتب رسالته في علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده)

فبادرت قائلاً: ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان في هذه القضية؟

فابتسم الشيخ المراغي وهو يقول: (إن رأياً كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة، وما كان أحد ليجسر على تقديمه في جامعة إسلامية. فما أعظم التغير في أطوار الزمان! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسماحة)

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية

والشطط في الدعوات الفكرية، وسجل رأي الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هي الدين وتعليم الإسلام على أصوله

أما حديثه مع صاحب المعالي أحمد لطفي السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته العصرية، ثم استهله بهذا السؤال:

(ما هي أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها في رأيكم خلال القرون الأربعة التي خضعت فيها للحكومة التركية؟)

فأجاب وأصابعه النحيلة تعبث بحبات المسبحة العاجية: (إنما هي عمل الجامع الأزهر في جميع الكتب الفقهية)

فقلت: ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة في عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شيء من ضيق النطاق؟

فرفع لطفي باشا حاجبيه هنيهة واضطرني بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا:

(إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب (تجريدي)... فإذا كانت العبقرية القومية لا تخرج في مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة)

فسألني: ماذا تعني بالتفكير التجريدي؟

قلت: إن التفكير الإنجليزي مثلاً واقعي مجار للحوادث، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض في حينها، وهو من ثم نقيض الفروض النظرية والمباحث الجدلية. أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد المرسومة والنظريات المعلومة؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية، لا يحتوي صورة من صور الحياة الماثلة في بنية الإنسان وملامح وجهه، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط...)

قال لطفي باشا وهو يشفع كلامه بابتسامة معتذرة:

(آسف لأنني لا أستطيع مجاراتك في حكمك. فالذي يبدو لي أن الفكر العربي أشد إيغالاً في الواقعيات من الفكر الأوربي. وهذه شريعتنا الدينية التي استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال في الشريعة المسيحية؛ وهي تفيض بالوصايا في أمور المعيشة والزواج والميراث وما شاكل ذلك. وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس (مخيلة) الأمة كما تتمثل في ديانتها. فكيف ترى (المخيلة المسيحية) نتصور السماء والفردوس؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير ذي أشكال، أو هي شيء لا يسعك أن تراه ولا تقع عليه العيون، بل شيء لا يسعك أن تحيط به في الخيال. أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء؟ إنها دار حقيقة فيها اللبن والعسل والعسجد، وفيها الأزهار والأشجار والحور العين، وهي كلها حقائق ومشاهدات... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق المخيلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين في (ميدان سلبي) حين يتكلمون عن الجحيم؟ ففي هذا الميدان ترسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هي صورة النيران والنفط الغالي وعذاب الأجساد

قال الكاتب: فأحجمت عن الجهر بملاحظة سنحت لي تلك اللحظة، وفحواها أن المبالغة في تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور في ملكة البناء والإنشاء الواقعية، وآثرت أن أسأل:

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية؟

فأجابني الباشا: (فعالة على الأرجح في عالم الإسلام أعظم من فعلها في عالم المسيحية، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن؛ ومن العسير في البلاد الإسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية)

قلت: على أنني قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون عقائد آبائهم جنوحاً منهم إلى البدع الغربية

قال: أعجب لو صح ذلك... فلعلهم لا يغشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع، ولكنهم على الجملة متدينون، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألحدوا في الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته: أيعنى المصريون عناية ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبحات الصوفية؟

قال: (ذلك نادر في (فلسفتنا الحاضرة). غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان في مفتتح الحياة؛ وينبغي ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركي قد عطلت ثقافتنا وتركتنا نحاول من جديد

فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته: (وهل بعد انقضاء السيادة التركية أو السيادة الإنجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية؟

فرد الباشا جازماً: أما سياسياً فلا، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة؛ أما من الوجهة الثقافية فهي ممكنة، وهي على ازدياد في جوانب الشرق الأدنى؛ ولكنها ليست بالسياسة، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعة سياسية اختراع نَجَم في الصحافة الإنجليزية على ما أذكر، ولا يحضرني اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتيمس كان يراسلها من النمسا قبل أربعين سنة

وتنقل الحديث في بعض الموضوعات الشرقية ثم سأل الكاتب: ما ظنك في حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توصد ما بين المصريين وسائر العالم، وتجتهد في إبدال كل مصري بكل أجنبي؟ أتؤمن بإمكان هذه العزلة؟

قال الباشا: الحق أنني لا أومن بذلك؛ ولعل محدثيك قد أخطئوا التقدير، فإن الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة. ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال. إن الأستاذ الإنجليزي يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه في العام، وليس ذلك بالميسور لنا إلا فيما ندر.

وانتهى الحديث بعد تعقيب موجز في هذا الموضوع، وسنعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها في مقال تال.

- 2 -

أجملنا في المقال السابق حديث مؤلف الكتاب مع الأستاذين الكبيرين شيخ الجامع الأزهر ومدير الجامعة المصرية

وقد تحدث المؤلف إلى فئة من المصريين النابهين غير الأستاذ المراغي والأستاذ أحمد لطفي السيد فقال عن الدكتور حافظ عفيفي باشا إنه أول سفير مصري في بلاط (سان جيمس) وإنه طبيب أطفال مشهور، وكان وزيراً للخارجية في سنه 1928 وله مكانة عالية لبعده عن التحيز ووقوفه موقف الحيدة، واطلاعه الواسع في شؤون الثقافة المصرية

قال المؤلف: (ولما أخبرته بزيارتي للشيخ المراغي قال: إنني عظيم الإعجاب بالشيخ المراغي، وهو عندي اصلح الرجال في وقتنا هذا لقيادة حركة الإصلاح في التعليم الديني. وقد ترك الطلبة هناك عادة الجلوس على الحصير واصبحوا يجلسون على الكراسي، وتعودا أن يضموا الكتب على المناضد بدلاً من وضعها على الركب! وهذا كل ما هنالك من الصبغة العصرية الحديثة. فهي لم تتجاوز ذلك إلى أساليبهم وأنظمتهم ولا إلى روح تعليمهم ودراستهم، ولا يزال الأزهر حتى اليوم معنياً بالمراسم الدينية والآراء الجدلية.

والشبان يضيعون هناك سنوات غالية من أعمارهم كانوا خلقاء أن يتعلموا فيها أموراً انفع لهم ولبلادهم على التعميم. أما مدارسنا العصرية فهي على نقصها لا تني تتقدم تقدماً مطرداً في سبيل التفكير العلمي الملائم لزماننا، وهذا في حين أن الأزهر لا يزال على سنة القرون الوسطى علماً وعملاً. ومن تقاليده أن يقع الاختيار على معلميه من بين تلاميذه وطلابه المتخرجين فيه، وسيظل متخلفاً ما داموا مصرين على هذه التقاليد. ولا رجاء لنا في نهضة روحية صحيحة من جانب الدين ما دام المعلمون الدينيون بيننا ينشئون على غير النشأة المستنيرة التي ينشأ عليها الأساتذة الآخرون)

قال المؤلف: فسألته: ولماذا تحسب أن هذه النهضة الروحية ضرورية؟

فقال: لأن الفلسفة المستقرة وراء الحياة المصرية لا بد لها من آساس روحيه، ولا تقوم هذه الآساس إلا على الإسلام؛ وينبغي أن تقوم على إسلام صريح لا خرافة فيه. وإنما أعني بما أقول أن تربيتنا الدينية يجب أن تكون على طبقة من الاستنارة تضارع تربيتنا في الثقافة العامة. وقد جاءت قوة الإسلام الدافعة في عصره الذهبي من حقيقة واحدة: وهي أنه كان ديناً جد بسيط وجد واضح، خلوا من التعقيد والإبهام، فأخرج للدنيا ثقافة رفيعة، وحول القبائل المتبدية في فترة وجيزة إلى أمم متحضرة تعيش عيشة المدينة. ولا بد للإسلام في نهضته المقبلة من قيادة اتباعه مرة أخرى إلى الحضارة الصحيحة؛ ولن يتسنى له ذلك إلا إذا اطرح الآراء الجامدة العتيقة والتجريدات المتخلفة من عقائد القرون الوسطى وليست هي من جوهر الدين في شيء. عندئذ - وليس قبل هذا - يعود الإسلام وهو تلك القوة الروحية التي تفتقر إليها البلاد أشد افتقار

فعاد المؤلف يسأل الباشا: وما هي إذن مسألة الغد في مصر المقبلة؟

فأجابه الباشا: مسألة الغد هي التعليم ثم التعليم كرة أخرى. وعلى أساتذتنا الدينيين والعصريين معاً ألا يقصروا تربيتهم على اقتباس العلم وحده، بل يضيفوا إليه اقتباس الخلق والتهذيب. وعليهم أن يردوا الشعب إلى فضائل الشجاعة والصدق وحب الخير وحب الفن والمعرفة، ونظافة العقل والبدن، وهي الفضائل التي كانت مبعث القوة في الإسلام. وعلى شبابنا المتعلمين وهم أشباه متعلمين أن يذكروا أبداً أن

الأمة من الأمم لا يجوز لها أن تنعت نفسها بالتحضر والمدنية ما عاش أبناؤها على تلك الحالة المحزنة التي يعيش فيها الفلاحون، ولا تغيير لها قبل انقضاء زمن مديد في التثقيف والتهذيب)

وسأله المؤلف: أيوجد في مصر أناس عندهم من البصيرة والشجاعة الأدبية ما يتطلبه التصدي لإصلاح البلاد والجهر بحاجاتها؟

قال الباشا: نعم. هناك أناس من هؤلاء، واذكر لك على سبيل المثال أسماء أصدقائي لطفي السيد وحسين الهيكل ومصطفى وعلي عبد الرازق وطه حسين

وهنا أنتقل المؤلف إلى رواية الحديث الذي جرى بينه وبين الدكتور طه حسين، وقد بدأه الدكتور بكلام يدل على تغير الشبان من الوجهة الدينية

فسأله المؤلف: أترى أن الدين لا يدخل عندكم في حياة الشباب؟

قال الدكتور: على النقيض. إن له لدخلا في حياتهم، لأن للشباب تناقضاً معروفاً، ومن تناقضه عندنا مسلكه في أمر الدين، فالشبان المصريون في مقاومتهم للنفوذ الأجنبي، وفي شعورهم الوطني يصدرون عن عقائد آبائهم وتقاليد أسلافهم. ولم هذا؟ لأن القرآن في الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد الذي يقاوم عليه بناء أمة؛ وقد اصبح شبابنا العصريون في حياتهم الدارجة شعبة صغيرة منقطعة عن سائر الأمة. إلا أنهم يجدون أنفسهم في القرآن على ملتقى واحد مع كل فلاح وكل بدوي في الصحراء؛ وهم - باعتمادهم على القرآن - يهيئون لسواد الجماهير أن يحالفوهم في المعركة السياسية، وإنما يأخذون من القرآن أسلحتهم السياسية ولا يستمدون منه عتاد الروح)

فقاطعه المؤلف سائلاً:

وما هو موقفهم إذن من الناحية الروحية؟

فأجاب الدكتور: (أما من الناحية الروحية فهم واقفون في العراء. لم يهضموا فلسفتهم العقلية الحديثة لأنهم تلقوها في الغرب بعقولهم ولم يشركوا فيها قلوبهم وضمائرهم، ولكنهم قد انحرفوا عن جادة آبائهم فهم بمعزل عن كل مَعْلم من المعالم الروحية، وإن كان هذا لا يعني أنهم بمعزل عن الدين في آمالهم ومخاوفهم)

فسأل مؤلف الكتاب: أتحسب إذن أنهم يثوبون إلى الدين في أزماتهم الحاسمة؟

قال: فضحك الدكتور طه حسين وقال: هذا ما أعنيه تماماً، فقبل الدخول إلى مشرحة الجراح، وقبل الدخول إلى حجرة الامتحان، يثوب المتطرف منهم في الإيمان بالعقل إلى الإيمان بقوة فوق متناول التفكير، أو بقوة تعين الجراح وتلهم الأستاذ الممتحن وتوحي إلى المسئول كيف يجيب، ويعود فجأة إلى اسم الله...)

وبعد مناقشة في رأي الشيخ المراغي وفيما يحسن بالرجل العصري أن يتخذه من موقف في أمور الدين ختم الدكتور حديثه قائلاً ما معناه: إن المصريين فرديون متفرقين، ولكنهم في المجتمع منساقون مسلسون

وبين الكبراء الذين حادثهم (روم لاندو) علي ماهر باشا واحمد حسنين باشا قبل أن يندب الأول لرآسة الديوان الملكي

فكانت خلاصة الحديث الذي أفضى به علي ماهر باشا أن الشعور الوطني قد طغى بعد الحرب على كل شعور آخر، وأن الجيل الحديث سيعود كرة أخرى أدراجه إلى حظيرة الدين، وأن أناساً من أبنائه يتعطشون - حتى في هذه الآونة - إلى مورد للدين يكشفونه بأنفسهم لأنفسهم وإن كانوا لا يزالون قلة بين المجموع.

قال علي باشا: (نحن عرضة لكثير من الأفكار، وفي الحياة المصرية حركات كثيرة النقائض والأضداد، والعلم بالنتائج مستحيل. إلا أنني أحسب أننا على حق حين نرى أن النزعة الدينية أقوى في طائفة من الجيل الحديث مما كانت قبل بضع سنوات)

وسأل الأستاذ لاندو: (ماذا يصنع الآن لتحويل الوجهة التي كانت منصرفة كلها إلى الناحية السياسية؟)

فأشار علي باشا إلى الخطة التي أعدها حين كان على رأس الحكومة لإنشاء معسكرات في أرجاء البلاد يتعلم فيها الشباب الرياضة والأخلاق الرياضية ويأوون إليها في كل شهر أربعة ايام، ويتلقون فيها دروساً ومحاضرات عامة في علم الاجتماع وشؤون الثقافة ومعارض التاريخ

ولما سأله المؤلف عن مصير هذا الاقتراح، قال: إن الوفد أبطله حين تولى الحكومة. وعقب المؤلف قائلاً: (إن من تقاليد السياسة المصرية - أو السياسة في معظم الأقطار الشرقية - أن الحكومة الجديدة تبطل ما استطاعت من أعمال الحكومة السابقة

ثم سأل: (ولكن الوفد له هو أيضاً مقترحاته للسمو بالجيل الحديث وتحويل جهوده. أليس كذلك؟ فقد سمعت بالعناية المبذولة في الألعاب وضروب الرياضة!)

قال الباشا: نعم. إلا أن النظام الحاضر يجعل باله قبل كل شئ إلى إنجاب (الأبطال) الذين يحرزون الجوائز في المباريات الدولية ولا يعطى الجمهور نصيبه من الرعاية، ولا يلتفت إلى الأخلاق كما يلتفت إلى الأبدان. وما كان التعليم المتجه إلى إحياء الحاسة المدنية الاجتماعية يوماً من الأيام شاغلاً ينفع الأحزاب السياسية في غايتها من الدعاية، فلا سبيل إلى هذا التعليم إلا على أيدي حكومة غير حزبية أو حكومة قومية)

أما أحمد حسنين باشا فقد بدأ الكلام معه على تعليم صاحب الجلالة الملك فاروق. ثم استطرد إلى السماحة الدينية ومذهب الباشا فيها؛ وهو مذهب يشبه مذهب محي الدين بن العربي. وقد كانت لرحلاته في الصحراء يد قوية في هدايته إلى تلك الطريق الروحية

سأله الأستاذ لاندو: لقد أخبرت أن الملك يؤدي جميع فروض الصلاة بانتظام، فهل تعتقد أن صاحب الجلالة ذو سليقة دينية؟

فقال الباشا: (أعتقد ذلك. وقد قال لي منذ أيام فجأة خلال الحديث: إنه يشعر براحة حقيقية في الصلاة. وهذا شئ جدير بالتنويه والملاحظة من شاب يقوم بأعباء الملك في سن الفتوة، ولا سيما وصاحب الجلالة غير مطبوع على الانزواء أو الخيالات العاطفية، ولكنه نشيط إلى الرياضة لا يميل إلى النزعات الخفية الغامضة، وهو يحمل مصحفاً صغيراً لا يفارقه؛ وأعلم أنه شديد الحب له والإيمان به)

وسنعود في المقال التالي إلى التعقيب على أمثال هذه المباحث التي يتصدى لها بعض السائحين، والى بيان الحقيقة فيما يلمحونه أو يخيل إليهم أنهم يلمحونه من دلائل الحياة الروحية وبواعث التغير والتجديد فيها.

- 3 -

كان مستر (روم لاندو) على صواب في اهتمامه بالناحية الروحية من حياة الشرق الأدنى في العصر الحاضر؛ وقد أحسن تعليل هذا الاهتمام حين قال في مقدمة كتابه: إن الشرق الأدنى هو الذي رسم للعالم الإنساني مجراه في طريق الحضارة والتهذيب. فلو خلت الدنيا من ثلاث (قارات) كاملة لما تغيرت ثقافتها الروحية إلا قليلاً، ولكنها لو خلت من أمم البقاع المحصورة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر والخليج الفارسي، لكانت أديانها غير هذه الأديان، وآدابها غير هذه الآداب، وثقافتها غير هذه الثقافة، ومعاني الحياة والمثل العليا فيها غير ما نعلمه من معانيها ومثلها العليا في عصرنا الحديث

قال: (نعم حدث في القرن الخامس عشر بعد كشف أمريكا وإخراج العرب من الأندلس أن المحور قد تحول نحو الأقطار الغربية، ولكن الأمر لم يحتج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لاتجاه (الرقاص) إلى الشرق من جديد. وجاءت حملة نابليون المصرية وما وراءها من آماله في الهند وما نجم عنها من كشف الحضارة المصرية التي طال العهد بنسيانها فأنشأت عهداً جديداً له شأنه وخطره في بلاد الشرق الأدنى)

ونحن الشرقيين يحق لنا أن نغتبط بما لبلادنا من الشأن الحاضر أو المنظور في حياة العالم الروحية، ولكننا خلقاء ألا ننظر إلى الأمور بالعين التي ينظر بها الغربيون، فإنهم يبالغون ولا ريب في استضعاف شأن الحياة الروحية كما يرونها في أنحاء أوربا وأمريكا، لأنهم سئموها وعالجوا أكاذيبها ومواطن القصور منها، فكان استضعافهم إياها داعياً إلى التحول بالرجاء إلى غيرها، وكان من جراء ذلك هذا الإقبال على مسائل الشرق الأدنى ولاسيما المسائل الروحية. وقد وجد بينهم أناس تحولوا إلى الشرق الأقصى والهند خاصة لتعليل أنفسهم بشيء من الرجاء وشيء من الثقة واليقين فهي حيرة تهديهم تارة إلى هنا وتارة إلى هناك. ولا ينبغي لنا أن نجعل هذه الحيرة مقياسنا ومعيارنا في تقويم ما لنا من قيمة، وعرفان ما لنا من وزن وأمد. ونعتقد نحن خلافاً لما يعتقده بعض الأدباء الأوربيين أن البلاد الغربية ليست من النضوب الروحي بالحال

التي يتخيلونها، وليست من الركون إلى المادة والضرورات العملية بالموضع الذي يضعونها فيه. وينفعنا نحن الشرقيين أن نذكر ذلك لأننا محتاجون إلى بقية باقية في الغرب من زاد الروح والذهن والخيال، فإذا اعتقدنا في الغرب النضوب والإقفار فلا ربح في ذلك لنا بل فيه الخسارة والفوات لا جدال لنا أن نعرف قيمتنا، ولكن ليس لنا أن نجهل قيمة غيرنا. ومن الحسن أن نحيط بما يكتبه الأجانب عنا لأنهم يرون ما يخفى علينا أحياناً من أحوالنا وخطواتنا لفرط الألفة وتكرار النظر بغير انقطاع، كما يعرف المسافر العائد إلى أبنائه كم طالوا وكم كبروا وهو لا يلتفتون إلى ذلك. ولكن المرجع إلينا آخر الأمر في الشعور بحقيقتنا، والنفاذ إلى سريرتنا، والمقابلة بين أمسنا وغدنا. ولا ضير في قليل من الثقة - بل قليل من الغرور - يزيد على المقدار، فإن المبالغة في الثقة خير من المبالغة في فقدها على كل حال

وصاحب كتاب (البحث عن غد) رجل يشعر بالإسلام والشرق الأدنى شعور المودة والترفق، ولا يتعصب عليهما أو يتعصب لأعدائهما. فهو من ثم غير متهم في مقاصده ونياته، وغير بعيد عن أسباب الفهم الصحيح والحكم العادل، ولكنه ينشد الحقيقة على طريقته العاجلة التي يتسع لها وقته في رحلاته الكثيرة، فهو أقرب إلى الأنباء الصحفية منه إلى المباحث العقلية والدروس العلمية أو الفلسفية. وهكذا ينبغي أن نتلقى آراءه وأحكامه، وننظر إلى أغراضه ومناحيه قصد البحث عن حياتنا الروحية فماذا صنع؟ ذهب إلى السفارة المصرية في العاصمة الإنجليزية وتسلم منها كتب التوصية المعهودة وأسماء الأفراد المعهودين!! ولو قيل للمستر (روم لاندو) إن مصرياً أراد البحث في حياة إنجلترا الروحية فذهب إلى السفارة البريطانية ليسألها عن وجهات الفكر والروح في بلادها لابتسم وأدرك نتيجة البحث لأول وهلة، ولكنه رجل صحفي أو شبيه بالصحفيين، فهذه أقرب الوسائل إلى إنجاز عمله وجمع المادة اللازمة لتأليفه. وكذلك كان في كتبه السابقة حيثما تناول الأقطاب الروحيين المقيمين في باريس أو لندن أو نيويورك: سبيله إليهم كسبيل الصحفيين إلى المحادثات وجمع المعلومات

لو ذهب مصري إلى السفارة البريطانية يسألها عن رجال الفكر والروح والخيال من الإنجليز لما ذكرت له اسم لورنس أو اسم موجهام، ولعلها لا تذكر له حتى اسم برناردشو ومن إليه من الأدباء الذين لا يلتزمون التقاليد ولا يدخلون في السجلات

الرسمية. وهي لا تهمل ذكرهم لأنها تجهلهم أو تستخف بأثرهم بين قرائهم، ولكنها تهملهم لأن وظيفتها توجب عليها أن تلتزم التقاليد ولا تعترف بما وراءها من وجهات الأفكار ومذاهب الضمائر

ومن المعقول أن تسأل السفارة أو وزارة الخارجية في إنجاز عمل أو الإرشاد إلى من ينجزه ويتولى تسهيله. أما الإرشاد إلى نزعات الفكر والروح، فالسفارات والوزارات لا تتولاه وإن عرفت طريقه، لأنها لا تدل على شيء إلا كان داخلاً في حدود المرسومات المحدودة، حتى لو ظهر عليه لون من الشذوذ

ولهذا لا عجب أن يتحدث الكاتب عن (قدم المادة) وما قيل عنها في الجامع الأزهر كأنه فتح جديد في تفكير المسلمين، مع أن المسلمين يعرفون مذاهب القائلين بالقدم والحدوث منذ مئات السنين. ومع أن المفكرين المعاصرين لا يحفلون بقدم المادة وحدوثها ولا يشغلهم من صفاتها شيء أهم من هذه الصفة التي تجلى عنها البحث في الإشعاع والتقريب بين المادة والقوة بهذه المثابة حتى أصبحت وكأنها معنى من المعاني وعدد من أعداد الرياضة والحساب

فلو أن (الباحث عن غد) وصل إلى الجامع الأزهر ووجد فيه البحث قائماً على اختلاف هذه الفروض في كنه المادة لجاز له هذا الدهش الذي أفرط فيه حين علم بما قيل عن قدم المادة من قول صحيح أو غير صحيح. أما الدهش لأمر تكلم فيه المسلمون قبل ألف سنة فماذا فيه من البحث عن غد؟ وماذا فيه من النزوع إلى الجديد؟

كذلك يغلو الكتاب الأوربيون على هذه الشاكلة في قياس الحركات الذهنية بما تثيره من الضجيج بين رجال الدين أو بين طلاب المعاهد الدينية. ومن ذلك مثلاً اعتقادهم أن الأستاذ علي عبد الرازق قد غير في قواعد الدين يوم قال إن الخلافة ليست من مراسم الإسلام. وما اعتقدوا هذا الاعتقاد إلا لأنهم حسبوا أن الضجة التي أثيرت حول كتابه كان مبعثها التعصب والغيرة على الدين. ولم يعرفوا الحقيقة التي يعرفها معظم المصريين، وهي أن السياسة لعبت لعبتها في هذه المعمعة من مبدئها إلى منتهاها. فلو أن الأستاذ علي عبد الرازق أعلن رأيه قبل بضع مئات من السنين يوم كان

الأمراء المصريون يسعون في إضعاف الخلافة لقوبل كتابه بالترحيب والمكافأة الجزيلة. ولو أن المسألة مسألة قديم وجديد وتغيير في الأصول الدينية لكان الأولى أن يثير من الغضب يوم ذاك أضعاف ما أثاره في عصرنا هذا، ولكنها مسألة لها موقعها من السياسة ومن مآرب العيش عند بعض الناس فكان من جرائها ما كان

لهذا نقول إن حكم الأوربيين ولاسيما المستشرقين على شؤون مصر وشؤون الشرق العربي كافة أضعف الأحكام وأبعدها عن حساب العوامل الصحيحة والبواعث الخفية، بل ربما كانت أبعدها عن البواعث الظاهرة في كثير من الأحيان. وما كتبهم في هذه الأغراض إلا طائفة من (الكتالوجات) على طراز آخر غير الطراز التجاري أو الطراز السياسي، ولكنه مثله في الجوهر وطريقة التحضير

ونخص المستشرقين بالخطأ مع أنهم أحرى أن يقتربوا من الصواب ويرجحوا إخوانهم الأوربيين الآخرين بمعرفة اللغة والاطلاع على التاريخ، إذ الواقع أن (الاستشراق) قد نشأ قديماً في بيئة التبشير ولا تزال فيه جذوره ومراميه؛ وكل ما يعني المبشرين هو مراسم الدين وتقاليد المساجد والكنائس والعبادات. فإذا نشبت مشاجرة في مسجد أو كنيسة فذلك أدنى إلى ملاحظتهم من اختلاف مقاييس الفكر ودعائم الضمير، لأنهم هم أنفسهم يعيشون في هذه البيئة وما يحاذيها من طبقات الأدب وطبقات التفكير، فهم معرضون لأخطاء أعظم من التي يتعرض لها الأوربيون الجاهلون بلغات الشرق وتواريخه الأدبية، لأنهم ينظرون مغرضين وفي أعينهم قصر وعلى أعينهم غشاوة لا تميز الحقائق ولا تنفذ إلى ما وراء القشور

وعلى هذا يصح أن نحيط بما يكتبه الأوربيون عنا لنعرف منهم ملاحظاتهم التي تخفيها الألفة والنظر المتكرر إلى المتواتر من أحوالنا، ولا يصح أن نقوم آراءهم وأحكامهم بأكبر من هذه القيمة أو نسومها بغير هذا السوام .

الإصلاح المنشئ والإصلاح الآلي

الإصلاح اصلاحان: منشئ تسيطر به الإرادة على العوامل الخارجية، وآلي بعيد من هذه السيطرة لأنه يبدأ بالتسليم وينتهي بالتسليم، وينقاد للعوامل الخارجية في الأساس والجوهر، ولا يجترئ على مخالفتها وتعديلها إلا فيما هو عرض من الأعراض.

الإصلاح في الحالة الأولى مسألة حية أو مسألة نفسية والإصلاح في الحالة الثانية هو مسألة عدد أو مسألة تطبيق حسابي قلما تشترك فيها الإرادة الإنسانية إلا بالمقدار الضروري الذي لا يمكن منعه، لأن تجريد الأعمال الإنسانية من إرادة وشعور كل التجريد أمر لا يستطيعه الإنسان، إذ هو مستحيل

مثال ذلك فندق في مدينة يراد إصلاحه واستحداث نظام غير نظامه فعلى قواعد (الإصلاح الآلي) كل ما يفكر فيه المصلحون أن يعرفوا أن أثاثه قديم فهو محتاج إلى التغيير، وتلك معرفة لا تفتقر إلى ابتكار عظيم وأن يعرفوا أن عدد النازلين به يزداد فهو محتاج إلى بناء جديد فيه كذا من الجوانب وكذا من الحجرات، وتلك معرفة أرقام وتطبيق حساب وأن يعرفوا أن الخدم مقصرون أو قليلون، ومن السهل أن يصل الإنسان إلى هذه المعرفة بغير قدرة على الإنشاء والاختراع

أما الإصلاح على قواعد الإنشاء والاختراع فهو يتناول فن البناء وموقع الفندق وموافقة الإضاءة والتهوية لأحدث الكشوف العلمية، ودراسة النفوس وما تهواه من منظر ورياضة وطعام وأساليب في الخدمة، وإقداما على سبق جميع الفنادق الأخرى في المرغبات والمحسنات، وتفكيراً في ترجيح المدينة كلها على المدن المرتادة للسياحة والتفرج والاستشفاء، لا يقتصر على انتظار السائحين والمتفرجين والمستشفين حتى يصلوا بحكم العادة إلى المدينة، فيجدوا الفندق الذي لا بد أن يجدوه

كل إصلاحنا نحن ينحصر في القواعد الآلية، ولا يجترئ على جانب الابتكار والاقتحام إلا من بعيد، وبعد فوات الأوان.

وقد ألقيت من يدي كتاب (على هامش السياسة) لمؤلفه صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا, وأنا أضيف مثلاً جديداً على الأمثلة العديدة التي ترجح ما أقول.

قرأت فيما قرأت من هذا الكتاب فصل التعليم الجامعي فإذا بالإصلاح المنشود ينحصر:

(أولاً) في أن يجد جميع من أتم سلسلة من حلقة هذه الدراسة المكان الذي يطلبونه في السلسلة التالية، بمعنى أنه يجب أن توجد محال كافية في المدارس الثانوية لمن ينتهي بنجاح من الدراسة الابتدائية، وأن يجد من ينتهون بنجاح من الدراسة الثانوية الأمكنة اللازمة لهم في المدارس العالية مندمجة في الجامعة أو منفصلة عنها الخ الخ.

و (ثانياً) في إيجاد التناسق المرغوب فيه بين أجزاء التعليم فلا تنشئ مدرسة ابتدائية أو ثانوية من الآن إلا بعد أن تنشئ عدداً من المدارس العالية الخ.

و (ثالثاً) يجب أن يراعى في هذا التعليم بجميع أجزائه ألا يزيد عدد الفرقة عن الحد المعقول الذي يسمح للمدارس بمراقبة سير تلاميذه، والذي يمكنه من متابعة الإشراف عليهم وتعهدهم وإدراكه مواطن الضعف والقوة في كل منهم.

و (رابعاً) ألا يزعج التلاميذ والمدرسون بنقلهم من بلاد إلى أخرى لتمضية الامتحان في حرارة الصيف المحرقة حيث يحشرون في أماكن تقام للضرورة تحت الخيام الخ.

وقس على ما تقدم سائر الإصلاحات المنشودة في نظام التعليم الجامعي وما يترقى إليه من تعليم المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية.

أي إنه إصلاح (ضابط) أو رئيس ضباط في مدرسة واحدة أو مجموع مدارس مختلفة، وليس بإصلاح سياسي يضع البرامج وينشئ العقول والنفوس.

انتقل من مشكلة التعليم الجامعي والتعليم كافة في نظر سياسي مصري إلى هذه المشكلة بعينها في أنظار الساسة الأوربيين، واجتهد أن تقيس المسافة الشاسعة التي تفرق بين النظرتين.

مشكلة التعليم في الغرب هي: هل يتعلم الشاب على أساس الحرية الفردية، أو على أساس غلبة الدولة وانغماس الفرد في الأمة أو في الهيئة الحاكمة؟ فإذا تعلم على أساس الحرية الفردية فالنتيجة تشمل كل نظام في الأمة من حقوق دستورية، وحقوق اجتماعية وطموح إلى النقد، وقدرة على المخالفة، وإيمان بالتقدم والفكر الإنساني والمناقشة العقلية.

وإذا تعلم على أساس غلبة الدولة، فالفضيلة الكبرى هي الطاعة والإذعان والإيمان بعصمة القادة، وأن التقدم الإنساني وهم من الأوهام، وأن القوة هي السلطان الأعلى في الزمن القديم وفي الزمن الحديث، وأن التواريخ والآداب لا ينبغي أن تفهم ولا أن تدرس إلا على هذا الاعتبار.

مشكلة التعليم في الغرب هي: هل يتعلم الشاب على دين العصبية الوطنية والغلو في تمجيد الذات وتغليب الوطن على جميع الأوطان، أو يتعلم الشاب على دين المعاونة الإنسانية والعقائد التي تمثلها عصبة الأمم ويبشر بها دعاة الوحدة العالمية

مشكلة التعليم في الغرب هي: هل يتعلم الشاب على اعتقاد أن الآداب والفنون والأديان هي ترجمان طبقة واحدة أو سلاح طبقة واحدة في حرب الطبقات، أو يتعلم الشاب على اعتقاد أن الآداب والفنون والأديان هي ثروة بني الإنسان جميعا من قديم الزمان، وستظل ثروتهم جميعاً إلى آخر الزمان.

تلك هي مشاكل التعليم الحقيقية أو هي بعض مشاكله الكثيرة في العهد الحاضر، وليست هي عدد الفصول وعدد المدارس والمدرسين وأماكن الامتحان

ومشكلة الامتحان عندهم ليست هي الخيام التي تقام أو لا تقام، وإنما هي البحث في الوسيلة الصحيحة لاختبار الملكات الذهنية والنفسية: هل هي بالسؤال والجواب، أو هي بالملاحظة الطويلة في أثناء العمل، أو هي بالاختبارات (الإيحائية غير المباشرة) التي تكشف القوى الكامنة دون سؤال صريح في ظاهر الموضوع.

وقبل أن يصلوا إلى مشكلة الامتحان تقوم مشكلة أخرى وهي مشكلة المواد التي يجري فيها الامتحان وتقسيم الدارسين على حسب تقسيم الدروس. فهل العقول الإنسانية لا تنقسم إلا إلى عقل عالم وعقل أديب! أو هناك أقسام شتى يدخل فيها

العقل الفنان، والعقل الصنع، والعقل الإداري، والعقل المشارك في المداورات الاجتماعية الذي يربح بحسن الدخول بين الناس مالاً يربحه أعلم العلماء ولا أبرع الأدباء بالنجاح في ميادين العلوم والآداب؟

وهل حتم على العقول الإنسانية جميعاً أن تتذوق الرياضة والجغرافيا والكيمياء وإلا كانت ناقصة معيبة، أو هناك عوالم للتفكير والشعور وراء الرياضا والجغرافيا والكيمياء، وهناك عقول تصلح لهذه العوالم وإن كانت لا تصلح لما عهدناه من برامج الدروس تلك أيضاً بعض مشاكل التعليم التي تدخل في نطاق من يصلحون البرامج وينشئون الأفكار، ولكنها لا تدخل في وظيفة الضابط أو كبير الضباط.

أذكر أن إصلاح التعليم العالي عرض للبحث منذ سنتين، فكان بعض المصلحين (على الترتيب والتعقيب وخط المسطرة والبركار) يقولون إننا نبدأ بالتعليم الابتدائي حتى نعرف ما نحتاج إليه في المدارس العالية، كأنما المسألة مسألة بيت يبني الدور الأرضي منه قبل أن تبني الأدوار العليا، أو كأنما المسألة مسألة طريق لا تصل إلى الميل الثاني منه قبل أن تجتاز الميل الأول، أو كأنما هي أعمار لا تكون في الثلاثين إلا بعد أن تكون في العشرين، وهي ليست بهذه ولا هذه ولا تلك، وإنما هي مسألة غاية ترتب عليها البداية وتعرفها قبل أن تخطو خطوة واحدة في طريقك إليها؛ ومن ثم وجب أن تبدأ بالتعليم العالي ثم تعلم التلاميذ في المدارس الابتدائية وفي المدارس الثانوية ليستعدوا له وينتهوا إليه؛ ولا ضرورة على الإطلاق لانتظار السنة الأولى الابتدائية وأنت تفكر في تقرير المناهج الجامعية، وإنما هي ضرورة وهمية عند من يمشون على المسطرة ولا يخرجون على الترتيب المرسوم!

علينا أن نصلح المصلحين ونداوي أطباءنا وليس هذا بميسور أو علينا أن نكسر المسطرة القديمة ونترقب نوازع الاقتحام في الجيل الجديد وإن طاشت في بداية اقتحامها، وذلك أيسر الأمرين.

سحر الصحراء

السحر هو أن يختار الإنسان الشيء وهو مرغم على اختياره، فهو مزيج من حكم الإرادة ومن حكم القضاء .ليس بسحر أن نختار الشيء ونحن قادرون على تركه . وليس بسحر أن نرغم عليه ولا رغبة لنا فيه

إنما السحر أن ترغب في الشيء حتى نحاول أن نكف عن الرغبة فيه فنعلم يومئذ أننا غير أحرار، وأننا مسحورون أو مأخوذون. وإنما السحر أن نحسب أننا مكرهون على ذلك الشيء وأننا نضجر منه ونتململ ونفرح بالخلاص، حتى إذا أوشكنا أن نخلص منه علمنا أننا نكره الخلاص كما نكره البقاء .

وحيثما وجد السحر وجدت الحيرة في أمره. فإذا فتن الرجل بالمرأة وحار الناس سائلين: والله ما ندري ما يفتنه منها فذلك هو السحر.

وإذا أقدم الرجل على الخطأ وهو يعلم أنه خطأ ويعلم أنه مدفوع إليه غير مختار في الرجوع عنه، حائر فيما يدفعه إليه كما يحار من حوله في سر اندفاعه، فذلك هو السحر, وقوة السحر أنه هو قوة الإنسان وقوة القضاء مجتمعتين، متحدتين، سائرتين في طريق واحد. فإذا تنازعتا فذلك هو ابتداء الخلاص منه أو ابتداء بطلانه وانحساره، ولو كان لا ينحسر إلا بهلاك المسحور.كذلك سحر الصحراء

تسأل لماذا يسكنها أبناؤها؟ وتسأل لماذا يألفونها وهي جرداء خاوية تلهبهم قيظاً في الصيف وتجمدهم قرة في الشتاء، وتظمئهم وتجيعهم إذا امتنع الغيث وهو كثير الامتناع مجهول المواعيد مكذوب الوعود؟

والصحراء - بعد - ساحرة لأنك تسأل هذا السؤال، فلو أنك استغنيت عن سؤاله وعلمت سبب هيام البدوي بقفاره وجباله لما كان ثمة سحر ولا ساحر، ولا باطن للأمر غير ما فيه من ظاهر، بل هو شيء يجري في مجراه، ولا يلتبس عليك أصله ومغزاه لماذا يشرب الماء ويأكل التمر ويستجيد الهواء حيث يجود، وينعم بالصيف والشتاء حيث تهيأ فيهما النعمة، ويفعل ما ينبغي أن يفعل، ويسأل وهو لا ينبغي أن يسأل لماذا؟

أتسأل لماذا؟ إن هذا لهو العجب الذي يحوجنا إلى استفسار، وليس هو هيام البدوي بالصحراء حين تكون على ما نهواه نحن ويهواه كل إنسان عرفت الصحراء منذ الطفولة؛ واحسبني ورثت عرفانها في دماء الآباء والجدود؛ وقاربت حدودها وشارفت أعاجيبها وهي مما يظهر على حافتها في بعض الأحايين .

فعند ضاحية أسوان خيام يسكنها بعض البجاة، وكان على الجانب الشرقي منها بناء مسوَّر في وسطه فضاء فسيح، وفي وسط الفضاء خيمة يأوي إليها صاحبها ولا يأوي إلى ما بني من حجارة وحجرات، ونحن نحسب أن الإنسان لا يأوي إلى الخيمة إلا لقلة البناء. فها هو ذا رجل يؤثر الخيمة والبناء في وسعه وعلى مقربة منه: هنا بدأت في العجب في أمر الصحراء ونقائض أبناء الصحراء. ثم قرأت أن للصحراء سحراً فحسبت أنني وقعت على السبب وأبطلت العجب، ولم أدر يومئذ أن كلمة (السحر) إنما هي تلخيص الأعاجيب التي لا نفقه أسبابها، وليست هي بتفسيرها ولا بالدليل على إدراكها وتعليلها، ومضيت من ثم في سؤال الصحراء عن مفتاح سرها، وفي علاج الباب الذي أنكره ابن من أبناء الصحراء حيث قال:

ما إن سمعت ولا أراني سامعاً ... أبداً بصحراء عليها باب!

وكل صحراء عليها باب، وعلى بابها مفتاح، وهذا هو المفتاح الذي بحثت عنه فاهتديت بعض الهداية، ونفذت إلى بعض الإغلاق.

كل صحراء عاش فيها الرعاة فإنما كان أجدابها على التدريج بعد أزمان طوال تبدلت فيها طبيعة الأرض والجو، فندرة الأمطار بعد كثرة، ويبست المروج بعد نضرة، وقلت الأرزاق بعد وفرة، ثم أجدبت بعد ذلك إلا من قليل زرع هنا وقليل ماء هناك، وأهلها مع هذا قادرون على تعويض ما فقدوه بالإغارة على جيرانهم من سكان الحواضر وأصحاب الأنهار والمزارع، حيث تأصلت عادة المعيشة، وتمكنت طبيعة الترحل، واستقامت البنية على هذه العادات والطبائع فجاءت ضرورة الانتقال بعد استقامة الطبيعة على هذه الأحوال، وفعل سحر الوراثة فعله غير مفطون إليه ولا مقدور على منعه، فكان منه ذلك القيد الذي يربط صاحبه في مكانه برضاه وهواه، ويلوح للناظرين كأنما يربطه هنالك على غير رضاه ولا هواه

وتنازع أبناء الصحراء حين قلت خيراتها فغلب الأقوياء منهم ضعفاءهم على جانب الخصب والري والرخاء، وتراجع الآخرون إلى جانب القفر كارهين حتى ألفوه طائعين، فذلك مع الوراثة هو السحر الذي يمتزج فيه الإكراه بالاختيارعلى أن الوراثة - أو الألفة - عقدة واحدة من عقد السحر الكثيرة في كل صحراء، ولا سيما الصحراء التي هي أوفى إلى الجدب والخلاء، فمن عقدها ما يشبه التنويم المغناطيسي، ومن عقدها ما يشبه الخمر، ومن عقدها ما يشبه الشعوذة ولعب الحواة؛ وهذه عقد قلما يجمعها سحر واحد في نسق، فإذا اجتمعت فأخلق بفعلها أن يطغى على صواب العقول

ينام الإنسان النوم المعروف بالمغناطيسي إذا أتأر نظره إلى الشيء الواحد لا يتحول الشيء عن مكانه ولا هو يتحول عنه بنظره. وتنقضي هنيهات على ذلك فيخدر الحس وتشتمل عليه حالة من حالات الغيبوبة، وتنقاد الواعية لذلك الذي نومها هذا التنويم انقياد المعبود للعابد أو المفتون للفاتن، ملكها وملأها فلا مشيئة لها معه ولا فراغ لها من وحيه وسلطانه. فماذا تصنع الصحراء بالذي يدمن النظر إليها إلا أن تنومه هذا التنويم وتشمله بمثل تلك الفتنة وتقوده بمثل ذلك القياد!

أنه لينظر إلى مائة شيء فيها فإذا هو ينظر إلى شيء واحد لتشابه المناظر وتقارب الألوان والهيئات؛ وأنه لينتقل ميلاً بعد ميل وساعة بعد ساعة وكأنه قائم في موضعه لا يتزحزح منه قيد خطوة، لأن العبرة بما يقع في الواعية لا بما تقع عليه الأقدام، وأن النائم لينام بعد هنيهات قليلة فكيف يكون الحال بمن تنقضي عليه في تلك النظرة أعوام، ومن تنقضي على آبائه وأجداده في تعاقب تلك الفتنة أجيال؟؟

تلك هي العقدة المغناطيسية في سحر الصحراء

أما عقدتها التي تشبه الخمر فما هي الخمر إن لم تكن نشوة الطلاقة وعزة الإفلات من القيود، وتوهم القدرة على كل مطلب في غير حذر من رادع ولا مبالاة بملام؟

تلك الطلاقة هي سكرة الآفاق الواسعة أو سكرة الصحراء التي لا تقوم فيها الحواجز، ولا تصطدم فيها الحدود، ولا يشعر فيها المرء بين الأرض المديدة والسماء الرفيعة بطغيان مخلوق أو خضوع متهور ثم شعوذة الحواة وحسبك منها السراب!!

مضينا في السيارة من الضحى إلى الغروب ثماني ساعات بين مرسى مطروح وسيوة فلم يغب قط عن أبصارنا منظر هذا السراب بعلو ويهبط، ويبدو ويختفي، ويتراءى حتى لا شك في صدقه، ويتوارى حتى لا شك في كذبه وزوره السراب السراب!! ما أشبه الحقيقة فيه بالكذاب، وما أولاه منا بالعجب العجاب!

لقد عدنا وعلى الأفق غاشية من سحاب رقيق فلم نر سراباً في طول الطريق فقلنا لبعض أصحابنا في السفر: أرأيت كيف يكون النور سبيل الضلال في بعض الأحايين؟ ترجم هذا لأعداء الحديث من الشعر وقل لهم: إن الذي يتحدث عن (ضلال النور) لا يتحدث بالأحاجي والألغاز، ولا يقول إلا ما تبصره العين فكيف بالضمير وكيف بالخيال؟ وقل لهم إنهم لا يفهمون الصحراء وهم يعيشون منها بين ذكريات النوق والوهاد، وأساطير الأفراس والجياد. وقل لهم بالإيجاز أنهم لا يفهمون!

سراب الصحراء، هذه المشعوذة البارعة

وخمر الصحراء، هذه المشعشعة الصارعة

وغيبوبة الصحراء، هذه المنومة الفارعة

وعراقة الصحراء هذه القديمة في الآناء، القديمة في الآماد والأجواء، القديمة في العروق والدماء

ذلك هو سحر الصحراء!

المسافة بين منشية الإسكندرية ومحطة الرمل قصيرة، ولكنها على قصرها تريك من أي طريق سلكتها عظم المسافة بين الأمم التي تسود والأمم التي تساد

عشرون أو ثلاثون مكتبة في هذه الطريق بين فرنسية وإنجليزية وإيطالية ويونانية، وفيها من الكتب الأدبي والقصصي والفلسفي والعلمي وكل ما يبحث فيه الباحثون ويصنف فيه المصنفون والبلاد عربية، فأين هي المكتبة العربية بين جميع هذه المكتبات؟

لا ترى هناك مكتبة واحد؛ وإن رأيت بعض الكتب العربية فقد تراها معروضة في إحدى الوجهات الإفرنجية فرعاً من الفروع الصغيرة، لا أصلا من الأصول الكبيرة التي تتشعب عليها الفروع لم هذا؟

ألأن الإسكندرية مدينة تجارية كما يقولون فلا شغل فيها للمصريين غير التجارة والسوق، وغير البضاعة والأسعار؟

إن كانت التجارة صارفاً عن الثقافة فالأجانب في الإسكندرية تجار أو عاملون في التجارة، ولعلهم هم القابضون على أزمة السوق وهم الظافرون منها بحصة الأسد، وما من أجنبي في الإسكندرية إلا وهو طالب مال ومشتغل بحرفة من حرف الاتجار والصناعة. فلم كثرت الكتب الإفرنجية وقلت الكتب العربية في المدينة؟؟

أم هي كثرة الصحف والمجلات كما يقولون قد صرفت المصريين عن دراسة الكتب إلى لهو القراءة وتزجية الفراغ؟

ليس هذا أيضاً بصالح لمعذرة ولا لتفسير، فأن الصحف والمجلات الأجنبية التي تظهر في القاهرة والإسكندرية، أو ترد إليها من لندن وباريس وروما أكبر عدداً وأوسع انتشاراً من صحفنا ومجلاتنا العربية، وهي مع هذا لا تصرف القراء عن مطالعة الآداب ومتابعة العلوم والأخذ بالنصيب المطلوب من الثقافات والفنون.

لا هذا ولا (الأمية) سبب معقول لشيوع الكتب الإفرنجية وندور الكتب العربية في عاصمة القطر الثانية، أو في عاصمة الثقافة الشرقية على عهد من عهود مصر الغابرة، فان العارفين بالقراءة من المصريين في الإسكندرية لا يقلون عدداً عن العارفين بالقراءة فيها من النزلاء والغرباء، وإن كان فرق بينهما في العدد فليس هو الفرق الذي يكون بين صفر وثلاثين إنما الفرق الصحيح هو فرق بين أمم تسود وأمم تساد أو هو فرق بين من يطلبون المعرفة شوقاً واستطلاعاً، ومن يطلبونها تكليفاً واتباعاً، لأن التكليف فرض على المسودين حتى حين يعرفون , بل هو فرق بين النفس التي يبقى فيها جانب يطلب الغذاء بعد أن تشبع المعدة بالخبز والماء، وبين النفس التي يشبع منها كل جانب حين تمتلئ الأحشاء بالطعام والشراب وذلك هو الفرق الصحيح لا مراء .

وفي الطريق من مصر إلى الإسكندرية على جانب الصحراء أديرة قديمة نعلم عنها من كتب الأجانب ما لسنا نعلم من الكتب العربية جمعاء.

ذهبت إلى الإسكندرية ومعي كتاب ضخم بالإنجليزية عن هذه الأديرة يقع في نيف وخمسمائة صفحة كبيرة بين كتابة ونقوش لمن كتبه الكاتب؟

وماذا يعني القراء مما كتب؟

كتبه للمعرفة، ويقرأه القراء للمعرفة؛ وليس من سبب غير المعرفة يساوي الجهد المبذول فيه والثمن المقدور له والوقت الذي انقضى في تحضيره وتأليفه وضبط نقوشه ورموزه وتواريخه

أما هذا السبب فلعله آخر الأسباب التي تدفع الجمهرة عندنا إلى فتح كتاب، فضلاً عن تأليف كتاب

من يطلب المعرفة لفائدة يحصرها في المأكل والملبس والمسكن وما هو في حكم الطعام واللباس والبيوت، فإنما هو مسوق إلى ما يطلب، وإنما هو عبد في جهله وعبد في معرفته على السواء

ومن يطلب المعرفة لأنها المعرفة، فذلك هو السيد وتلك هي السيادة؛ وحسبه أنه هو يريد أن يعرف ثم تأتي الفائدة في الطريق، وليس؛ يراد على معرفة شيء كما يراد على جهله، لأنه مسوق بسلطان الضرورة القاهرة إلى ما يريد ولست أعني بسيادة العارف أن المعرفة سلاح في يديه يصل به إلى السيادة كما يصل المرء إلى السلطان بالسيف والمال والحيلة كلا. فلو كان كل في ما المعرفة من سيادة أنها كالسلاح في هذا المطلب لكانت أداة تؤدي إلى غيرها ولم تكن غاية تتأدى إليها المقاصد وتنتهي إليها اللبانات.

ولكنما عنيت أن طلب المعرفة للمعرفة هو هو السيادة، وهو هو العلامة على أن الإنسان (سيد)، يفهم ما يفهمه لأنه طبيعة فيه ووظيفة من وظائف عقله وتكوينه، لا لأنه مغرى به إغراء الطمع، ولا لأنه مسوق إليه سوق الإجبار والإكراه .

لم تعرف النفس؟

ألا تسأل: لم تنظر العين؟ ولم تسمع الأذن! ولم يشم الأنف؟ ولم تدرك الحواس؟

إن العين لا تنظر لسبب غير أنها حاسة فيها قوة النظر، والأذن لا تسمع لسبب غير أنها حاسة فيها قوة السماع، وكذلك الأنف وكذلك كل حاسة في الإنسان أو الحيوان. فما بالنا نبتغي سبباً للعقل أو للبصيرة حين يدركان ويعرفان؟ لماذا تنظر العين لغير علة ولا مطمع ولا فائدة، ثم نأبى على العقل أن يدرك ما يدرك إلا للعلل والمطامع والفوائد، وإلا لهذه العلل والمطامع والفوائد التي نحصرها في أضيق الحدود وأقرب الحاجات.

لأحرى بنا أن نسأل: لماذا يحجم العقل عن المعرفة، وأن نسأل لماذا تحجم العين عن النظرة، وأن نسأل لماذا تعجز الحواس عن الإدراك عندئذ نفهم الجواب ولا يطول بنا العناء في فهمه، فذاك أن الحواس عاجزة مكفوفة، وأن العين عمياء، وأن العقل معدوم أو ضعيف.

أما أن نسأل لماذا يعنى العقل بالمعرفة فذاك هو اللغو والفضول، وذاك هو السؤال الذي يشبه سؤالنا: ما بال العين تقع على ما تراه ولا تنحرف عنه ولا تأبى النظر إليه حسب الشيء أنه يرى ليكون ذلك حقاً له في رؤية العيون وحسب الشيء

أنه يعرف ليكون ذلك حقاً له في معرفة البصائر والعقول فإن جعلنا للمعرفة ثمناً من الحطام أو ثمناً مما يشبه الحطام فهي أذن معرفة اضطراراً أو معرفة عبيد وأتباع؛ وهي إذن شيء وطبيعة السيادة شيء، ولو نجح صاحبها في السيطرة على الآخرين كما ينجح الجبان في يده المدفع وخصمه أعزل من السلاح

قال الأستاذ طمسون عن آراء أرسطو في علم الأحياء ما معناه: إن الفضل كل الفضل للفيلسوف الإغريقي العظيم أنه شعر بالحاجة إلى مراقبة الحشرات والأسماك في الخلجات، وفهم أن تقييد حركتها وتسجيل ولادتها ونموها معرفة تحسن بالحكيم: وليس الفضل أنه أتى بآراء في علم الأحياء يعول عليها الناس في العصر الحديث.

ولو أن الفيلسوف الإغريقي لم يشغل عقله في زمانه إلا بما يفيد لتوه وساعته لما وصلنا إلى علم أحياء يفيدنا اليوم، أو لا يفيد .

ليست الآفة عندنا أننا مشغولون بالتجارة عن القراءة، فالأوربيون أعظم منا اشتغالا بالتجارة واجتناء لخيراتها

وليست الآفة أن الصحف اللاهية تصرفنا عن كتب العلم والأدب والدراسة، فان الصحف اللاهية سبقتنا في أوربا ويسبقنا بها الأجانب في بلادنا المصرية

ولكنما الآفة أن التجارة تجارتان: تجارة أحرار فهم مسيطرون عليها، وتجارة اتباع فهي مسيطرة عليهم، وأننا إذا طلبنا المال أو المعرفة طلبناهما مسوقين ولم نطلبهما طلب السادة الذين يملكون من أنفسهم بقية يشغلونها بما يحبون.

أسباب ما نعمل

السيدة الأرمنية العجوز التي تسكن معنا في الدور الأرضي من المنزل أزمعت النقل إلى منزل آخر على مقربة من الحي، وهي واقفة على الباب تراقب الحمالين وهم ينقلون الأثاث ويرتبونه. ولابد من كلمة تحية ومجاملة في الطريق. فوقفت وسألتها:

إلى أين يا سيدة؟ وما الذي أغضبك من منزلنا؟

قالت: قسمة!

قلت: ألعلك وجدت مسكناً خيراً منه في هذا القيظ؟

قالت: لا. بل هي آخر قسمتنا فيه، وإنما هي كما تقولون أعتاب وأيام!

(سبب امرأة)

نعم. فقد تعودنا حين نسمع أمثال هذه الأسباب التي لا تعليل فيها أن نبتسم ونصرف الحديث قائلين: سبب امرأة، أو هو سبب من الأسباب التي لا يقنع بها غير النساء, والمتفق عليه بيننا معشر الرجال أن أسباب النساء هي الأسباب التي لا تعطيك تفسيراً ولا تزيدك علماً بعلة ما يصنعن وما يتركن، فإذا سألت امرأة: لم صنعت هذا؟ أو لِم لمْ تصنعيه؟ فأغلب ما يكون الجواب: هكذا! أو هل تراني عارفة؟

هذا أو تعطيك جوابين نقيضين لتعليل العمل الواحد. فقد رووا أن رجلا صحب زوجته إلى متجر الملابس لينتقيا حلة تعجبها. فاختار لها لونا من الحرير عرضه عليها، فصاحت به: ما هذا؟ إن جميع الناس يلبسون منه... واختار لها لوناً آخر فصاحت به الصيحة الأولى: ما هذا؟ إني ما رأيت قط أحداً يلبسه!

فكان السببان النقيضان عندها صالحين لتعليل العمل الواحد وهو الإحجام عن شراء الحلة المعروضة عليها

لكن جهل الأسباب في الواقع غير مقصور على النساء، وكذلك هذا النمط العجيب من التسبيب

سعيد وإبراهيم وإسماعيل ثلاثة اخوة صغار يلعبون أمام المنزل في معظم الأحيان، أكبرهم في التاسعة وأصغرهم في نحو الخامسة؛ فهو لا يذهب إلى المدرسة أو لا يريد أن يذهب

إليها.

لقيته يوماً يلعب مع غير أخوته فسألته:

ماذا تصنع يا إسماعيل؟

قال: لا أصنع شيئاً.

قلت: لكني أراك تلعب، فأين ذهب أخواك؟

قال: إلى المدرسة؟

قلت: ولم لم تذهب أنت معهما؟

قال: هكذا!!

قلت: هكذا؟ هكذا كيف؟

فأعادها مرة أخرى، وأدركه طفل أكبر منه بالجواب، فقال: إنه صغير! وهو على كل حال جواب يحسن السكوت عليه.

قد يقال: وأسباب الأطفال أيضاً هي أسباب النساء. .!

لكن الواقع أن جهل الأسباب على هذا النمط غير مقصور على النساء والأطفال، وأن أناساً كثيرين بعضهم متعلمون وبعضهم غير متعلمين يجهلون أسباب ما يعملون وأسباب مالا يعملون، وتسألهم عن أمر من الأمور التي تقوم عليها الحياة وتتصل بها الأرزاق، فلا يعطونك سبباً، أو يعطونك سبباً قلما يغنيك عن التعليل.

أعرف أسرة من الأذكياء المتعلمين ينتقلون من منزل إلى منزل كل ستة شهور أو كل سنة على أبعد أجل، ويحيل أحدهم على الآخر في بيان أسباب الانتقال، فهذا المنزل

كرهه فلان، وهذا المنزل انتقاه فلان، وآخر ما يقال في تهوين هذه المشقة وتهوين ما يتبعها من خسارة ونفقة:

وما الفرق بين بيت مستأجر وبيت مملوك إن كان الإنسان لا يتنقل بين البيوت؟

ومن الواضح أن الإنسان لا يزعج نفسه وأسرته بالانتقال وتحطيم بعض الأثاث وتجديد بعضه على حسب تنظيم المسكن الجديد لغير شيء إلا أن يجد الفرق بين البيت المستأجر والبيت المملوك، أو أن ينفس على شخص واحد أن يتقاضاه الأجر زمناً طويلا فيفرقه بين أشخاص متعددين.

فلا بد من سبب ولا بد من باعث، ولكننا نحن الآدميين جميعاً نعمل ولا نكلف عقولنا تبيين أسبابها، وإن كنا نبالغ في سؤال الآخرين عن الأسباب. وقد يسهل على الأكثرين أن يعرفوا أسباب ما يعملون إذا استقصوا هذه الأسباب. أما الذي يصعب على الأكثرين فهو عرفانهم أسباب مالا يعملون، كأنما يحسبون أن الإنسان يترك جميع الأعمال لغير سبب، أو أنه لا يحتاج إلى الأسباب إلا عندما يعمل شيئاً أو يشرع في عمل شيء، فأما أن يكف عن العمل أو عن الشروع فيه فذلك طبيعة لا تحتاج إلى سؤال.

هذه حالة إذا أفرطت من إحدى جهتيها انتهت إلى الإباحية التي تتساوى عندها جميع البواعث والدواعي، أو إلى الإباحية التي وصفها ابن المعتز في قوله:

قليـــــــــل همـــــــــوم القلـــــــــب إلا للـــــــــذة
يـــــــنعّم نفســـــــا آذنــــــــت بالتنقـــــــل
يعـــــــب ويســـــــــقي أو يســـــــــقى مدامـــــــة
كمثـــــــل ســـــــراج لاح فـــــي الليـــــل مشـــــعل
ولســـــــت تـــــــراه ســـــــائلا عـــــــن خليفـــــة
ولا قـــــائلا مـــــن يعزلـــــون ومـــــن بلـــــى
ولا صـــــائحا كـــــالعير فـــــي يـــــوم لـــــذة

وهي حالة قريبة مما نراه من قلة المبالاة أو قلة التمحيص أو قلة (التدقيق) على حد تعبير أبناء البلد - عند أناس كثيرين في العصر الحاضر يعملون وينظرون إلى غيرهم يعمل ثم لا يسألون ولا يفكرون. . وهذا إن كانوا يعملون وينظرون.

أما إذا أفرطت هذه الحالة من جهتها الأخرى فنهايتها إلى الوسواس والمراجعة في كل شيء والمحاسبة على أهون الأمور، والتردد بين الخواطر حتى لا إقدام ولا إحجام ولا فائدة من الإقدام والأحجام.

إنما الحد القوام بين هذا وذاك أن يكون المرء قادرا على تعليل عمله والنفاذ إلى باطن مشيئته، لأنه متى قدر على ذلك استولى على زمام نفسه، وقبض على سكان سفينته في زعازع هذه الحياة. فمن عرف لماذا يعمل عرف كيف يجتنب العمل إذا وجب عليه اجتنابه , وعرف كيف يقنع به غيره إذا حسن عنده إقناعه , وعرف كيف يصنع على مثال أجمل وأكمل إذا لاحظ تقصيرا فيه.

وكذلك من عرف لماذا لا يعمل شيئا من الأشياء، فانه خليق أن يروض نفسه على عمله متى عرف سهولة المانع أو عرف ما فيه من مؤاخذة ونقيصة. وخليق أن يفهم دواعي الأحجام عنده فيعالجها بما يصلحها أو يقربها إلى الصلاح .

بعض علماء النفس ينصحون طلاب الرياضة النفسية بتسجيل المذكرات اليومية، لإثبات أعمالهم وقياس الفارق بين أمسهم ويومهم. والذي نراه أن تسجيل المذكرات اليومية لا يجدي جدواه ما لم ينته إلى مساءلة النفس عن بواعثها ودواعيها. فليجرب من شاء أن يختار حادثة من حوادث الحياة كل يوم يسأل عن سببها ويستقصي دخائلها ويصمد على ذلك شهرا واحدا ثم ينظر في نتيجة هذه الرياضة، فإنه واجد لا محالة أنه يتقدم في طريق القدرة على النفس والقدرة على الحياة، وأنه يصبح يوما بعد يوم سيد نفسه ومالك قياده، وتلك بغية الرجل الكامل في الثقافة وفي الرياضة وفي الآداب والأخلاق.

رأيي في الجسم الجميل أنه الجسم الذي لا فضول فيه، وأنه الجسم الذي تراه فيخيل إليك أن كل عضو فيه يحمل نفسه، غير محمول على سواه .

من هنا جمال الرأس الطامح، والجيد المشرئب، والصدر البارز، والخصر المرهف الممشوق، والردف الماثل، والساق التي يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها أنها لا تحمل شيئاً من الأشياء، ولا تنهض بعبء من الأعباء . بل من هنا جمال الحيوان الأعجم، وجمال المهر الكريم وقد اختال بعنقه وشال بذنبه، وضمر بدنه وأصبح في جملته كالكلام المختصر المفيد، أو الكلام المختصر البليغ، لأنه يبلغ حيث شاء. كان هذا هو الرأي المصري في الجمال قبل ببضعة آلاف من السنين، أيام كان المصريون سادة في الحياة وكان المثال الفائق عندهم لجمال الرجولة والأنوثة ما نراه على الهياكل من صور الرجال والنساء , ولم يكن هذا هو الرأي المصري في الجمال قبل بضعة أجيال، يوم ركد المصريون ركود البطء والكسل فأصبحت الكثافة الواهنة عندهم مقياس الملاحة والقسامة، وأصبح جمل المحمل و (التختروان[1]) مثال الحسن المطلوب في النساء: تعلو المرأة السمينة وتهبط في مشيتها وما تنتقل شبراً في أقل من خطوتين، والمقرظون[2] من حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ويعوذون هذا الجرم الذي لا تمضي فيه السيوف من لحظات العيون، ومن حسد الحاسدين!

العالم كله يثوب إلى مذهب المصريين الأقدمين في جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق، ومن العالم كله المصريون المحدثون .

وشاع هذا المذهب بعد الحرب العظمى أشد من شيوعه في زمن من الأزمان، حتى غلا بعضهم فأوشك أن يلتمس الجمال في الهياكل العظمية، وهي على أية حال أجمل من هياكل الشحوم واللحوم!

---

[1] مِحَفَّةٌ لها ذراعان من أَمام ومثلهما من الخلف ، يحملها دابتان.
[2] قرَّظ الشّخصَ مَدَحَهُ وأثنى عليه بوصف محاسنه

أهي نفحة من نفحات الفن العلوي هبت فجاءة على أذواق الناس في العالم كله فأصبحوا جميعاً من صاغة التماثيل الملهمين؟ مثل هذه النفحات - فيما أحسب - أغلى وأرفع من أن تكال جزافاً للملايين في المغارب والمشارق، وبين الأذكياء والأغبياء، وعند من يحسون ولا يحسون إنما هي (الطيارة) جزاها الله خيراً بما هذبت من أذواق وأصلحت من أخلاق إنما هي (الطيارة) قد أتمت مذهب السرعة في كل شيء، والسرعة والخفة لا تفترقان، والخفة والسمنة لا تتفقان .

فالرجل الذي يقفز من القاهرة إلى الإسكندرية في ساعة واحدة لا يلتفت بعد ذلك إلى امرأة تزن القناطير المقنطرة من الشحم واللحم، ليعجب منها في مشيتها بجمل المحمل والتختروان.

والرجل الذي يصعد إلى السماء لا يصبر على حمل الجبال، فالملائكة وحدها هي التي تحسن الصعود إلى تلك الآفاق .

وهكذا تعلمنا الآلات أحياناً كيف نشعر وكيف نتذوق الجمال وكيف نصحح الأذواق .

على شاطئ الإسكندرية - والمصادفة من أجمل المصادفات - طيارة في الهواء، وفتاة على الأرض هي أولى بالطيران من تلك الحديدة الصاعدة؛ بل هي تطير ولا يتخيلها الناظر إلا طائرة تفلت من لحظات العيون وخطرات الأرواح لا تحس العين أنها أدركتها، لأنها إذا أدركتها تأملت فيها وسرحت في معانيها، فإذا هي بعيد بعيد، أبعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل فإذا هو على الغصن، ويثب إليه في غصنه فإذا هو في الهواء .

تلك هي القنطار الثمين!

لأنها لا تزيد في الوزن على قنطار، ولم يخلق في الدنيا قنطار أثمن وأولى بالاقتناء منها، أيا كان معدنه ومبناه جمالها يزيدك عجباً من دقتها، ودقتها تغريك بوزنها وتقويمها. فأما الوزن فهو ما علمت؛ وأما التقويم فهو ما لا تعلم وما لا يدخل في حساب، لأن هزة من الشعور قد تسومها بكنوز الأرضين والبحار، وهزة من الشعور قد تبذلها رخيصة لمن تهواه

قل إنها تساوى وزنها من ذهب

وقل إنها تساوى وزنها من كريم الجوهر

فإنما الحياة هنا هي مقياس التقويم والتقدير، وما أحسب شيئاً في هذا العالم إلا ومرجع تقويمه إلى حظه من الحياة

وإلا فكم يساوى القصر المشيد إذا لم يشعر به الساكن فخامة وزهواً وجمالا وطمأنينة وراحة، ولم يشعر به الناظر هيبة واستحساناً ورغبة؟

وكم تساوى السيارة إذا لم يشعر بها راكبها ولم يشعر بها ناظرها ولم يشعر بها من يملكها ومن يتمناها؟

إنما (الاقتصاد) الصحيح هو اقتصاد (الفنان) لا اقتصاد السماسرة وحملة السهوم ومديري المصارف والشركات ,إنما الاقتصاد الصحيح هو الذي يقومَ هذا القنطار الثمين فإذا هو أثمن من كل قنطار في معادن هذه الدنيا، لأن ما يحويه من ذخائر الشعور أكبر وأنفس من كل مملوك ومذخور , وإنه ليرخص بالشعور كما يغلو بالشعور. فدع قنطارنا هذا الثمين يهيم حباً بمن شغل عنه، ثم أنظر كم يكون له من ثمن، وكم يكون له من وزن وكم يكون له في رأي نفسه من حساب وتقويم!

وما ندري أمن حسن الحظ أم من سوئه كما يقولون أننا نشعر بالقصور ولا تشعر بنا القصور!!

وإلا فلو وهبت كل قنية ثمينة نفسا تريد هذا المالك ولا تريد ذاك فماذا يبقى من الأثمان؟ وماذا يبقى من البيع والشراء؟

هذا القصر يبذل نفسه لمن يريده بغير ثمن، ويأبى أن يأوي إليه شارٍ غيره ولو بذل فيه ألوف الألوف؛ فهو تارة بدرهم وتارة بالألوف المؤلفة من الدنانير، وهو تارة أخرى بالمجان لمن لا يسومه حتى بهذا الثمن الرخيص.

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الشعور هو (وحدة) التقويم والتسويم في كل ما نملك وما نريد، وأن الذين يشبعون من الحياة هم أغنى الناس وأعظم أصحاب الثراء، وان لم يعرف لهم اسم في خزانات المصارف ودفاتر الشركات

أنت يا بنية ذخيرة في الحياة

أنت يا بنية كنز من الفتنة والحب والمتعة واللذائذ والآمال والأشجان والأحلام

أنـت يـا بنيـة قنطـار تـرخص عنـده قنـاطير الـذهب والفضـة وقنـاطير الجـواهر والفصوص.

أنت كل هذا حتى يأخذ منك الشعور ما أعطاك الشعور. وسألت من خلقك هذا الخلق السوي إلا يأخذ منك إلا بمقدار ما يعطيك، وألا يرغبَك إلا بمقدار ما يرغب فيك، فليس آلم من هوان النفيس عند الصيرفي العليم بالحياة إلا نفاسة الهين الزهيد

أنت يا بنية هكذا في لغة الزمان الذي لا نسمع فيه إلا (كم نقصت فلانة) وكم زاد فلان؟ وكم يساوى هذا وتلك في أسعار الأوان؟

وعلى مقربة من (مثابة) الإسكندرية ما أشبه هذه اللغة بأسلوب المكان!

على شاطئ الإسكندرية ثروة لمن أحب الغنى

ثروة لم يملكها قارون عند من يحسب موارده بحساب الحياة وكل ما تتقاضاك من جهد بضع نظرات

بقية المذهب

في مقالي السابق (قنطار ثمين) قلت رأيي في الجسم الجميل وهو (الجسم الذي لا فضول فيه، والجسم الذي تراه فيخيل إليك إن كل عضو فيه يحمل نفسه، غير محمول على سواه)

ومن الواجب في هذا المقال أن أذكر أن الجسم الجميل غير الجسم اللذيذ وغير الجسم الصحيح وغير الجسم القوي وغير الجسم النافع، لأن الجسم قد يكون نافعاً أو قوياً أو صحيحاً أو لذيذاً، وهو في كل ذلك غير جميل.

قيل لبعض الحكماء: إن فلانة كبيرة البطن ضخمة الثدي فقال: (نعم، حتى تدفئ الضجيج وتروي الرضيع)... فهذا وصف صادق للجسم النافع ولكنه لا يستلزم جمال الجسم الموصوف، كما يقال إن هذا الكساء يدفئ صاحبه و (يعيش) سنوات ولا يستلزم ذلك جماله فيما يكون به جمال الكساء

نعم ويجب أن نذكر للذين يخرجون من (درس الألفية) ليفصلوا في مذاهب الجمال أن المرجع في هذه الآراء لن يكون إلى أعرابي قضى حياته في بادية جرداء وفي جاهلية عمياء، وإنما يكون إلى أناس سلمت لهم محاسن الأذواق ودرسوا فلسفة الجمال وأصلحوا مئات من الأجسام الجميلة وفاقا لعلم الصحة وفن الرياضة البدنية وأساليب التحسين والتقويم المتخذة في معاهد التطرية والتنسيق، واستعانة بأصول التشريح وأصول التلوين والتظليل، وتجارب التاريخ التي عرضت عليهم صنوفاً من الشمائل الإنسانية في كل أمة خلقها الله

لقد وصف بعض الأعراب نساء (محبوبات) فاستملحوا الضخامة ومدحوا الكسل وبطء الحراك، وافتتن أميرهم بعذارى قال في وصفهن ما يقال في وصف الغيلان:

وظل العذارى يرتمين بلحمها

وشحم كهداب الدمقس المفتل

نعوذ بالله!

فإن كان هذا وأشباهه وصفاً لشيء فهو وصف للجسم الشهي أو الجسم اللذيذ، وليس بوصف للجسم الجميل على اعتبار الجمال معنى من المعاني التي تقاس بالإدراك، كما يقاس معنى البيت البليغ، ومعنى الصورة البارعة، ومعنى التمثال المتقن، ومعنى الخيال المجرد، ومعنى الحلم البعيد.

والرجال في تفضيل الجسم الشهي أو الجسم اللذيذ مذهبان مختلفان:

رجل عنده عادة الاستحسان كعادة التدخين، فهو يألف طرازاً واحداً من (المرأة) كما يألف المدخن لفيفته المعهودة، فلا يغيرها ولو كان الخلاف بينها وبين غيرها كالخلاف بين علامة (الجمل) في التبغ الأمريكي وعلامة (الخلطة السعيدة) وهما من أصل واحد

هذا الرجل إذا استحسن المرأة الطويلة لم تعجبه القصيرة ولو كانت لها ملاحة ونضارة ومتعة وحلاوة, وإذا استحسن السمراء لم تعجبه البيضاء، أو استحسن بنت العشرين لم تعجبه بنت الثلاثين، أو استحسن المصرية لم تعجبه الإنجليزية أو الروسية، وهما معجبتان .هذا مذهب.

والمذهب الآخر مذهب رجل يستحسن النساء كما يستحسن الفاكهة، أو كما يستحسن صحاف الطعام، والمعول على صناعة الطاهي وغواية الأوان!

فالتفاح مقبول، والبرقوق كذلك مقبول، والتين لا يرفض، والجميز لا يعاف، والشواء مستطاب، والسمك المملح له وقت يجوز اشتهاؤه فيه, ومن المعقول أن يشتهي أعرابي من الأعراب امرأة سمينة موفورة الشحم واللحم قليلة الحركة نؤوم الضحى كما يقولون، فإنما عاش الأعراب في صحراء يسوّمون فيها الناقة بمقدار ما عليها من لحوم وشحوم، ويكبرون فيها الأغنياء بمقدار ما يأكلون من سمن ولبن ودهون، ويقال فيها إن فلاناً يملأ جوف امرأته بما يسمنها ويقعدها عن الحركة فيحسبون ذلك غاية العزة والفخار، وذروة النعمة واليسار .

أما نحن في عصرنا هذا الذي تتحرك فيه المرأة لتلعب في ميدان الكرة والصولجان إن لم تتحرك لتخدم نفسها وذويها في بيتها، والذي تعددت فيه مظاهر الغنى فلا يحسب فيه امتلاء الجوف بالطعام عنوان وفر وثراء، ولا تحسب فيه الناقة ولا ألبانها (وحدة المعاملة) في الأسواق...

أما نحن في هذا العصر فما حاجتنا إلى اقتداء بذلك الأعرابي فيما استملح واستطاب، وما لنا ولغيلانه وعذاراه، أصلحه الله وأشبعه ورواه!

وما بالنا نقتدي به ولا نقتدي بإخوانه الذين عرفوا ملاحة الهيف والرشاقة وتجملوا تارة بجمال الفطرة، وتارة أخرى بجمال الحضارة؟

أذكر أنني نظمت قصيدة في شتاء أسوان يوم كانت تزدحم بالوافدين والوافدات من آفاق المغرب والمشرق، فشببت فيها بالعين الزرقاء والشعر الأصفر والوجه الأزهر.. . فعابها ناقدون يقرءون الألفية ويحكمون على الآداب والفنون ومذاهب الجمال، وقالوا: يا رعاك الله! متى كان الشعر الأصفر مما يستملح في القصائد العربية؟ ومتى كانت زرقة العينين مما يحمد فيه الغزل والتشبيه؟

وكنت أقول لهم يومئذ: إني إن زعمت أن حسان أوربا سود العيون والشعور كذبت على الحقيقة، وإن زعمت أنهن زرق العيون مذهبات الشعور ولكنهن دميمات مجتويات كذبت على نفسي وعلى الله... فكيف تريدوني أن أقول؟

صفعة على القفا، علمت الآن، أجدى في مناقضة أولئك (الآدميين) من كل ذلك النقاش والحوار

قال ابن أبي ربيعة:

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا

وقال المثل المصري: (من أعجبه جسمه عرَّاه، ومن أعجبه صوته علاَّه)

ورأينا نحن مصداق هذا وذاك على شاطئ الإسكندرية، ولا نزال نراه في كل معرض جمال

فهنا لا تلبس المرأة شيئاً ولا تخلع شيئاً إلا لتبدي حسناً وتستر عيباً، وهنا بحر زاخر لمن ينظرون على مذهب التدخين، ومن ينظرون على مذهب الفاكهة والطعام، ومن ينظرون على مذهب الجسم الجميل كما بيناه، رفيعاً جداً فوق مذهب المدخنين ومذهب الآكلين، ورفيعاً جداً فوق مذهب الجسم النافع والجسم اللذيذ.

في أوربا تقل قيود المرأة وتقل قيود الفنان، ولكننا يندر أن نرى امرأة ممن عاشرن الأدباء ورجال الفنون على شرط الجمال الأوفى عند أولئك الأدباء والفنانين، وهم كما نعلم نقاد الجمال وخلاقو المقاييس والآراء فيه.

وقد رأينا صور النساء اللواتي عاشرن بيرون وجيتي ودانتزيو، وهم قبل كل شيء من طبقة النبلاء أو يعيشون في تلك الطبقة ويتنقلون حياتهم بين الأمراء وأميرات، وهم بعد هذا شعراء (عالميون) استفاضت شهرتهم في البلاد الأوربية وغير الأوربية، وهم بعد هذا أرفع أمثالهم ذوقاً وأدباً وقدرة على الانتقاء صنوف الجمال، ومنهم من لعب بالمال لعبا وساح في الأرض وهام بالنساء.

ومع هذا يندر كما قلنا أن تجد بين حبائبهم ومواصفاتهم من هي على شرط الجمال الأوفى عندهم وعند ممن يشابهونهم ويتوسلون بأشباه وسائلهم.

وسبب ذلك معروف لا ينبغي أن نستغربه ولا أن نحار في تعليله، فان الدواعي التي تدعو الرجال إلى المرأة أو تدعو المرأة إلى الرجل كثيرة غير الجمال في صفاته العليا، فمنها الذكاء، فقد تكون المرأة ذكية وهي قليلة الحظ من الجمال، أو غبية وهي أجمل من ترى العيون؛ ومنها العطف، فقد ينجذب الرجل إلى المرأة، العطوف وينفر من المرأة الشموس وهي سيدة النساء في جمال الوجوه والأجسام؛ ومنها المركز الاجتماعي، ومنها الرغبة الجنسية، ومنها الغرابة التي تستهوي الرجال حين لا تستهويهم المحاسن والأخلاق؛ ومنها التنافس على الغلب كما يتنافس الفرسان على قصبة وهي من سقط المتاع.

فإذا وصف الشعراء امرأة أو أحبوها فليس باللازم أن تكون هذه المرأة طرازهم الأعلى في محاسن النساء وشرائط الجمال بله الطراز الذي يتفق عليه جميع الناس، وتتلاقى عنده جميع الآراء، وتتوافى لديه جميع الفلسفات. وإذا قلنا إن الجسم الجميل هو الجسم الذي لا فضول فيه والذي يحمل كل عضو من أعضائه نفسه غير محمول

على سواه، ثم رأينا ألف امرأة على غير هذه الصفة ممن أحبهم ملوك الذوق وأساتذة الفنون فليس ذلك بمانع صحة التعريف ولا بناقض صواب الرأي، لان (ملوك الذوق وأساتذة الفنون هنا) كالقاضي خارج الجلسة، أو كالقاضي الذي بينه وبين المدعين قرابة واتصال.

وهذا بين الأوروبيين على ما عندهم من حرية وثقافة ذهنية ورياضة بدنية وعلوم صحية ومعارض يومية وتاريخية، فكيف بأعرابي في البادية يقولها كلمة عائرة ولعله لا يعني ما يقول!!.

قلنا في مقالنا السابق (بقية المذهب):

(لقد وصف بعض الأعراب نساء (محبوبات) فاستملحوا الضخامة ومدحوا الكسل وبطأ الحراك، وافتتن أميرهم بعذارى قال في وصفهن ما يقال في وصف الغيلان:

وظـــــل العـــــذارى يـــــرتمين بلحمهـــــا
وشـــــحم كهـــــداب الـــــدمقس المفتـــــل

نعوذ بالله)

وكتب (القارئ) الفاضل في الرسالة يقول أن امرأ القيس يستحسن في المرأة ما يستحسنه الأستاذ العقاد النقاد ويستقبح ما يستقبحه وهو يقول في معلقته:

مهفهفـــــة بيضـــــاء غيـــــر مفاضـــــة
ترائبهـــــا مصـــــقولة كالســـــجنجل[1]

... يعني امرأة دقيقة الخصر ضامرة البطن غير عظيمة البطن ولا مسترخية، وصدرها براق اللون متلألئ الصفاء تلألؤ المرآة.

فأمير الأعراب ونائب الأمة في دار الندوة الأستاذ العقاد في قضيتهما في الحسان سيان...)

---

[1] السَّجَنْجَلُ :المرآةُ

فأحب أن يذكر (القارئ) الفاضل أن امرأ القيس قال أيضاً:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق. . . . . . إلى آخر البيت

وهذا ما ليس يقال في امرأة على ما وصف في البيت الذي استشهد به

وقال أيضاً:

إذا قلـــــــت هـــــــاتي نـــــــوليني تمايلـــــــت

علـــــىَّ هضـــــيم الكشـــــح ريـــــا المخلخـــــل

وامتلاء الساق مع دقة الخصر ليس من الصفات المنتقاة في نماذج الجمال.

ثم نقض قوله حين عاد فقال، إن كان عاد أو إن كان قال:

وكشـــــــح لطيـــــــف كالجـــــــديل مخصّـــــــر

وســـــــاق كـــــــأنبوب الســـــــقي المـــــــذلل

ثم قال:

وتضـــــحى فتيـــــت المســـــك فـــــوق فراشـــــها

نـــــؤم الضـــــحى لـــــم تنتطـــــق عـــــن تفضـــــل

فهو يستحسن الكسل والتراخي، وكثرة النوم، والترامي بالشحم واللحم وليس ذاك مما يستحسن في رشيقات النساء

وقال امرئ القيس في غير هذه القصيدة:

إذا مـــــا الضـــــجيع ابتزهـــــا مـــــن ثيابهـــــا

تميـــــل عليـــــه هونـــــة غيـــــر مجبـــــال

كحقـــــف النقـــــا يمشـــــي الوليـــــدان فوقـــــه

بمـــــا احتســـــبا مـــــن لـــــين مـــــس وتســـــهال

وأين هذا من الجسم الذي لا فضول فيه؟

فلو أن (القارئ) الفاضل الذكر هذا وما جرى مجراه من الشعر الذي قاله الشاعر أو نسب إليه لعلم أن صاحبنا في عالم غير عالم التعريف بالجمال المثالي أو المذاهب الفنية فيه، بمعزل عن أهواء الفنانين، ولعلم كذلك لماذا وضعنا كلمة (محبوبات) بين قوسين قبل أن نسمع منه مثل هذا الاعتراض، فأن وصف الرجل لامرأة يحبها ويستمتع بها غير وصف الفنان للجمال الخالص أو لصفاته التي تبلغ مبلغ الكمال، والتي تدركها القرائح معنى من المعاني كمعنى البيت والصورة والنشيد والتمثال.

ومصداق ذلك أن كاتب هذه السطور وصف امرأة محبوبة في رواية سارة:

(هي جميلة لا مراء. ليست أجمل من رأى همام في حياته، ولا أجمل من رأى في أيام فتنته وشغفه، ولكنها جميلة جمالاً لا يختلط بغيره في ملامح النساء. فلو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هي منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف، ونحّيت سارة عن الصف وحدها... فمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام، ولها ذقن كطرف الكمثري الصغيرة، واستدارة وجه، وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لمحة الناظر؛ وبين وجهها النظير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقاُ لتمام الحسن من كليهما... وتكفل بها مدير معهد من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئا من قوامها الرواح بين الربعة والطويل قبل أن يبرزها في معرض الرقص والرشاقة. ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث قبل أن يزفها إلى الشاهنشاه)

فالمرأة المحبوبة شيء والمرأة الموصوفة على مثال الجمال في معانيه المجردة شيء آخر.

وامرئ القيس لم يحبب قط امرأة على مثال الجمال، وإن كان قد وصف من النساء شمائل محمودة عند من ينظرون إلى ذلك المثال. ولعله فطن لهذه الشمائل بذوق الحاضرة وذوق الإمارة، لا بذوق الأعراب في عماية الجاهلية. ولو أنه تعمد أن يرسم للأنوثة مثالا موافقاً لمعاني الجمال بمعزل عن المتعة أو الرغبة الجنسية لأعياه المطلب، لتخلف الأوان وندرة الأسباب.

سألني سائل: أولا تكون المرأة إذن جميلة على شرط الفن والرياضة الحديثة إلا أن يكون وزنها قنطاراً أو دون القنطار؟

وجاوبنا الذي نطمئن به الكثيرين على عجل: كلا! قد تكون ووزنها قنطاران، إذا تهيأ لامرأة أن تبلغ من الطول والجسامة ما تزن به القنطارين في غير فضول واسترخاء.

وستتلو هذا المقال (حاشية على التفريع) نتم فيها ما ينبغي إتمامه من هذا البحث الذي لا فضول فيه!

إذا كان الجسم الجميل هو الجسم الذي به فضول، فما هو الفضول الذي يعيب الأجسام؟

الفضول في تعريف عاجل هو الزيادة عن الحاجة. ونعود فنسأل: ما هي الحاجة؟. أن الجسم قد يحتاج إلى الصحة، وقد يحتاج إلى الحركة، وقد يحتاج إلى الظهور، وقد يحتاج إلى الخفاء، فكيف نعرف الحاجة التي يتعلق بها الفضول ثم يتعلق بها النظر إلى الجمال؟

نقول في تعريف عاجل أيضاً: أن الحاجة إلى إنجاز (الوظيفة الحية) في تكوين الأحياء , فالزرافة لها عنق طويل لا نستقبحه إذا رأينا هذا الحيوان، ولكنا لو رأينا عنق الزرافة على جسم حصان لقلنا أنه حصان قبيح مشوه مختل التكوين؛ والتشويه والجمال ضدان لا يجتمعان .

يسأل سائل فيقول: إذن يرجع الجمال إلى المنفعة؟ إذن نستطيع أن نقول إن العضو الجميل هو العضو النافع على وجه من الوجوه؟

ونسرع فنقول: لا. أن الجسم النافع ليس هو الجسم الجميل في جميع الأحوال، بدليل أن هناك حيواناً أجمل من حيوان، فلماذا يكون الحصان مثلاً أجمل من الزرافة أو تكون الهرة مثلا أجمل من الفار إذا كان المرجع في نظر الجمال إلى منفعة الأعضاء؟

كل عضو في حيوان فهو نافع لذلك الحيوان، وعنق الزرافة نافع لها لأنها حيوان يعيش في الغابة ويختار من لطائف الشجر كل ما ارتفع في الأغصان. ولكن لماذا كان عنق الحصان أجمل من عنق الزرافة؟ ولماذا كان الحصان في جملته أجمل من الزرافة في جملتها، وكانت حركة الحصان أجمل من حركة الزرافة في السرعة أو المهل؟

ذلك أن مرجع الأمر في نظر الجمال إلى شيء غير المنفعة للحيوان أو لمن يستخدم ذلك الحيوان مرجع الأمر إلى الحرية كما بينا في مقالات كثيرة سبقنا بنشرها قبل

سنوات, فكلما كان الجسم أقل ضرورة وأكثر حرية كان أقرب بذلك إلى الجمال؛ وعنق الزرافة يفيدها بالغابة، وليس هذا هو الشأن في عنق الحصان فأنه لا يفيده بمكان. فهو من ثم أجمل من الزرافة في هذا الاعتبار.

وإنما نرجع إلى (الوظيفة الحية) لنعلم أن الطول أو القصر في جزء من أجزاء الحيوان ليس بطول تشويه ولا بقصر تشويه، لأن التشويه الجمال لا يتفقان

فأنت إذا رأيت عنقا طويلا على كتفي زرافة لم تحسب أنها زرافة شائهة أو زرافة ممسوخة؛ ولم يمنعك إذن مانع التشويه أن تحسبها (زرافة جميلة)

أما إذا رأيت هذا العنق كما هو على كتفي غزال، فانك معتقد فيه المسخ والتشويه على البديهة، ومعتقد من ثم أنه لن يكون على شيء من الجمال، بل هو نقيض الجمال

على هذا المعنى كان جسم الرجل أجمل من جسم المرأة، وإن صعب فهم هذا على بعض الأذواق التي تنساق بالغريزة، دون النظر إلى جمال المعاني وجمال الأوضاع

فمن رأى جسم المرأة رأى لأول وهلة أنه جسم ملحوظ فيه ضرورات كثيرة، وأنه منظور فيه إلى مخلوق آخر غير صاحبة الجسم التي لا تحتاج إلى ذلك التركيب، وهذا المخلوق الآخر هو أما الجنين الذي تحمله في أحشائها، وإما الرجل الذي ينظر إليها نظرة الاستحسان

فإذا قلنا إن العضو الجميل هو عضو يحمل نفسه ويخيل إليك أنه غير محمول على سواه فالمرأة كلها محمولة على تركيب حيوان آخر منعزل عنها، ولا بد أن يجوز على ما في تركيبها هي من معاني الجمال العليا

فيلاحظ في أغلب أجسام النساء طول الجذع واتساع المسافة بين الحرقفتين، وإنما يوجب ذلك أنها في حاجة إلى مكان الجنين ومكان خروجه بعد تمام حمله، وقل ذلك في النهدين والثديين، أو قل شبيهاً بذلك في ضيق الكتفين، فان قصر الكتف وضعفها لا يضيرانها في إنجاز وظائفها، فهي على هذا المعنى تنجز وظيفتها بزيادة في مواضع ونقص في مواضع أخرى منظور فيها جميعا إلى تركيب خارج عن تركيبها؛ ولن

يبلغ الجسم حد الجمال الأقصى ما دام جماله معلقاً على شيء غيره؛ وما دام ذلك الشيء أولى بالملاحظة والتقديم في بعض الأحوال

لهذا يصعب التوفيق بين ضرورات الوظائف الحية وبين معاني الجمال المطلق في جسم المرأة

فالمرأة التي يقصر جذعها ويضيق حوضها هي جسم جميل؛ ولكنها قد تجور بجمالها على أمومتها

والتوفيق بين الأمرين من أندر الأمور، في حين أن جسم الرجل لا يحتاج إلى صعوبة في التوفيق بين إنجاز شرائط الأبوة فيه وإنجاز شرائط الجمال

ومع ندرة التوفيق بين الشرطين في المرأة، لا غنى عن التجوز والتسهل في كثير من الأحوال، فأقصر النساء جذعاً وأضيقهن حوضاً وأكملهن أكتافاً لا يحمد منها أن تلوح كالرجل في تركيب هذه الأعضاء؛ ولا بد من التجوز والتسهل في بعض الزيادة على الردفين وبعض النقص على الكتفين، وإلا كان ضمور الردفين ضموراً تاماً علامة تشويه لا علامة جمال، إذ كان الأصل في المرأة أن لها وظيفة الحمل والولادة، فإذا تجردت من هذه الوظيفة فهي مشوهة، وإذا احتفظت بها فمن مرض؛ ولا شك أن تكون عظام الردفين غير مكسوة باللحم الذي لا بد منه لكل جسم صحيح سليم

وعلى هذا تكون المرأة جميلة ولا تكون قنطاراً واحداً لا زيادة عليه تكون جميلة إذا قل فيها الفضول ولو زاد الوزن غاية ما يقدر له المزيد وتكون مع ذلك (امرأة جميلة) وليست جميلة بمعاني الجمال على إطلاقها؛ وهي كما أسلفنا القرب من الحرية والبعد من الضرورة؛ وأن يكون الجسم معلقاً على نفسه غير معلق شروط في خارجه، سواء صعب أو سهلت في التحصيل

ولا بد من التجوز والتسهل على هذا الاعتبار في حدود ما قدمناه ويلحق بتفصيل ما قدمنا الجواب عن سؤال وجهه إلينا الأديب (عبد المنعم شلبي) يقول فيه:

(هل يعجز امرئ القيس وهو ذلك الفنان البارع ذو الخيال الوثاب الذي استطاع أن يتذوق جمال الطبيعة ويترجم عنها في قصائد عن رسم مثال للأنوثة موافق لمعاني

الجمال بمعزل عن المتعة لتخلف الأوان؟ وهل لتخلف الأوان دخل في تقدير الجمال؟ وإذا كان كذلك فمالنا نرى تمثال فينوس مع تخلف أوانه رمزاً ومقياساً لمعاهد الجمال في العصر الحديث؟)

والجواب أن أحيل الأديب صاحب السؤال إلى ما أسلفت عن سبب قصور امرئ القيس في تعريف مقاييس الجمال، فأنني لم أقل أنه يقصر في هذا الباب لتخلف الأوان ثم سكت على ذلك؛ بل قلت أنه يقصر فيه (لتخلف الأوان وندرة الأسباب)

ومن الأسباب ولا جدال أن الأعراب في البادية لم يصنعوا التماثيل كما صنعها اليونان الأقدمون أصحاب فينوس، ولم يشغلوا عقولهم وأذواقهم وأخيلتهم بمطالب هذه الفنون، وما تستتبعه من دراسة للأجسام ونظر في تمثيل الأعضاء

وليذكر الأديب صاحب السؤال أن الله عز وجل وعلا لم يغضب على المحدثين جميعا لأنهم محدثون، بل خلق فيهم أناسا وهبهم (الفن والخيال والبراعة وأتاح لهم يتذوقوا جمال الطبيعة).. فإذا تساوى ما بينهم وبين امرئ القيس في هذه الناحية فهناك زيادة العصر الحديث بل زياداته التي يضيق بها الحصر في مذاهب الفنون والأذواق والعلوم والأرقام.

الشاطئ قليل الزوار، مقفر أو وشيك الإقفار، وقد ظهرت الكروش في الحمامات، فكان ذلك علامة من علامات (التقويم) الذي اصطلح عليه رواد الشواطئ ومراقبوها، فلا تظهر النساء ذوات الكروش في الحمامات المشهورة إلا كان ذلك دليلاً على إقبال الخريف وانقضاء الصيف. إذ كان الزحام مغرياً بالتنافس في محاسن الأجسام، فإذا قل الزحام قل التنافس واجترأت على الظهور، من لم تكن قبل ذلك تجترئ على العبور وقضى الله ألا يكون شيء من الأشياء نافعاً كل النفع ولا ضاراً كل الضرر. فمن محاسن الشاطئ الذي كثرت أضراره في رأي الوعاظ والمرشدين أنه يهدي إلى حاسة الجمال ويبثها في سليقة النساء والرجال. وهذا غرض كان الأقدمون يتوخونه بالرياضة، وكان الإسبرطيون يبلغونه بإقامة المواسم التي يتبارى فيها الفتيان والفتيات في مرانة الأعضاء ومرونة الأوصال. ولا ينحصر النفع بعد ذلك في تحسين الجسد أو تحسين الذوق أو تحسين الحركات، بل8 يسري إلى الأذهان والأخلاق والأعمال والمعاملات، فإن الذي تعود ملاحظة الجمال في تركيب الجسم وتوجيه حركاته خليق أن يتعود مثل ذلك في فهم الأمور وتقدير المناقب والصفات، ثم يقل اشتهاؤه للجسد من ناحية الغريزة الحيوانية، لأنه لا يستطيع أن يشتهي كل ما يراه، ولأنه يألف ما يراه ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم فينظر إليه نظرته إلى الصور والتماثيل، ويعرضه على مقاييس الفهم والتمييز، ولا يعرضه على مقاييس الشهوات واللذات

فالحسناء التي تبدو على الشاطئ عارية أو شبه عارية لا تثير من غريزة الناظر بعض ما تثيره وهي لابسة جلباب النوم في شرفة الدار، فإذا كان ما يراه مائة حسناء - ولم يكن فرد واحدة - فليس في وسع غريزته أن تنطلق في جماع شهواته ونزواته، ولا بد له من الإخلاد إلى التأمل والاكتفاء بالنقد والتمييز والتطبع بهذا الطبع والإعراض عن حكم الغريزة وحده في النظر إلى الأجسام

وعلى الشاطئ يعرف الناظر معنى الاصطلاح في قوانين الاجتماع، ويعرف أن مسألة الملابس أكثر ما تكون مسألة اصطلاح وعادة وتواضع بين الأمم كل أمة بما درجت عليه وجنحت مع الزمن إليه

فقد كنا نجلس في ديوان من دواوين الحكومة والى جانبنا نافذة تطل على الطريق، وأمام النافذة بيوت وشرفات، فظهر على إحدى هذه الشرفات رجل يلبس (البيجامة) أو المنامة كما سماها صديقنا المازني وأصاب في إحدى قصصه الصغار، فما راعني إلا تأفف لمحته على وجه الموظف الكبير الذي كنت أزوره، وإذا به يصيح في غضب واشمئزاز: أهذا أدب؟ يتعلمون لبس المنامات ولا يتعلمون كيف يلبسونها وأين يدارونها عن الأنظار؟

فخطر لي أن الدعابة هنا واجبة وأنها من الدعابات التي يجئ معها البحث وتحسن فيها المناقش، فقلت:

أترى الفرق عظيما بين المنامة والملابس التي يلبسها الموظفون من أهل الهند في دواوين الحكومة؟ أليس السروال هنا أسبغ على الجسم وأدنى إلى الوقار؟

فسكت قليلاً كأنما كان هذا السؤال لا يخطر له على بال، وراح يقول في تلعثم: (ولكن الناس عادات، وما يجوز في الهند قد يعاب بيننا نحن المصريين، وهذه المنامة من ملابس الأوربيين فإذا اقتدينا بهم فيها فليكونوا قدوة لنا في مواضع لبسها وآداب الأزياء عندهم في جملتها..)

وكان جوابه في الحقيقة مقطع القول وفصل الخطاب في مثل هذا الموضوع، لأن المسألة مسألة اصطلاح وتقدير، فإذا كانت البيجامة لباساً للنوم والتبذل فهي لا تحسن في غير مواضعها من البيت أو مواضعها من رفع التكليف، ولا محل للمقابلة بينها وبين أزياء أهل الهند في دواوين الحكومة لأن الهندي الذي يلقاني بالقميص الطويل والسروال الواسع لا يعتقد ولا أعتقد أنا أنه يلقاني بثياب التبذل أو بثياب النوم، وهذا هو الفارق الذي يفصل بين زي وزي في مشارق الأرض ومغاربها، ولا فارق سواه في اعتبار الثياب والأزياء

إن لاعب الكرة لا يغطي من جسمه نصف ما تغطيه المنامة، ولكنه يظهر بين مئات الألوف في ميدان لعب الكرة ولا يقدر على الظهور بالمنامة لواحد من الزوار غير من يعاشرونه في البيت ويرفعون بينهم وبينه التكليف، وقد بلغ من تحرج بعض الأوربيين أنه لا ينتقل إلى حجرة الاستقبال في داره بغير ملابس الاستقبال، ولو لم يكن هنالك أحد من الزائرين , فالمسألة كلها مسألة اصطلاح حسب الوقت وحسب المكان وحسب السكان

ومن أجل هذا جاز أن يمشي الرجل والمرأة على شاطئ الحمام كالعاريين، ولم يجز لهما في عرف الشرطة أو عرف السابلة أن يصعدا السلم بهذه الحالة إلى عرض الطريق. ولقد يكون الشاطئ حافلا بالمئات من النظارة مستحمين أو غير مستحمين، ويكون الطريق خلوا من عابر واحد في تلك اللحظة، ولكن الاصطلاح وحده هو الذي يمنع هنا ما يجيزه هناك

ليست المسألة إذن مسألة طول (القماش) ولا مسألة شكله ولا مسألة تفصيله أو الجانب الذي يبديه أو الجانب الذي يخفيه، ولكنها كما أسلفنا مسألة المعنى الذي يوقعه في روع الناظر والشعور الذي يبعثه ويوحيه. ومن ثم يأتي اليوم الذي يغلب فيه الاصطلاح المتبع على الاصطلاح المهجور، وتخف وطأة الحكم الذي نحكمه على المستحمين والمستحمات ونحن صادرون عن معنى سابق وشعور قديم

على الشاطئ يعرف الإنسان هذا جميعه ويعرف معه سلطان الإرادة على تكوين الأعضاء، وتكوين الأذواق

فالأجسام الحسان التي ترى هناك لم تولد كلها ولا ريب على هذا الصقل وعلى هذا الهندام، ولعلها لم تكن كذلك قبل عام أو عامين، ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفعل العلاج في الغذاء والعلاج في الحركة والعلاج في سائر الأعمال

وبهذه المثابة نفهم سلطان الإرادة، ونفهم أن الإرادة مسخرة لشعور الجمال حين يستعصي تسخيرها لشعور العقائد والفرائض والعادات

فهذه الحسناء اللعوب التي تحرم نفسها القوت والراحة وتنظر أمامها مشتهيات الطعام على المائدة فلا تقربها، وتصبر على يد الحلاق ساعات، وعلى يد الطبيب شهوراً وسنوات - كم تطيق من كل هذا أو بعض هذا في شهر رمضان؟

وكم تطيق من كل هذا أو بعض هذا إن كانت مسيحية وفرض عليها الدين أن تجتنب اللحوم والأسماك في بعض الأيام؟

بل كم تطيق من كل هذا أو بعض هذا إن قيل لها إن خطراً على الحياة يوجب عليها الصيام عن هذا الطعام أو التدثر بهذا الكساء على غير أحكام المساهر والأزياء؟

ختام

بدأنا بقنطار ثمين فأجملنا ما نراه من مذهب في صفات الجمال، وكانت خلاصته أن الجسم الجميل هو الجسم الذي ليس به فضول، وهو الذي يحمل كل عضو فيه نفسه غير محمول في مشهد العين على سواه، وهو الذي يكون مقياس الفضول فيه أداء الوظيفة، ومقياس الوظيفة بين عضو وعضو وبين حيوان وحيوان قربها من الحرية وبعدها من القيد والضرورة وهذا مقياس أعضاء وأجسام ومقياس معان أيضاً وأفكار وأرواح .

فإننا بهذا المقياس نعرف الكلمة الجميلة والشعر الجميل والخلق الجميل والفكر الجميل , فلن يكون جميلاً فكر به فضول فهو زائد فضفاض في غير طائل، أو فكر فيه قصور فهو مفتقر إلى غيره وليس بمحمول على نفسه، أو فكر يظهر فيه عجز التقييد وعسف الضرورات

وذلك ما أردناه حين قلنا إن الجمال يخرج الأجسام من عالم الشهوات والنزوات إلى عالم المعاني والأرواح، وأن العين التي تنفذ إلى لبابه تنظر إليه كما تنظر إلى الحقائق العليا، وإلى الأصول الشائعة في نظام الوجود كافة؛ فإذا اتفق أن يعبث العابث بالجمال فكما يتفق أن يسرق السارق جوهرة نفيسة: لا يسرقها لأنها جميلة وهو يحب الجمال، ولكنه يسرقها لأنه يستحضر في ذهنه السوق، والسوء!

ثم رجعنا إلى بقية الذهب، ثم تلاحقت الملحقات من تفريع إلى حاشية إلى تذييل، إلى هذا الختام، وكان به ختام الصيف وختام السفرات في كل أسبوع إلى الإسكندرية أكتبه إلى جوار الصحراء صديقتي القديمة منذ عرفت الأصدقاء في الأماكن والبقاع وأصغي فلا أسمع الأمواج كأنها فوران القدر العظيمة عند ميناء الإسكندرية، ولا أسمع الأمواج كأنها غطيط النائم في اطراد رتيب عند ميناء مرسى مطروح، ولا أسمع الأمواج كأنها المارد الوديع الحالم عند ميناء السلوم، فلا هدير له ولا ضجيج، بل سكون كسكون النيل في ساعة صفاء قرير

لا أسمع الأمواج ولكني أسمع الصحراء، ومن طالت عشرته للصحراء سمعها وهي تسكت، وسمعها وهي تصخب، وسمعها وهي لا تحفل بأسماع، ولخص ذلك كله في كلمة واحدة، وهي القناعة أو الاستخفاف أو القوة التي تغالب الأزمان؟ لأن الأزمان تقوى على التغيير. . فإذا لم يكن تغيير فماذا يبلغ من قوة زمان واحد أو من قوة جميع الأزمان، وإذا كان التغيير لا يغير منها الحقيقة ولا يمس منها إلا العرض فلماذا تباليه الصحراء؟

ورجعت أعرض صور الإسكندرية فإذا هي كثيرة تتصل بها أجزاء الدنيا وترينا كيف يتشعب العالم وكيف يؤول إلى التماثل والتوحيد , فالعالم اليوم يحكمه زي واحد تبصره في شواطئ القارة الحديثة، وتبصره في شواطئ الصين، كما تبصره في شواطئ بحر الروم وفي شواطئ بحر الظلمات، الذي ليس فيه اليوم ظلمات , أو هذا كل ما هنالك من تماثل وتوحيد بين أجزاء العالم المتنابذ المستعد في هذه الساعة لأشنع الحروب كلا. بل هنالك تقارب بين المثل والأوضاع في كثير من الأمور

هنالك العملة التي كانت من قبل أخص الخصائص فيما يسمونه بالسيادة القومية فأصبحت اليوم موضع التفاهم والاتفاق بين شتى الحكومات

وهنالك المحظورات والتواصي بمنعها بين الدول من الرق إلى المخدرات إلى المهربات

وهنالك الجيوش والمؤتمرات التي تنعقد من حين إلى حين لتقرير عددها وتقرير سلاحها وتقرير نظامها، وإن لم تسفر عن وفاق وإجماع

بل هنالك الحرب التي لا يتأتى أن تنفجر في مكان إلا عمت جوانب الأرض بعد بضعة أسابيع

فالعالم يمضي إلى التماثل والوحدة، ولا ينفي هذه الحقيقة أنه ماض كذلك إلى الوحدة في الشرور والنكبات، بل إن هذا ليؤكدها ويجلوها في جانبها المخيف كما يجلوها في جانبها المأمون، وجانبها المحبوب

أزياء الشاطئ تكشف لنا هذه الحقيقة وتكشف لنا معها حقيقة أخرى يأسى لها كثيرون ويغتبط بها كثيرون , أو لم يكن الراقصون والمغنون وأصحاب الملاهي والملاعب نفاية الجماعة الإنسانية في الأجيال القريبة؟

فأنظر اليوم من ذا الذي يفرض على الناس الأزياء والآداب؟ ومن ذا الذي يملي عليهم ما يشتهون وما ينبذون؟!

إنهم هم نفاية المجتمع بالأمس وسادة المجتمع اليوم!

إنهم فتيان هوليود وفتيات الستار الأبيض فيها وفي كل مكان

فأين هي اليوم تلك السيدة التي تخجل من ظهورها في مظهر الممثلات على ذلك الستار؟

وما معنى ذلك إلا أن المجتمع ينقلب رأساً على عقب ثم لا يستقر على هذا الانقلاب؟

وهل بعيد ما بين هذه الحقيقة وبين حقيقة أخرى في عالم السياسة الدولية نشهدها ونسمعها الآن فيما نشهد ونسمع من نذير وشرر مستطير؟

ما معنى الحرب اليوم إلا أن نفايات المجتمع قد أصبحوا يسوسون الدول ويقودون الشعوب ولا يؤمنون إلا بما يؤمن به النفايات من غلظة وجور وعنت وتحطيم؟

لئن كان الحجر على هذه النفايات فيما مضى ظلماً لقد رأينا الساعة أن سيادتها ليست بأنصاف، بل فيها الظلم والإنصاف مزيج كريه المذاق، ومصفاة الزمن خير كفيل بالتصفية والترويق، ولا خوف على الزمن آخر الأمر من العجلة ولا من الأناة..

صور كثيرة بقيت في خلدي من الإسكندرية كأنها صفحات مقسمة من معارض الفن والحياة والتاريخ

وستبقى ما قدر لها البقاء، وسيكون من إبقائها وأولاها بالبقاء صورة واحدة لمخلوق ضعيف أليف يعرف الوفاء ويحق له الوفاء، وذلك هو صديقي (بيجو) الذي فقدناه هناك. وأني لأدعوه صديقي ولا أذكره باسم فصيلته التي ألصق بها الناس ما

ألصقوه من مسبة وهوان، فإن الناس قد أثبتوا في تاريخهم أنهم أجهل المخلوقات بصناعة التبجيل وأجهلها كذلك بصناعة التحقير. . فكم من مبَّجل بينهم ولا حق له في أكثر من العصا!

وكم من محَّقر بينهم ولا ظلم في الدنيا كظلمه بالازدراء والاحتقار!

وكنت أقدر أنني سأخلو من العمل في مجلس النواب ثلاثة أشهر الصيف الشديد، فأخلو بنفسي وبالبحر والصحراء في مرسى مطروح أو في السلوم، وأفرغ هناك لتأليف كتابي

الذي جمعت له ما جمعت من الأخبار والوقائع عن الصحراء وأبنائها الأقدمين والمحدثين

فلما تواصلت الجلسات أزمعت أن أقضي أياماً في القاهرة وأياماً في الإسكندرية من كل أسبوع، ولم أصحب بيجو في الرحلة الأولى ولا في الثانية ولا عزمت على اصطحابه بقية أشهر الصيف، اكتفاء بأن أراه أيام مقامي في القاهرة وأن أعود إليه كل أسبوع

ولكن المخلوق الأمين الوفي أرغمني على مصاحبته كلما ذهبت إلى الإسكندرية وكلما رجعت منها، لأنه صام عن الطعام صومة واحدة في الرحلة الثانية، وزاده إصراراً على الصيام أننا كنا نتركه في كفالة الشيخ أحمد حمزة طاهينا القديم الذي يعرفه قراء كتابي (في عالم السدود والقيود)

والشيخ أحمد حمزة كما علم أولئك القراء رجل يكثر الصلاة والوضوء ويعتقد نجاسة الكلاب فلا يقربها إلا على مسافة أشبار

وبيجو مخلوق حساس مفرط الإحساس ما هو إلا أن تبين النفور من الشيخ أحمد حتى قابله بنفور مثله أو أشد وأقسى. فكنا إذا تعمدنا تخويفه وزجره نادينا: (يا شيخ أحمد). . . فإذا بيجو تحت أقرب كرسي أو سرير، ثم لا يخرج من مكمنه إلا إذا أيقن أن الشيخ أحمد حمزة بعيد، جد بعيد

فلما استحال التوفيق بينهما واستحال إقناعه بالعدول عن الصيام في غيابنا أصبح بيجو من ركاب السكة الحديد المعروفين بالذهاب والإياب، واصبح يزاملنا من

القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى القاهرة كل أسبوع، وشاعت له نوادر في معاكسته للموظفين ومعاكسة الموظفين له، يتألف منها تاريخ وجيز...

ثم أصابه في الإسكندرية ذلك المرض الأليم الذي كان فاشياً فيها واستعصى علاجه على أطباء الحيوان، فلزمته في مرضه مخافة عليه من مشقة السفر، وعلمت أن الأمل في شفائه ضعيف، ولكني لم أجد مكاناً أولى بإيوائه من المكان الذي أراه ويراني فيه

وإني لفي ظهيرة يوم بين اليقظة والتهويم إذا بهمهمة على باب حجرتي وخدش يكاد لا يبين، ففتحت الباب فرأيت المخلوق المسكين قابعاً في ركنه يرفع إلي رأسه بجهد ثقيل، وينظر إلي نظرة قد جمع فيها كل ما تجمعه نظرة عين حيوانية أو إنسانية من معاني الاستعطاف والاستنجاد والاستغفار: أحس المسكين وطأة الموت فتحامل على نفسه، وخطا من حجرته إلى باب حجرتي، وجلس هناك يخدش الباب حتى سمعته وفتحت له، وهو لا يزيد على النظر والسكوت كان اليوم يوم أحد، ولكنا بحثنا عن الطبيب في كل مظنة حتى وجدناه، وقد شاءت له مروءته الإنسانية أن يفارق صحبه وآله في ساعة الرياضة ليعمل ما يستطيع من ترفيه وتخفيف عن مريضه الذي تعلق به وعطف عليه، لفرط ما آنسه أثناء علاجه من ذكائه وألاعيبه ومداعباته، ولكنه وصل إلى المنزل وبيجو يفارق هذه الدنيا التي لم يصاحبها أكثر من سنتين

سيبقى من صور الإسكندرية ما يبقى، وسيزول منها ما يزول، ولكني لا احسبني أنسى ما حييت نظرة ذلك المخلوق المتخاذل يقول بها كل ما تقوله عين خلقها الله، ويودعها كل ما ينطق به فم بليغ من استنجاد واستغفار، كأنه يعلم أنه أقلقني ولا يحسب ما كان فيه عذراً كافياً لإقلاق صديق. ومن شهد هذا المنظر مرة في حياته علم أنه لا ينسى، فأن لم يعلم ذلك فهو أقل الناس حظاً من الخلائق الإنسانية، لأن البعد من العطف على الحيوان لا يجعل المرء بعيداً من الحيوان، بل يقربه منه غاية التقريب

الصقر نحن به أولى

كتبنا في (الرسالة) قبل عام كامل على التقريب مقالاً عن الحكيم الحاكم (مازاريك) رئيس الجمهورية في بلاد التشك والسلواق ختمناه بما يأتي:

(سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفذ. أولها: أن الفيلسوف لن يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير وأسلف الجهاد الطويل في قضايا المظالم والشكايا. وثانيهما: أن الديمقراطية لا تسلم في وطن تختلف أجناسه ولغاته وأديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس الولايات المتحدة التي يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع. وثالثها: أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب العظمى غيلا تصطرع فيه ضواري الأحقاد ويوشك أن يندفع بالعالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة. وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة، وما تعاورها من نقص وتقويض لا تزال على إيمان وثيق بأنها هي كهف السلام ومعقل بني الإنسان، ومآل الحكم في المستقبل البعيد إن لم يعجل لها النصر في مستقبل قريب.

(فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية؛ وبريطانيا العظمى، وفرنسا، والولايات المتحدة، لا يخشى منها على سلام العالم كما يخشى من إيطاليا، وألمانيا، واليابان والجمهوريات الروسية)

كتبنا هذا المقال على أثر وفاة مازاريك، ودار العام والحوادث تثبت لنا أن كثيراً من المسائل الأوربية خليق أن ننظر إليه كأنها مسائل (محلية) نكترث لها في أوانها وقبل أوانها لنصبح على أهبة دائمة للقائها، ثم نثبت لنا الحوادث أن الجمهورية التشكية لو بادرت إلى تعميم نظام الولايات المتحدة بين شعوبها الصغيرة لكان ذلك خيراً لها، وإن كنا لا نظن أن أسباب الأزمة الدولية الأخيرة تنحصر في هذه الوجهة، لتعدد وجهات المسائل الدولية عامة

ولا أدري لم نشعر بالعطف على بلاد الفيلسوف مازاريك ونود لها الحياة والسلامة؟ فلعل السبب الأول أنها هي بلاد الفيلسوف مازاريك وأنها (تشخصت) في

مثال إنساني رفيع محمود العمل والأثر معروف في عالم الأدب والحكمة معرفة الناس به في عالم السياسة والإدارة والكفاح

ولعل أسباباً أخرى ترفد ذلك السبب الوجيه الراجح، ونعني بها الأسباب التي توجب العطف على كل شعب صغير مجاهد صبور يحمل من الأعباء فوق ما يطيق، ولكنه لا يرزح بتلك الأعباء ولا يعالجها بالحول والحيلة حتى يروضها ويمشي بها إلى غايته القصوى وهي أشرف الغايات، لأنها غاية الحرية والثقافة والجمال

شعب مازاريك مثل جميل من أمثلة الجهاد الحسن في سبيل الحرية والقوة والجمال، سلبته الدولة النمساوية سلطانه فلم يستسلم ولم يركن إلى الخنوع والمهانة، وصنع ما هو أنبل وأكرم من ذلك لأنه جاهد في رفع الضيم فلم يقصر جهاده على المؤامرات والمشاغبات وحوادث الغيلة والانتقام، بل عمد إلى التعليم فأشاعه بين أبنائه حتى محا الأمية محوا قبل أن تفلح الشعوب القوية في محوها من بلادها. ثم لم يكفه ذلك حتى أدرك أن الكتابة والقراءة لا تكفلان وحدهما الغلبة والحرية للشعوب الضعيفة، فأضاف إلى سعيه في نشر التعليم سعياً آخر في نشر الفتوة بمعناها الأصيل، ومعناها الأصيل في عرفنا أن يكون الإنسان شهم النفس شهم الجسم شهم الذوق سريعاً إلى ما يجمل ويحسن بأدب الإنسان وذوقه واستجابته لدواعي الحياة

تلك هي حركة (الصقر) التي شاعت في أوربا باسم (الصكل) وقلنا في عنوان هذا المقال إننا نحن أولى بها من غيرنا، لأننا نرجح أن أصل الكلمة عربي أخذته أمم السلاف من جيرتها الأسيوية إذ تعلموا الصيد والفروسية قديما من سادات العرب يوم غلبة سلطانهم على أواسط آسيا وتخوم بلاد المغول، فأصبح اسم الصقر مصحفا عندهم باسم (الصكل) وهو عنوان الحركة الرياضية الكبرى في أمتي التشك والسلواق

رأس هذه الحركة المباركة هو (تيرش) العظيم أوحاها إليه أنه زار بلاد الإغريق في أواسط القرن الماضي فراعته المثل العليا التي أقامها الإغريق الغابرون لجمال الفتوة وصحة التكوين، وعلم أن نهضة الكتابة والقراءة لا تغني أمته عن نهضة النفس من طريق رياضة البدن وثقافة الذوق ونشاط الشعور، فأجمع النية الصادقة على إنهاض قومه في هذا الطريق، وأعد عدته لتنظيم الفرق الصغيرة فالفرق الكبيرة لتدريب

الرجال والنساء من سن الطفولة إلى سن السبعين وما بعد السبعين، وما يعني بذلك التدريب إلا أن يجعل الجسم على أصح وأصلح مثال يستطاع، فلا يترك لعضو من الأعضاء بقية من كمال يستطيع بلوغها إلا استوفاها على نمط جامع بين الصحة والقوة والنسق والجمال. وأوجز ما نلخص به فلسفته الرياضية أنها رياضة جسدية موسيقية، لا تقصر على سهولة الحركة الجثمانية بل تقرن بها الرشاقة والوزن والتنغيم

وكان (غاريبالدي) الإيطالي يومئذ قدوة المجاهدين في سبيل الأوطان، فلما عبر (تيرش) بالبلاد الإيطالية راقه أن يستعير (القميص الأحمر) للفرق الجديدة وجعل لها قبعة عليها ريشة صقر فمن هنا اسم أو الصكل الذي عرفت به هذه الحركة الرياضية الكبرى، وهو لفظ (الصقر) بلغة التشك والسلواق

قال روبرت يونج في كتابه (شاب ينظر إلى الديار الأوربية) رواية عن رجل في الستين يصف الحركة وهو يشاهدها في ميدانها ببراغ:

(معظم الأعضاء يتصرفون لمعاشهم نهارا ويتلقون تدريبهم الرياضي أثناء الليل... ولا حاجة بنا إلى الرياضيين المحترفين لأننا نؤمن بأن الديمقراطية ينبغي أن يكون لهم من العقيدة الديمقراطية أن يبذلوا اختيارا وطواعية جزءا من وقتهم لتجميل أحوالهم الجسدية)

واستطرد الكاتب إلى بيان موارد الإنفاق على الحركة فإذا هي قائمة على جيوب أعضائها والقسط اليسير الذي يؤديه كل منتم إليها، أما معونة الحكومة فهي شيء طارئ وهي مع ذلك تنقص عاما بعد عام تبعا لتفاقم الأزمة المالية واشتدادها على كاهل الحكومة والأمة

وقال ويكهام ستيد الكاتب المشهور يصف عرض (الصكل) في شهر يوليه الماضي، خلاصته: (أي جندي لا يأخذه منظر ثمانية وعشرين ألفاً من الشبان الأصحاء الأشداء يمشون في ميدان مازاريك الذي تبلغ مساحته خمسة وأربعين فداناً فيتفرقون إلى أماكنهم جميعاً لابتداء التدريب الإيقاعي في خلال ربع ساعة، ثم ينتهي التدريب فينصرفون كرة أخرى ثمانين صفاً كل ستين في صف واحد خلال اثنتي عشرة دقيقة.

وإنني لأشك في استطاعة جيش منظم أن يعبر خمسة وأربعين فداناً جيئة وذهوباً وتدريباً في سبع وعشرين دقيقة دون أن يقع فيه شيء من الارتباك والعجلة. أما النساء وقد أدين تدريبهن قبل الرجال وبلغن ستة عشر ألفاً عداً فقد ضارعن الرجال في النشاط والنظام)

حركة الصقر هذه نحن أولى بها وأحوج إليها، وقد رأينا نموذجاً منها في (إصلاحية الأحداث) التي تشرف عليها مصلحة السجون، فرأينا كيف يراض المئات من الأطفال والصبية على الحركة الإيقاعية في وقت واحد بغير قيادة معلم أثناء الأداء، وعلمنا أن تعميم هذه الحركة مستطاع كل الاستطاعة لن يبذل الجهد الذي بذلته مصلحة السجون في تدريب أطفال نسميهم مجرمين

وما حاجتنا إلى حركة الصقر؟ إنها دفاع جنود يحمون الأوطان، بل هي كذلك وهي فوق ذلك عدة حياة لدفاع آفات كثيرة هي أشد خطراً من غارات الأعداء

إحياء الأدب العربي

نشرت الصحف اليومية أن صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف (يعنى الآن بدراسة طائفة من المشروعات التي ترمي إلى بعث كتب الأدب العربي القديم، وصوغها في أسلوب عصري يقرب من ذوق الطلاب ومريدي الأدب، وإن الوزارة تفكر في نشر المخطوطات المجهولة التي تتصل بالأدب المصري وفيها فائدة للطلاب)

وإن الوزير الأديب ليصنع خير صنيع إذا وجه وزارة المعارف هذه الوجهة النافعة، ولديها ولا ريب وسائلها الوافية. فالآداب العربية مشحونة بالذخائر النفيسة التي عليها طابع الذهن العربي والحياة المشرقية لا يشركها فيها أدب من آداب الأمم الأخرى بمثل هذه الخصائص أو بمثل هذه الوفرة. وعندنا في الكتب المطبوعة والمخطوطة ثروة من أدب النوادر والفكاهات والأمثال والآراء الموجزة والملاحظات النفسية لا تجتمع في أدب أمة أخرى. وأحسب أن الأجوبة العربية التي اشتهرت بالأجوبة المسكتة لو ترجمت كلها إلى اللغات الأوربية لغطت فيها على شهرة الأجوبة اللا كونية المنسوبة إلى إسبرطة والمأثورة بين الأوربيين بالإيجاز والإفحام والمضاء، وتشبه هذه الأجوبة الأمثال والحكم والمشورات والنوادر التي يسوقونها بغير تعقيب ولا تفسير، ولكنها كبيرة المغزى عظيمة الإيحاء عند التأمل فيها والتدبر في أغراضها. ويقترن بما تقدم كله سير (الشخوص) التاريخية التي ظلمناها بإهمالها واستصغارها، وإن في كلمة من بعض كلماتها، وفي حيلة من بعض حيلها، وفي خطة من بعض خططها، ما يسلكها بين أعظم الشخوص العالمية التي تحيا في سجلات التاريخ بكلمة أو بمشورة أو بخليقة من خلائق السيادة والسياسة

هذه ثروة يسرف من ينبذها وهو في حاجة إليها، ويسهل علينا جدًّا أن نضعها بوفرتها بين أيدي الناشئة المصرية فتغنم منها الفوائد الذهنية وتغنم منها الثقة النفسية في زمن كثر فيه المتحدثون بفضائل الأجناس والفصائل والأعراق

وقد نحصر الأسباب التي تحول بين الناشئة وبين هذه الثروة فإذا هي لا تخرج عن سبب من الأسباب الآتية وهي:

1 - التطويل والحشو

2 - التشتت والاختلاط

3 - صعوبة المفردات والمصطلحات

4 - العبارات النابية التي كان المؤلفون في جميع الأمم القديمة يقحمونها بين أخبارهم ولا يتورعون من التصريح بها لأنها من جهة لا تصل إلا إلى أيدي القليلين من نساخ الكتب للتعلم والإستفادة، ولأنهم من جهة أخرى كانوا يعيشون في زمن الفطرة التي لا نتحرج من بعض ما تحضره لباقات الحضارة وكناياتها

وجميع هذه الأسباب علاجها ميسور وعناؤها غير كبير ,فالتطويل علاجه الاختصار، ونعني بالاختصار هنا حذف أجزاء وإبقاء الأجزاء الأخرى بنصها العربي القديم، لأن المقصود بالإحياء هو هذا النص لا مجرد الحكاية ولا فحواها. وقد يجوز أن نختصر حكاية لا تهمنا إذا كانت الحوادث هي المقصودة بالوعي والصيانة. أما إذا كان المطلوب هو نمط الأداء وأسلوب التعبير والنظر في وضع الجمل والمفردات فينبغي أن يكون الاختصار بطريقة أخرى غير طريقة التلخيص وتغيير الكلمات، ليعلم الطالب وهو يقرأ الكتاب أنه يقرأ المؤلف لفظاً ومعنى ولا يقرأ كاتباً حديثاً ينقل المعاني من ذلك المؤلف القديم

وأما التشتت والاختلاط فليس أيسر من ردهما إلى نسق واحد ونظام متلاحق. ولا ضير هنا من جمع مؤلفين عدة ومؤلفات شتى في كتاب واحد إذا اتفقت الموضوعات والمناسبات مع الإشارة إلى أسماء المؤلفين وأسماء الكتب في ذيل كل فقرة، وإلحاق المنقولات بترجمة وجيزة للمؤلف وبيان وجيز عن الكتاب

أما صعوبة المفردات والمصطلحات فعلاجها الأوفق في رأينا هو التفسير دون التغيير، وأن يترك ما هو صعب لمن هم أقدر على فهمه من الطلاب، وأن يقصر الناشئة الصغار على السهل السائغ في المعنى وفي التركيب؛ ولتدرس الكتابات المغلفة

على النحو الذي تدرس به روايات شكسبير اليوم في الجامعات والمدارس الثانوية، أي مقرونة بالحواشي والهوامش ومقصوداً بها علم اللغة والإحاطة بالفحوى حيناً آخر، وذلك أفضل من نقلها إلى عبارة أخرى تخرج بها من نطاقها وهو نطاق الأدب القديم .وأسهل الأسباب التي ذكرناها علاجا هو سبب العبارات النابية والأخبار (المكشوفة) كما نسميها في اصطلاحنا الحديث، فهذه كلها تحذف حذفا من الكتب التي يتداولها الطلاب ولا يسمح بالاطلاع عليها في المدارس ولا في الأسواق العامة إلا لمن يريدها من الباحثين والمنقبين عن أطوار الشعوب ودقائق التاريخ

بقى أن نعرف ما هي الكتب التي يشملها الاختيار والإحياء؟ وفي أي عنوان نلتمسها إذا طلبناها - مثلا - في إحدى المكتبات؟

أفي عنوان الأدب وحده أو في غير ذلك من العناوين والأبواب؟

والرأي، فيما أحسب، أن نوسع الاختيار حتى يشمل جميع الأبواب ولا ينحصر في باب الأدب وحده بمعناه المشهور

فرب كلمة عارضة في رحلة من الرحلات تصف مدينة أو رجلا أو شعبا من الشعوب هي أدخل في باب الأدب من رسائل المنشئين البلغاء ورب قصة في سياق تاريخ هي أدب صميم وخيال محض ليس فيها من التاريخ بقدر ما فيها من الإبداع والافتنان ورب شاهد في تفسير آية أو حديث يحتاج إليه الأديب أضعاف حاجة الفقيه ورب مجاز في استخدام لفظ مهجور تحتويه المعاجم يكون مفتاحا لأسرار التشبيه والتعبير عند واضعيه الأولين ورب شتيت متفرق بين كتب الجغرافية والنبات والطب والكيمياء يتألف منه رأي جميع لا يستغني عنه المقتبس والمستفيد فالاقتصار على ما اشتهر من كتب الأدب يفوت علينا شوارد هذه الأبواب ويضيق علينا الأفق الذي نملك توسيعه إلى غاية مداه فكل ما صلح للاقتباس والاطلاع فليقتبس من أي كتاب ومن أي باب، وإذا كنا لا نأخذ كل ما في باب الأدب فليس صواباً أن نغلق كل ما عداه من الأبواب

إن المطلب عظيم ومستطاع، وعند وزارة المعارف وسائله من المصادر ومن العاملين، وكل عناء مبذول فيه هو عناء دون الفائدة المرجوة منه للجيل الحاضر ولمقبل الأجيال

بقية السحر والمثنوية

في كتاب حديث باللغة الإنجليزية عن الآثار الدينية بمصر ذكر المؤلف معاني المعابد القديمة وطواف المسلمين بها في المواسم وفي غير المواسم يلتمسون قضاء الحاجات أو يطلبون وقاية الأبناء والأعزاء، ويعلقون على جدرانها خيوطاً أو خلقاناً تتصل بأصحابها كرامة الصنم أو القديس القديم، وقال المؤلف بعد ذلك ما معناه أن هؤلاء المسلمين ولاشك هم من عنصر الفراعنة الأقدمين، وأن هذه العقائد هي سلسلة الوراثة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد

ومثل هذا التفسير يجوز لو كانت العقائد مما يورث في الدماء وراثة تشريحية كما يقولون في مصطلحات العلم الحديث، ولكن العقائد لا تنتقل هذا الانتقال ولا تبقى إلا بآثارها في المجتمع أو بأساسها من النوازع النفسية الخالدة، وليس منها الإيمان يولي مخصوص أو بمكان محدود. بل ذلك هو حكم العرف والتقليد

لقد لاحظنا كثيراً في الصعيد أناساً يذهبون إلى أصنام الفراعنة ولاسيما آلهة النسل - يطلبون الذرية ويفرضون على أنفسهم النذور، ويتلون بعض العزائم والدعوات. ولاحظنا كثيراً أناساً من المسلمين يطوفون بغير المعابد الإسلامية دفعاً لمرض أو اتقاء لبلاء، فلم يخطر لنا أنهم يصنعون ذلك بفعل الوراثة المتغلغل في التركيب على غير علم من ذويه، وإنما خطر لنا أنها بقية من السحر وبقية من الإيمان بعناصر الشر تساور الناس من جميع الأديان

فالمسلمون والنصارى واليهود والمجوس والبوذيون يلجئون إلى السحرة للتعوذ من الشرور، ولا يقول أحد إنهم أبناء أمم قديمة كانت تدين بهذا الدين أو ذاك، ولكنهم في الواقع يؤمنون بالسحر اليوم كما كانت الأمم القديمة تؤمن به على السواء في أفريقيا وأوربا وآسيا والأمريكتين وفي كل صقع من أصقاع العالم. ولو بقي في أستراليا مثلاً رجل واحد يلجأ إلى ساحر ليحميه بالرقي والتعاويذ لما جاز أن يقال إن هذا الرجل من نسل

المصريين الأقدمين لأنهم كانوا أمة يسود فيها طائفة من السحرة والكهان. بل كل ما يجوز أن عقيدة السحر لها مرجع واحد من نوازع النفس الإنسانية، وهو خوف المجهول والإيمان بوجود عناصر شريرة تصيب الناس ويتأتى لهم اتقاؤها بالطلاسم والهدايا والقرابين، على أيدي السحرة من ذوي الصلة بتلك العناصر أو تلك الأرواح .

فالمسلم المصري الذي يلجأ إلى صنم فرعوني لا يتوجه إلى ذلك الصنم لأنه يعبده أو يحس في نفسه نوازع الوراثة من قتل الآباء والأجداد، ولكنه يتوجه إليه كما يتوجه إلى ساحر يخدم الشياطين ويصون الناس عن أذاها بجعل معلوم، ومن دأبه أن يتوقع الشرور من جانب الشياطين، فكيف يتفق على مهادنتها ومسالمتها إلا أن يكون الاتفاق على أيدي وسطائها المقبولين وسفرائها المقربين؟ إن الاتفاق مع شيخ من الشيوخ الصالحين قد يطول أمره، وقد يكون إشهاراً للحرب يستميت فيها الشيطان ثم ينهزم آخر الأمر بعد التنكيل بمن أثاروه وناوأوه. ولم هذا التطويل وهذه المجازفة؟ وماذا يجدي المتوسل المسكين أن ينهزم الشيطان في نهاية المعركة على يد الشيخ الصالح؟ أليس أحكم من ذلك وأدنى إلى النجاح أن تهدئ من ثورة الشيطان بالتوسل إلى سفرائه المعروفين؟

تلك هي الحالة العقلية أو الحالة النفسية التي تحفز بعض المسلمين إلى ابتغاء المعونة من الساحر أو من الصنم الفرعوني المهجور

ونقرب هذه الحالة بعض التقريب فنسأل: ماذا يصنع الفلاح المصري اليوم إذا علم أن منسراً من اللصوص هجموا على داره فانتزعوا منه طفله وحيوانه وأنذروه بإحراق زرعه؟

إنه لا يؤمن بحكومة مشروعة لأولئك اللصوص، ولا يحبهم، ولا يرضى عن وجودهم، ويعلم أن الطريق المشروع هو تبليغ الحكومة، وأن الحكومة إذا ما دخلت في حرب سجال مع أولئك اللصوص فالغلبة لها لا محالة، واللصوص من مقبوض عليهم في يوم من الأيام بغير جدال

ولكن ما العمل إذا قتل اللصوص طفله وحيوانه وحرقوا زرعه وداره قبل وصول الحكومة إليهم ونجاحها في القبض عليهم؟ أليس الأجدى من ذلك أداء (الحلاوة)

المفروضة والتماس السلامة من هذا الطريق القريب؟ وهل يقدح ذلك في طاعته للحكومة وإخلاصه للقانون وكراهته لمنسر اللصوص؟؟

هذا بعينه هو أسلوب المسلم المصري في التفكير حين يعن له أن يحمي نفسه وأبناءه من أذى الشياطين أو أرباب الكفر القديم.

إنه يؤمن بالله ويعرف أنه هو الإله الوحيد الحقيق بالطاعة والعبادة، وأنه إذا توسل إلى ولي من أوليائه الصالحين فهو منتصر في نهاية المعركة لا محالة، ومطمئن إلى جانب الله مالك الملك وقامع الأنس والجن والمردة والشياطين.

ولكن ما العمل إذا قتل الشيطان ابنه أو مسه بطائف من الخبل قبل انهزامه في المعركة التي يشنها عليه ولي الله؟ أليس الأجدى من ذلك أداء (الحلاوة) المعلومة وكتابة الحجاب المطلوب وتسليم الإتاوة وكفى الله المؤمنين القتال؟؟

فالسحر هو مهادنة بين المؤمن وعناصر الشر إيثاراً للدعة والإيجاز في علاج الأمور، وليس فيه إيمان بإله قديم ولا تراث من دم موروث في العروق.

ويشبه الإيمان بالسحر الإيمان الخفي بالمثنوية في نفوس الجهلاء وبعض المتعلمين.

لقد كانت مدام دي ستايل تقول إنها ملحدة ولكنها تعتقد وجود الشياطين، أو أنها فقدت رجاءها في الخير ولكنها لم تفقد خشيتها مما في العالم الظاهر والباطن من شرور.

والمسلم اليوم يؤمن بالله، وأن إبليس رسول الشر في هذه الدنيا غير مشلول الحركة ولا مغلول السواعد، فقد يصيب من أراده بالضرر ثم يكون المرجع في دفع ذلك الضرر إلى الله.

ولم يكن هذا اعتقاد الأقدمين من جميع الأمم مصريين وهنديين وفرساً وعرباً وأوربيين وأمريكيين.

بل كان اعتقادهم أن للشر إلهاً مناهضاً لإله الخير يتصاولان ويتصارعان، ولكل منهما معابده وكهانه وشعائره وصلواته، ومنهم من كان يصلي ويتقرب لإله الشر دون إله الخير. لأن إله الشر هو المخيف المؤذي الذي لا يكف عن الإساءة إلا بمهادنة

وقربان... أما إله الخير فلا خوف منه ولا انقطاع لخيره، إذ هو مطبوع عليه انطباع زميله على النكاية والإيذاء.

بطلت هذه العقيدة وخلفتها عقيدة التوحيد، ولكنها ذات رجعات وعقابيل تظهر في المعتقدين والملحدين. فأما المعتقدون فمثالهم أولئك الجهلاء الذين يتوجهون إلى صنم فرعوني قديم، وأما الملحدون فمثالهم مدام دي ستايل التي تخاف العفاريت والشياطين ولا تخاف الله.

وفيما تقدم كله تفسير لما أشكل فهمه على الأستاذ مورتون مؤلف الكتاب الذي أشرنا إليه.

إصلاح الصحافة

من وعود خطاب العرش الأخير أن (تعني الحكومة بما يرفع مستوى الصحافة ويحفظ كرامتها، ويكفل في حدود القانون حريتها، وأن تعرض على البرلمان مشروعاً لهيئة الصحافة ينظم ما لها ولرجالها من حقوق وامتياز، وما عليهم من تكاليف وواجبات)

وهذا عمل واجب، ولكن كيف يكون؟

إصلاح الصحافة والصحفيين أمر محمود مطلوب، ولكن من هم الصحفيون قبل كل شيء؟

هذه أول صعوبة في المسألة، لأن إنشاء هيئة للصحفيين ليس كإنشاء هيئة للمحامين أو للأطباء أو للمهندسين؛ إذ كل طائفة من هذه الطوائف لها شروط محدودة ومؤهلات معلومة لا يقع الخلاف عليها. أما الصحفيون فليس من السهل تعريف الصحفي الذي يجب أن يحسب منهم على وجه يبطل فيه الخلاف

فهل الصحفي هو مالك الصحيفة؟ أو هو المحرر في مكتبها؟ أو هو المراسل لها من الخارج، أو هو مدير أعمالها؟ أو هو الكاتب أو المحصل أو الوكيل أو متعهد البيع الذي يتصل بها؟

كل أولئك يعملون في الصحافة وينتظمون تحت عنوانها، وليست مصالحهم مع ذلك متفقات في جميع الأحوال؛ فما هو من مصلحة مالك الصحيفة قد يكون إجحافاً بمحرريها وموظفيها، وما هو من مصلحة المحررين قد يكون إجحافاً بمالكها أو متعهد بيعها، وقد تتسع المشكلة بين الفريقين حتى تتناول المشكلة (الأبدية) القائمة بين العمال وأصحاب الأموال

فأما إذا قلنا إن الصحفي هو الكاتب أو المشرف على مادة الكتابة فما هو شرط الكاتب في صحيفة يومية؟ وما هو شرط الكاتب في مجلة من المجلات على اختلاف أغراض هذه المجلات؟

قد تكون الصحيفة قانونية فهي في حاجة إلى كفاءة محام، أو طبية فهي في حاجة إلى كفاءة طبيب، أو مدرسية فهي في حاجة إلى كفاءة معلم. وقس على ذلك سائر الصناعات والموضوعات

بل ربما كانت كفاءة الطبيب حين يكتب في صحيفة طبية ألزم من كفاءة الطبيب حين يعالج المرض في مستشفاه، لأن الكفاءة في الرجل الذي ينشر علمه على الألوف ألزم منها في الرجل الذي يقصد أفراد مسؤولون عن الثقة به والذهاب إليه. وإذا سهل الاتفاق على صفة المحرر الذي يتصدى للكتابة الطبية أو الفقهية، فما هي الصفة التي تشترط في السياسي وفي الأديب؟

لا نقول إن حصر المرشحين للكتابة في الموضوعات الفقهية أمر ميسور مأمون العواقب، فان المتفق عليه أن طائفة من رؤساء المذاهب القانونية لم يكونوا من أهل القانون في التربية والنشأة، وإن كان هذا الحكم لا يسري على كبار الشراح والمفسرين

ولكننا نريد أن نقول إن الاتفاق ميسور على الصفة الواجبة في الفقيه، غير ميسور على الصفة الواجبة في السياسي والأديب

فثلاثة من كبار ساسة العالم الآن كان أحدهم نقاشاً والثاني حداداً والثالث ابن أسكاف أخفق في صناعة أبيه

وغير هؤلاء وزراء ورؤساء وزارات كان منهم الاقتصادي والمحامي والمعلم والصانع الصغير

فإذا كانت هذه شروط قادة الأمم فما هي شروط الكاتب في صحيفة سياسية؟ وما هي شروط الكاتب في صحيفة أدبية؟

على أننا ندع الكفاءة للمادة التي يكتبها الصحفي، وننظر إلى الكفاءة التي لا غني عنها لمن يمارس الصناعة الصحفية

فليس كل قانون ضليع بقادر على ترويج صحيفة قانونية ولو كان أقدر الباحثين في مذاهب التشريع، لأن صناعة الصحافة غير صناعة الفقه القانوني، وغير وضع الشرائع وتطبيق الأحكام، فإذا اكتفيت بالصنعة العلمية فقد تستثنى بذلك صنعة

الصحفي التي لابد منها لترويج الصحيفة ولفت الأنظار إليها وتنظيم إدارتها وبيعها، وقد تقضى على الصحافة وأنت تريد لها الكرامة والارتقاء

ونحن هنا في مصر لم نعرف بعد مدارس الصحافة، ولم نبلغ بعد ما بلغته الأمم الأوربية من شيوع التعليم وذيوع الثقافة العامة، فكيف تكون الصعوبة عندنا إذا كانت صعوبة

الاهتداء إلى (الصحفي المطبوع) لا تزال قائمة في أمة كالأمة الإنجليزية؟ وأين تذهب صحافتنا إلى جانب الصحف الإنجليزية التي تطبع الملايين وتجمع من الموارد ما يضارع موارد بعض الدول الصغار ويقرأها أناس كلهم أو جلهم متعلمون مثقفون؟

قال ويكهام ستيد الصحفي الذي زاول الكتابة في أكبر صحف العالم: (لن تخرج صحيفة من الصحف بغير مجهود مكتب التحرير أي مجهود الصحفيين الخبيرين فمن هم الصحفيون الخبيرون؟ لقد بذلت شتى المساعي لتدريب الصحفي على صناعته، وقامت مدارس للصحافة، ثم لا يزال مشهوراً مقرراً بين الكثيرين أن الناجح في الصحافة لا يجوز امتحان نجاح ولا يحصل على درجة مدرسية ولا على رخصة من رخص الحرف والصناعات، ولعله هو يشتغل بجلب الأخبار وبيع الأخبار لا يبدو في مرتبة أرفع من مرتبة البائع الجوال الذي يجمع الدريهمات في الطرقات بالنداء والصياح، إلا أن (الوظيفة) التي يؤديها الصحفيون تخولهم مكانة اجتماعية فوق مكانة أناس ينحصر همهم كله في اصطياد العيون والأسماع. فمن أين لهم هذه المكانة؟... أحسب أن مرجعها الأخير إلى إدراك الجمهرة العامة بالبداهة الفطرية أن عمل الصحافة الحق إن هو إلا رسالة أو مهمة، وأنها شيء فوق الحرف وغير الصناعة، وسط بين الفن وبين دعوة التبشير، وأن الصحفي الحق موظف غير رسمي وظيفته أن يخدم مصالح الجماعة الإنسانية، فهو بهذه المثابة يولد ولا يصنع، وقد يفتقر إلى التدريب والاختبار ولكنه لا يوجد في الدنيا تدريب أو اختبار يجعله صحفياً صالحاً ما لم تكن في نفسه تلك الشرارة الحية التي تميز بين الصحفي الحق والآلة الصحفية... وليس أحمق بل ليس أفجع في بعض الحالات من تخيل بعض الناشئين أنهم متى أفلحوا في المدرسة أو الجامعة وأنسوا من نفسهم قدرة على صوغ الكلمات

فهم خلقاء أن يفلحوا في الصحافة إذا ظفروا بعمل من أعمالها، ولعلهم يضيعون سنوات من أعمارهم قبل أن يعلموا أنهم أخطئوا الطريق ولم يدركوا (المهمة التي بغيرها لا يكون العمل في الصحيفة إلا مذلة خاوية من السلوى القلبية)

هذا ما يقوله خبير من أكبر خبراء الصحافة الإنجليزية عن مؤهلات الصحفي بين أناس فيهم من أبناء الجامعات والمدارس العامة والفنية عداد من عندنا من عارفي الحروف الأبجدية، فكيف يكون الحال بيننا يوم نأخذ في انتقاء الأعضاء الصالحين (لهيئة) الصحافة؟

وما هي شروط العلم والاختبار التي تفصل بين الأصلاء والأدعياء؟ وما هو ضمان البقاء في تلك الهيئة مع ضمان حرية الآراء، وحرية الإغضاب والإرضاء؟

في البلاد (الفاشية) قانون صريح يجيز للوزير المختص أن يصدر قراراً حكومياً بفصل الصحفي فإذا هو مطرود من جميع صحف البلاد، محرم عليه استئناف ذلك القرار إلى مراجع القضاء

وفي البلاد الديمقراطية يباح لمن يشاء أن يكتب وان ينشئ الصحف وأن يشتغل بأعمال الصحافة دون احتياج إلى إذن من الحكومة أو رخصة بإصدار الصحيفة

فأين نقع نحن بين الطرفين النقيضين؟! أصحفيون موظفون في دواوين الحكومة؟ أم صحفيون لا يحسبون حساباً لغير قانون الأخلاق الذي يدين به جمهرة القراء؟

لسنا فاشيين ولسنا بالغين من الحرية الديمقراطية مبلغ الولايات المتحدة وبلاد الإنجليز، فلنكن وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء، ولنترك بقية من درجات الارتقاء يرتقيها الصحفيون مع ارتقاء القراء أجمعين، حتى يكون القراء هم الحكم الفاصل في آداب الكتابة الصحفية فلا نحتاج في كل شيء إلى نصوص القانون وزواجر المحاكم، إذ ليس من الأنصاف أن تطلب من الصحفي أدباً فوق أدب قرائه مجتمعين، فإذا كان أدبهم كافياً ففيه الغني عن الزواجر الحكومية، وإذا كان به نقص أو تخلف فالأولى علاج هذا النقص والتخلف قبل كل شيء، لأن علاج الصحافة وحدها ليس باليسير وليس بالمفيد

تحية الشتاء

الحرية والأمان هما قصارى أمل الإنسان, وكون الإنسان آمناً في سربه حراً في عمله ورأيه هو المطلب الذي لا يتخطاه إلا وهو ظالم نفسه وظالم غيره، إلا أن تكون سيادة على الآخرين برضى منهم وشهادة له بالاستحقاق، وتلك غاية لا يطمح إليها كل إنسان

وللحرية من الطبيعة موسم، هو الصيف

وللأمان من الطبيعة موسم، هو الشتاء

فبركة الصيف هي الطلاقة، وبركة الشتاء هي الطمأنينة، وهذا إذا صلحت الأحوال. . . فأما إذا فسدت فلا بركة في صيف ولا شتاء

إذا لاح الصيف خرج الناس إلى المنازه، وكرهوا الحدود والقيود، فلا سقوف ولا أسوار، ولا غطاء ولا دثار، وإنما الحرية كأنما الإنسان نفس من الهواء، لا يريد إلا نفساً من الهواء

وإذا لاح الشتاء فالرياح تزمجر، والسماء تمطر، ومن فوقنا حجاب ومن ورائنا حجاب، ولا سرور إلا أن تسكن إلى الدفء الوثير بين الجدران

وهكذا تتمثل في الطبيعة غاية مطالب الإنسان: الحرية والأمان والناس يزعمون أن البركة كلها في الربيع، وأنه موسم الزهر والفاكهة، ومشهد الحب والجمال، ومعرض المدينة والريف. فهل بقيت للشتاء بقية بعد هذه المحاسن والخيرات، وبعد يقظة النفس ويقظة الدنيا؟

والناس لا ينصفون، أو لعلهم ينصفون وينسون. فبعد الربيع يبقى الشعور بالربيع، ومن أوفى نصيباً من هذا الشعور؟ أهل الربيع أو أهل الشتاء؟ الذين يجدون الربيع سهلاً غير مرقوب، أو الذين يجدونه عسيراً بعد ارتقاب واشتياق؟

ما عرف الربيع أناس كالذين اختبروا قسوة الشتاء، فالشمس ضيف ثقيل في بلاد الصيف القائظ، وطلعة جميلة في بلاد الشتاء القارس؛ والزهرة فتاة مبتذلة من

فتيـات الطريـق عنـد مـن يشـهدونها في كل يـوم وفي كل مكـان، وهي عـروس خفـرة و (رسولة) مبشرة عند من

يشهدونها آونة بعد آونة، ومقبلة مع الخير والحرية ومحاسن الأرض والسماء أهكذا وحسب؟

كلا. بل للشتاء أثر في تقويم الجمال غير هذا الأثر في تعريفنا بقيمة الربيع للشتاء أثر في أمم الشمال نلمسه فيما رزقته من حصافة وخيال، فهو الذي علمها الشعر والفن، وهو الذي علمها العمل والصناعة، وهو الذي علم أقوامها أن يطلبوا شيئاً فوق الأمان والحرية، ونعني به سيادتهم على الأمم التي جاءتها حرية الطبيعة بغير عناء

تخيل رجل الشمال المثلج والريح تعصف، والبرق يخطف، والرعد يقصف، والسماء لا شمس فيها ولا قمر، والأرض لا زهر فيها ولا ثمر، والنفس لا ترى لها مدى تمتد فيه إلا أن تثوب إلى سريرتها وتتغلغل في طويتها، وتخلق الصور وتناجي الأحلام وتأنس بالخواطر والأشجان

وتخيل هذا الرجل منفرداً في كوخ منفرد، ولا بد من انفراد في ساعة من الساعات وفي أمد من الآماد

ألا ترى أنه خليق أن يعمر عالم السريرة بخلائق الخيال، وأحلام الشوق والجمال؟

ثم تخيل قوم هذا الرجل سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل، وكل سنة تضيف إلى قدرتهم على كفاح الشتاء قدرة جديدة، وإلى حيلتهم في دفاع البرد حيلة مفيدة، وإلى عزيمتهم في درء السيول والأمطار عزيمة رشيدة. فكيف تراهم يكونون بعد مائة شتاء وبعد ألف عام، وبعد ما لا عداد له من أجيال وسلالات؟

ثم تعلم أن الأعصاب هي خزانة الأخلاق الموروثة والقوة النفسية المذخورة، فماذا تكون الأعصاب التي تفتلت على هذا الجلد وهذا الجليد؟ وماذا تكون الطاقة فيها على استيعاب الشعور واختزان الأحاسيس وتصوير الأخيلة والأشكال؟

ففي الشتاء تربية للخيال، وتربية لوعي السريرة، وتربية للأعصاب وتربية للأخلاق، وفي كل أولئك استزادة من نصيب الشعور، ونصيب الفهم، ونصيب العزيمة، ونصيب الخلق والإبداع

ومن ثم يأخذ القوم من الربيع فوق ما يعطيه أهله المعرضين عنه الجاهلين بقدره، الناظرين إليه عن عرض كأنه زينة نظر في ساعة صفو أو ليلة سمر، فلا أعماق له وراء ذلك ولا أسرار

على أن الشتاء قد يفرط في قوته وقسوته حتى لتبطل فيه كل حيلة الإنسان فلا يبقى له غير حيلة الحيوان: جلد دب مسلوخ، وإيواء إلى كوخ، كأنه كهف، أو كهف كأنه كوخ، وهكذا شتاء القبائل الحافين بقطب الشمال

وإن الصيف ليفرط في طلاقته حتى تنقلب إلى مطاردة كأنها الملاحقة بالسياط الكاوية، فتبطل فيه كل حيلة الإنسان، ولا يبقى له غير حيلة الحيوان: بركة ماء، أو ظلال غابة غبياء، وكذلك صيف خط الاستواء

ولا بركة في هذا ولا في ذاك، وإنما البركة فيما لم يجاوز الحدين من هذين الموسمين

وبعد فنحن نذكر بركات البرد والحر، فهلا ذكرنا أناساً لا يجدون البركة في أوان، ولا في مكان؟

يقول حكيمنا:

لقــــد جاءنــــا هــــذا الشــــتاء وتحتــــه
فقيــــر معــــرى أو أميــــر مــــدوج
وقــــد يــــرزق المجــــدود أقــــوات أمــــة
ويحــــوم قوتــــا واحــــد وهــــو أحــــوج

هذا الواحد أولى بذكر الألوف، لأنه واحد تجتمع منه ألوف، ولن ينساه في مستهل الشتاء إلا مخلوق يستحق النسيان، بل يستحق الذكر بالمسبة إن كانت قوانين أبناء آدم لا تذكره بالزجر والعقاب

ما تمنيت لمصر عملا من أعمال الأمم التي هدمت الديمقراطية إلا إعانة الشتاء التي يخرج كبراء الألمان لجمعها من الخاصة والعامة في الطرقات والأسواق: ذلك عمل مجيد نحن به أولى، ونحن إليه أحوج، ونحن عليه أقدر، فيما يبدو لنا من تفاوت بين رخاء بلادنا وضنك البلاد الأخرى

فإذا ألهمنا أن نعين المحتاجين منا إلى معونة الشتاء فقد حق لنا أن نسبغ على شتائنا صفة الأمان الشامل، وأن يشتمل علينا جميعاً راضين آمنين... ونرجو أن نلهم هذه المبرة فما فيها مشقة على قادرين ولا أشباه قادرين وكل شيء تقال فيه كلمة ثناء، حتى الشتاء

حالة نفسية غير نادرة، ولاسيما في الأيام الغائمة أو الماطرة.

على الأفق البعيد رباب مسف جاثم، وفي الجو شوب من ضباب كالغبار يحجب صفاء السماء، والأشجار هنا وهنالك كأنما تتوارى من الناس، وعلى النفس سآمة قائمة لا تتحرك كأنها فرغت من النقاش والسؤال عن الأسباب، وخلصت إلى اليقين والقرار، وكل شيء عبث... وكل عمل عقيم... وما هذه الدنيا القاتمة بالباطل، وما هذا العناء في غير طائل؟ باطل الأباطيل... قبض الريح... متاع الغرور!

حالة غير نادرة

لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجعلتها فلسفة حياة وصبغت بها وجه الكون، وبسطتها على الدنيا، أو قبضت الدنيا حتى انطوت فيها، وكنت من المتشائمين

لم تكن الحالة الأولى من نوعها، فلهذا لم تكن فلسفة باقية، بل كانت حالة عابرة غير نادرة، واستطاعت النفس أن تنتزع منها زاوية صغيرة يهمس فيها هامس مسموع مستجاب: كلا! ليست الدنيا كذلك. ليست الدنيا كذلك... إنما هي نوبة تزول، وركود راحة بعد جهاد، أو ركود استجمام قبل وثوب وحالة أخرى غير نادرة، ولاسيما في أيام الإشراق والنضرة والإقبال، صيفا كانت أو شتاء، وربيعا كانت أو خريفا. فهي شائعة موزعة بين جميع المواسم والفصول

لمعة الشعاع على الصخرة الملقاة تبعث الفرح من أعماق السريرة، ورجفة الورقة على الغصن رقص وانتشاء، ومشية المسرع استطارة سرور، ويمشي المتأني فكأنه يتملى متعة المشي ويستوفي نعمة الرياضة، ومنظر الشجرة كأنها باثفة تنطلق في السماء، وليست بالجاثمة المقيدة بالغبراء، وكل شيء حسن كما هو في غير حاجة إلى تفسير أو عافية منظورة، وليس في الإمكان أبدع مما كان

حالة غير نادرة

لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجعلتها كذلك فلسفة حياة ونفثتها في ضمائر الكون، ورأيت الدنيا معها فردوسا سماويا لا حدود فيه ولا انتهاء لمشاهده ومعانيه، وكنت في عليين ولا يغنيني أن أقول: كنت من المتفائلين

ولم تكن الحالة الأولى من نوعها فلهذا لم تكن فلسفة باقية بل كانت حالة عابرة غير نادرة، واستطاعت النفس أن تملك زمامها وهي إلى جوارها فلا يزال فيها هامس مسموع مستجاب يردد في غير إلحاح ولا إعنات: كلا. لست في عليين، لست في عليين!

أإذا عرفنا أسباب الحالة الأولى جاز لنا أن نقول: إنما هي ضلالة في الحس من أثر الغيم أو من أثر السوداء أو من أثر المعدة الشاكية؟

كلا. لأن معرفة السبب الذي يريك الشيء لن تنفي وجوده، كما أن شعورك بألم الآخرين من أجل القرابة بينك وبينهم لا ينفي أنهم متألمون وأن الألم موجود هناك. ثم نقترب من المحسوسات فنقول إن رؤيتك الجراثيم بالمجهر وعلمك بأن المجهر هو سبب الرؤية لا ينفي الجراثيم ولا ينقض صحة ما تراه وكذلك الحالة الثانية لا يدحضها أن تعلم أسبابها، وهي الإشراق والصحة وامتناع الأكدار والأحزان، فإن العلم بأسباب إحساس من الأحاسيس لا يقدح في حقيقته ولا في صواب الشعور به حيث كان.

لذلك أقول إن السريرة الآدمية كالمذياع، وإن الدنيا المحزنة والدنيا المفرحة ودنيا القنوط ودنيا الرجاء موجودة لا تظهر للنفس إلا حين يصل المفتاح إلى وجهته المرسومة، وإلا فهي صمت وخفاء في النفس الإنسانية متسع لجميع العوالم، ولكنها تتهيأ لكل عالم من هذه العوالم بحالة من الحالات، أو بمفتاح من المفاتيح، فإذا هو موجود مسموع منظور محسوس، وإذا أنت لا تسمع غيره ولا تعيش في غيره، لأن إدارة المفاتيح كلها هي الفوضى التي يبطل فيها الإحساس، ويفسد فيها التعبير المفهوم، فهو إذن لغط وأصداء

إن كنت تسمع حديث القاهرة فليس معنى هذا أن حديث باريس باطل، وإنما معناه أن المفتاح في هذا الاتجاه وليس في اتجاه غيره، وحديث باريس بعد ذلك صادق عند أناس آخرين صدق حديث القاهرة، وغيره من الأحاديث

وإن كنت في دنيا من دنياوات الإقبال والتفاؤل فليس معنى ذلك أن دنيا السآمة والقنوط عدم وضلال، وإنما معناه أن المفتاح هنا، وأنه لو تحول قليلاً لأصبح هناك!!

امتناع الحس لا يدل على امتناع المحسوس

وبهذا نفسر العبقرية التي ترى الأخيلة والشكول والمعاني والتوفيقات حيث لا يبصرها أحد ولا يسمعها أحد ولا يدري بها أحد، ولكنها تظل في صمتها وخفائها حتى تصادف من يدري بها ويستمع إليها، فهي موجودة له معدومة لسواه

وبهذا نفسر الصوفية التي تلمح من الخفايا ما ليس يلمحه المصاقبون والجيران، وتقترب من الآمال والمخاوف قبل أن يقترب منها المزاملون والرفقاء، وتبصر بعيني (حزام) والناس من حولها ضاحكون لا يصدقون، وإن قال لهم ألف قائل:

إذا قالـــــــــــت حــــــــــزام فصـــــــــــدقوها

فــــــــإن القــــــــول مــــــــا قالــــــــت حــــــــزام

لأن ما يرى بالعين على مسيرة يوم سوف يرى بالعين على مسيرة ساعة. أما ما يرى بالسريرة فقد تكثر فيه المغالطة والمكابرة كلما اقترب واقترب حتى تتناوله جميع السرائر: أهذا الذي أنبأتنا به؟؟ لا. إنك أنبأتنا بغير هذا، ولن تزال في ضلالك القديم!!

ولنهبط من العبقرية والصوفية إلى المشاهد الملموسة في حياة الحيوان.

فأين من الناس من يشعر بأن ملامسة اليد للمنديل تترك فيه أثراً من الرائحة المحسوسة يشمها الأنف بعد أيام؟ وأين من يثبت لهم ذلك لولا أن شاهدوه وكرروا شهوده من بعض الحيوان؟؟

أفينقض (وجود) تلك الرائحة أن يقول قائل: بل ما أدركها ذلك الحيوان إلا لأنه كلب يشم بحاسة الكلاب؟

أفينقض (وجود) تلك المعاني والتوفيقات أن يقول قائل: بل ما أدركها ذلك الناظم أو ذلك الموسيقي إلا لأنه مجنون مخبول؟

فلم لا يكون الخبل المزعوم هو المفتاح الذي يوجه السريرة إلى وجهة تلك المعاني والتوفيقات؟؟ ولم ننكر (المحطة) لأننا لا نملك المفتاح وإن رأينا من يسمعها ويروي لنا ألحانها وأناشيدها في تناسق وانتظام؟

فالعالم حافل بما يحس ويشعر حافل بالمنظورات وإن لم يشهدها كل نظر، وحافل بالمسموعات وإن لم تسمعها كل أذن، وحافل بالطعوم وإن لم يذقها كل لسان، وحافل بالحياة وإن لم تتصل بها اتصال التعاطف والتفاهم كل حياة

فلم لا نقول على هذا القياس إنه حافل بالمعاني، وحافل بالمدركات، وحافل بالوحي والتعبير، وإن العبقري له حاسة في الروح تلتقط هاتيك المعاني والمدركات من حيث لا يحلم أحد بموقعها هناك؟؟

لم لا نفهم أن المحسوسات الذهنية التي تتناولها العبقرية لن تنفد بالتقاط الأذهان منها لأنها ليست بأجسام، وأن الشيء الذي ليست له مادة تنفد لن يرى على وضع واحد بل يرى على ألوف الألوف من الأوضاع حسب من ينظرون إليه وينفذون فيه؟

لم لا تكون الدنيا مفرحة محزنة، عادلة ظالمة، منظومة مشتتة، لأن هذه المعاني لا تتناقض في عالم الإلهام كما تتناقض السوداء والبيضاء في عالم العيان، وإنما يصعب التوفيق بينهما في إلهام واحد كما يصعب التوفيق بين مفاتيح المذياع، فنخرج إذا أدرناه جميعا من الفهم والنظام، إلى أصداء لا تقبل الفهم ولا النظام؟

إذا مرت بي حالة عابرة إلي جانب الحزن والقنوط قلت هي حالة صادقة في مفتاحها

وإذا مرت بي حالة عابرة إلى جانب الفرح والرجاء قلت هي أيضاً حالة صادقة في مفتاحها

ولم أقل إن العالم السرمدي ينحصر في هذه أو في تلك، ولكني أتلقى درساً من المذياع وأومن بأن السريرة الإنسانية أكبر - على الأقل - من صندوق الكهرباء، وإن عالم الإدراك أكبر - على الأقل - من مراكز الإذاعة، وأن الوصلة بين الطرفين أكثر على الأقل من الموجات القصار والوسطى والطوال

الفكاهة والطغيان

ملَكة الفكاهة نعمة من نعم الحياة، وخاصة من خواص الإنسان، وعلامة من علامات الارتقاء. ولكنها خليقة أن تعدَّ في النقم إذا هي سوغت ما لا يساغ وأباحت ما لا يباح، كالإذعان لحكم طغيان، والاجتراء على حقوق أو حرمات.

سمعت من سعد زغلول رحمه الله أن (أحمد زيور) في الوزارة أخطر من عبد الخالق ثروت ومَن على طرازه، لأن أحمد زيور لا يثير الغضب في المصريين بل يحفز فيهم ملكة الفكاهة ويقلب الأمر من جد إلى مزاح؛ وهم لا يكرهون ذلك، وقد يستمرئونه ويمضون فيه، فيقبلون على يديه ما لم يقبلوه على أيدي الآخرين، ويأتي الخطر من هذا الباب.

وذكرت هذا وأنا أقرأ الفكاهات التي يرويها الرحالون والناقدون الاجتماعيون عن الألمان والروس والطليان وسائر الأمم التي يحكمها أصحاب السلطان المطلق في هذه الأيام.

فينبغي أن نعلم أن هذه الأمم تصنع ما يصنعه المصريون أحياناً من مقابلة الطغيان بالفكاهة، ومن مجازاة السطوة بالنكتة، فيصول عليها الحاكم وهي تضحك منه، وتتفكه بالأحاديث عنه، وتظن أنها أخذت منه بمقدار ما أخذ منها، فتستريح إلى هذا القصاص!

قيل أن القائد جورنج يحب النكتة البارعة، ويطرب للفكاهة الجيدة، ويود لو يسمع ما يتداوله الناس من أقاويل السخر والمزاح عن الحكومة الحاضرة في البلاد الألمانية، ولكنه لا يصل إليها لخوف الناس من كتابتها أو الجهر بها، فاتفق وسائق سيارته على أن ينقلها إليه كلما سمع شيئاً منها، وله خمسة قروش على كل نكتة مقبولة.

قال الراوي: فطاب المورد للسائق المحروم وحرص على احتكار البضاعة كلها في هذه السوق. ثم جاء إلى القائد يوماً بحفنة صالحة من النوادر اللاذعة، فداخل القائد

شيء من الغيظ وأشفق من ذيوع هذا الضرب الأليم من التنكيت، وقال كأنما يحدث نفسه: (ليضحكوا ما شاءوا... إنهم لا ينسون على كل حال أنهم أعطونا تسعة وتسعين في المائة من أصواتهم في الانتخابات الأخيرة..!)

فصاح به السائق وقد خاف على مورده المحتكر:

سيدي القائد! من الذي باعك هذه النكتة؟!

وروى الراوون أيضاً أن زوجة شابة انتظم زوجها في إحدى الفرق العسكرية الحديثة فطال غيابه عن المنزل وامتدت ساعات التدريب إلى ما بعد الهزيع الأول من الليل، حتى تعودت أن تنام ولا تنتظر أوبته حين يؤوب. وتمادى على ذلك فترة طويلة، فأحبت أن تنبهه بعض التنبيه عسى أن يحتال للخلاص من هذا التدريب أو من تلك المواعيد، فتركت على الموضع الخالي من السرير ورقة كبيرة أشبه شيء باللوحة التي تكتب للتذكار، على بعض الأنصاب والآثار، وكتبت عليها: (هنا!... حيث كان يرقد زوجي قبل التحاقه بالفرقة العسكرية)... فضحك حين رآها. وسمع الجيران بالخبر فضحكوا وتناقلوا الورقة بينهم بضعة أيام... وسرى الخبر إلى مكتب الاستطلاع فضحك أيضاً ولكنه اعتقل الزوجة أياماً في معتقل التأديب أو العقاب).

أما في الروسيا فالفكاهات التي يخترعها الظرفاء للضحك من النظام القائم فيها لا تحصى، ولا تقل في الرواج عن الفكاهات الألمانية.

قيل إن مندوباً من مندوبي الحكومة أراد أن يستطلع طِلْع الفلاحين الذين يطوفون أو يساقون إلى الطواف بضريح لينين وهو معروض فيه مكشوفاً للأنظار.

فسأل واحداً منهم: ما رأيك فيه..؟ أي في الزعيم لينين.

فأجاب على البديهة: حاله مثل حالنا... ميت ولكنه لا يدفن!

ووقف فلاح على مقربة من آلة المذياع وهم يركبونها، فسمع المهندس يقول: إن كل كلمة تلفظ هنا تدوي في جوانب العالم كله. فهل منكم من يريد أن يقول (كلمة واحدة) باسم الروسيين؟ فأومأ الفلاح أن نعم... وتقدم إلى بوق المذياع فصاح: (النجدة!)

وقفزت جماعة من الأرانب من الحدود الروسية إلى الحدود البولونية، فدهش الحراس البولونيون لكثرتها وسألوها: ما الخبر؟ فقال واحد منها: إن مكتب الاستطلاع قد أصدر أمراً بالقبض على جميع الزرافي التي في الأقطار الروسية... قال الحارس: وما شأنكم أنتم وأنتم أرانب ولستم بزرافي؟! فقال الأرنب: (صحيح! ولكن هل لك أن تثبت ذلك لمكتب الاستطلاع؟!)

وعمت الشكوى من مكتب الاستطلاع هذا فأشاع الظرفاء الروسيون أن الزعيم ستالين قد أمر بتسريحه وشدد على رجاله أن يتلطفوا إلى الناس غاية التلطف لينسوهم فظاعة ماضيه.

إلا أن الفلاحين المساكين لم يسمعوا بهذا الذي أشاعه الظرفاء البلديون، فبينما كانت طائفة منهم في مركبة كبيرة إذ عطس أحدهم عطسة عنيفة سمعها من في الطريق، فأطل واحد من رجال مكتب الاستطلاع في المركبة وسأل: من الذي عطس هذه العطسة؟

فاضطرب الركب وسرى فيهم الرعب وطفقوا يلكزون العاطس المتواري أن يبرز نفسه ويحمل وحده وزر عمله ولا يجور على أصحابه جميعاً بجريرة عطاسه، فلم يسع الرجل إلا أن يعترف بالحقيقة ويقول في كثير من الوجل والتلعثم: أنا..!

قال الراوي: فانحنى مندوب مكتب الاستطلاع تنفيذا لأمر الزعيم ستالين وقال: يرحمك الله!

ويروي الظرفاء الروسيون أن طوفاناً من السباب والتبكيت والتعزير سمع ذات يوم في الحجرة المجاورة لمكتب الرفيق ستالين. فانتظر الحجاب حتى يفرغ الزعيم من حديثه، ثم فتحوا الباب ليسحبوا منه الرجل المنكود الذي وقعت على رأسه كل هذه الشتائم والمقذعات، فما راعهم إلا أن يبصروا المكتب خالياً وليس فيه أحد غير الزعيم.

- أين الرجل المنكود الذي كنت تشتمه؟

- فأجاب الزعيم: أنا هو... وقد فرغت الساعة من حصة المناجاة!

عرضت هذه النوادر و (القفشات) وعرضت معها نوادر المصريين وقفشاتهم للرومان والترك وقره قوش وسائر الحاكمين الذين نالوا من المصريين بالقسوة، ونال منهم المصريون بالنكتة، فورد على خاطري هذا السؤال العجيب: لو كنت حاكماً طاغياً ماذا أصنع لهؤلاء الساخرين؟ هل أطلق لهم العنان يرسلون النكات والقفشات حيث يشاءون؟ أو أحسب حساباً لعواقب هذه النكات والقفشات فاحجر على أصحابها ومذيعيها وأتعقبهم بالمصادرة والجزاء؟

إن النكتة تلطف وطأة الظلم وتوهم المظلوم أنه ينتقم لنفسه بعض الانتقام فتهوّن عليه الشدائد وتروضه على الصبر والانتظار، فهي من ثم معين للحكام على المحكومين.

إلا أن النكتة قد تزري بالمهابة وتعصف بالرهبة وتجعل الحاكم المخيف أضحوكة في الأفواه ومهزلة للسامرين؛ فهي من ثم مضعف لسلطانه ومجرئ على مقامة ومحرض على الثورة والانتقاض.

هي بلسم للمظلومين فهي مقبولة

وهي سلاح للمظلومين فهي مرهوبة

فماذا يحسن بالحاكم المستبد أن يصنع مع هؤلاء المازحين؟

ليس لهذا السؤال جواب فاصل فيما أحسب، ولكني أقرر الحقيقة إذا قلت إن المحكومين لا يحاربون الظلم بالفكاهات والنكات إلا إذا كان للصبر بقية، وفي قوس الاحتمال منزع كما يقولون، وإن الحاكمين لا يتسمحون في قبول الفكاهات والنكات إلا إذا كان للقوة بقية وللثقة بدوام السلطان مجال فسيح.

أما إذا ضاقت الصدور ونفذت الحيل فالمحكومون لا يعتصمون بالفكاهة والتنكيت بل يغضبون ويثورون.

وكذاك إذا ضاعت ثقة الحاكم بدوام سلطانه لم يصبر على السخرية والمزاح، وعالج الحجر عليها عسى أن يستعيد شيئاً من المهابة والامتناع.

وبعد هذا وذاك يجب علينا أن نفرق بين الفكاهات، وأن نفرق كذلك بين الطبائع التي تتخذها وسيلة لحرب الحكومات.

فالفكاهة التي قوامها تلفيق الجناسات اللفظية والملاحظات الشكلية لا تخيف أحداً من العقلاء. أما الفكاهة المخيفة حقاً فهي تلك التي تنفذ إلى العظم وتسري إلى قرارة الأمور، ولا ينطبع على هذه الفكاهة إلا أناس يعملون حين يتفكهون، ويجترئون حين يسخرون.

الأم... أو التاريخ الحي

كثر الحديث في الأسبوع الماضي عن (ماري أنطوانيت) والثورة الفرنسية، لأن داراً من دور الصور المتحركة عرضت حياة هذه الملكة المنكوبة في صورة قريبة إلى التاريخ ولكنها أقرب إلى الفن والتصرف الذي يقتضيه في بعض المناظر. وشهدت هذه الرواية التاريخية فأيقنت من براعة تمثيلها وعرضها أنها قد جعلت الثورة الفرنسية ذكرى حياة لمن شهدوها كأنهم قد عاشوا في أيامها وتقلبوا بين تقلباتها وطبعوا في إخلادهم بعض حوادثها. وأعانهم على ذلك أن حقائق التاريخ ملتزمة في مسائلها الجوهرية أحسن التزام مستطاع، وأنها معروضة على مثال نفسي لا على مثال اجتماعي أو علمي يقصر الأمر على التأمل والتدبر ولا ينفذ به إلى معترك العاطفة والإحساس

قال (ستيفان زفيج) أكبر كتاب السير المعاصرين فيما مهد به لسيرة (ماري أنطوانيت) إن: (الفاجعة التاريخية) تقوم على البطولة أو على أناس من جبابرة النفوس والعقول. فإن لم تكن كذلك فهي تقوم على (إنسان عادي) يتعرض للأحداث الجسام التي تفوقه في الكبر والضخامة وتجعله عظيما بما يحيط به من أقدار عظيمة وإحن لا طاقة له باتقائها ولا بالخلاص منها بعد وقوعها

ولم تكن ماري أنطوانيت من معدن البطولة والجبروت، ولكنها كانت امرأة من الطراز الوسط في الذكاء والمزاج والأخلاق، تحب سهولة الحياة ولا تشغل بالها بالفوادح والمشكلات. فلما أحاطت بها الفوادح والمشكلات على الرغم منها ظهرت (الفاجعة التاريخية) على نمط يشبه فواجع الأبطال والجبابرة، من غير بطولة ولا جبروت

والرأي عندنا أن (الفاجعة الكبرى) تهز النفس هزاً عنيفاً في حالتين اثنتين: إحداهما حالة البطولة والجبروت التي أشار إليها ستيفان زفيج، والثانية حالة الإنسان العادي الذي تمتحنه الأحداث في كل جانب من جوانب نفسه فلا تدع له حاسبة بعيدة من سلطانها غير مجروفة في دوافق تيارها. وكذلك كانت فاجعة التاريخ التي أحاطت بماري أنطوانيت كانت ملكة وزوجة وأما ومحبة وامرأة من بنات آدم

وحواء كسائر النساء. فما تركت لها الأحداث جانباً من هذه الجوانب إلا استغرقته وطغت عليه: امتحنت منها الملكة في دولتها

ونظام حكمها وعلاقتها بسياسة بلادها التي حكمتها وسياسة بلادها التي ولدت فيها؛ وامتحنت منها الزوجة في قرينها الذي حالت بينها وبينه علة العجز الصحي سبع سنوات، حتى إذا شفي من عجزه أصابتها فيه خطوب الثورة ودسائس البلاط؛ وامتحنت منها الأم فطعنها الثوار وطعنها وليدها نفسه في أمومتها، بل في شرف الأمومة فضلاً عن حنانها؛ وامتحنت منها المحبة فكانت قصتها مع السويدي فرزن كأقسى ما تكون قصص الفراق أو قصص الغرام المكبوت؛ وامتحنتها في أنوثتها فوقفت بينها امرأة عزلاء بادية المقاتل لكل سهم مسموم

لذلك كانت فاجعة (ماري أنطوانيت) من أكبر فواجع التاريخ وإن كانت هي وكان لويس السادس عشر زوجها المظلوم من معدن غير معدن البطولة والجبروت، لأن النفس الآدمية تقابل هذه الفاجعة من نواحي شتى وصلت كلها إلى غاية المدى وقصارى الاستقصاء. ولا ريب أن الفجيعة الكبرى بين هذه الفجائع المتفرقة التي التقت في شخص واحد كانت هي فجيعة الأم أو فجيعة الأمومة البالغة في القسوة والإيلام

شهد القاهريون (نور ماشيرر) وهي تمثل فجيعة ماري أنطوانيت يوم جاءها وكلاء الثورة يأخذون منها طفلها الصغير وسلوتها العظمى في بلاء السجن وبلاء الضنك والحرمان

فأما (ماري أنطوانيت) فالتاريخ لا يروي لنا أنها قد فعلت في ساعة توديع ابنها ما فعلته نور ماشيرر على اللوحة البيضاء، ولا أنها قد مانعت هذه الممانعة وتخبطت هذا التخبط وبكت هذا البكاء، ولكن الممثلة أرادت أن تجمع في هذا الموقف ما تفرق في أعوام من الحنان المفجوع والعطف المطعون، فبالغت هذه المبالغة التي صدقت بها الفن وإن لم تصدق التاريخ فقد ثبت في الأسانيد الصحيحة أن هذه الأم الوفية ضيعت نفسها مرات وأعرضت عن كثير من وسائل النجاة في سبيل الطمأنينة على وليدها الصغير فلما فشلت خطة الهرب إلى (فارين) وأصبح استئناف السير في المركبة

المقفلة ضربا من المستحيل عرض عليها بعض الأنصار المخلصين ركوب الجياد في المسافة القصيرة الباقية بينهم وبين الحدود قبل إطباق الثوار والجنود، فأبت هذا الاقتراح مخافة على ابنها أن تصيبه رصاصة من بعض الجند، لا يأمن التعرض لها على ظهر جواد كما يأمنها في المركبة المقفلة أو الركب المجهول ولما دبر الملكيون إخراجها من السجن وإخراج ابنها وبنتها معها في أسمال العامل الذي يوقد المصابيح مع أولاده الصغار فشلت هذه الخطة في اللحظة الأخيرة، ثم قيل للملكة إنها تستطيع الهرب وحدها على أن تترك ابنها وابنتها ولا خوف عليهما كما يخاف عليها هي من جراء المحاكمة والاضطهاد. فأبت كل الإباء وآثرت البقاء مع ولديها على النجاة وحدها وهي لا تعلم مصير هذين الطفلين ولما ألح عليها المحامي أن تسأل المحكمة الثورية تأجيل يوم المحاكمة ريثما يستعد للدفاع ويفرغ من مراجعة الأوراق رفضت إلحاحه وأصرت على رفضها مخافة أن يكون اعترافها بحكومة الثورة بمثابة النزول عن حق ولدها في وراثة التاج. فعاد المحامي يحتال عليها من ناحية حنان الأمومة، ويذكرها أن حياتها مطلوبة لولدها لا لنفسها، واسترسل في هذا الإغراء فلم يتحدث طويلاً على هذه النغمة حتى أقلعت عن عنادها وثابت إلى القبول وكتبت خطابها المحفوظ الذي جمعت فيه بين الحيطة والإصغاء إلى رجاء المحامي، فأفرغته في قالب الإخبار والعمل بنصيحة المحامي كأنما هو مكتوب على لسانه لا على لسانها حتى يتحقق به الإبلاغ ولا يتحقق به الاعتراف والكارثة الكبرى يوم ضبط ابنها الصغير بعد فصله منها وهو يعبث العبث الذي لا يعرف في مثل سنه الباكرة، فلما روّع بالسؤال عمن علمه هذا أجاب على عادة الأطفال: إنها هي أمه وعمته. . .! ثم حرضه المحرضون على الشهادة بما قال وبما أضافوه إليه من هراء لا يقبله العقل ولا يحتمله التصديق، فأنفت أن تجيب عن هذه التهمة وتجاهلتها حتى نبه بعض المحلفين رئيس المحكمة إلى هذا التجاهل فأعاد سؤالها فلم تزد على أن تقول: (إذا كنت لم أجب فإنما أبيت الجواب، لأن الطبيعة تأبى أن تجاب تهمة كهذه توجه إلى أم. وإني لأحيل الأمر في هذه المسألة إلى جميع الأمهات الحاضرات في هذا المكان)

فشعر أعضاء المحكمة وشعر دعاة الاتهام معهم أن الضربة فائلة، وأنهم ما صنعوا بها إلا أن قربوا بين هذه الأم وبين جميع الأمهات والآباء، فسرى في الحاضرات

والحاضرين شعور العطف عليها والرثاء لما أصابها، وما كانوا حاضرين إلا للشماتة والازدراء وقد كان آخر ما صنعته بعد صدور الحكم بموتها ويقينها أن وليدها لم يبق له بعدها من يشرف على أمره غير عمته المسجونة، أنها كتبت إلى تلك العمة ترجوها الصفح عن الغلام وتعتذر له بصغر سنه وسهولة إغرائه، وتوصيها به خير الوصاة

لقد كانت مصيبة الأم في حياة ماري أنطوانيت أظلم المصائب وأشدها حلكة وسواداً، ولكنها كانت أنصع الصفحات في سيرة هذه الملكة المنكودة والمرأة المبتلاة، وإن تلك الصفحة وحدها لكفيلة بخلق (الفاجعة الكبرى) في هذه السيرة النادرة بين سير النساء.

في شهر واحد عرضت دور الصور المتحركة بالقاهرة روايتين متشابهتين في كثير من السمات والمعاني، وإن كانت إحداهما في باريس والأخرى في بتروغراد، أو كانت إحداهما في القرن الثامن عشر والأخرى في القرن العشرين، أو كانت إحداهما عن لويس السادس عشر والأخرى عن القيصر نقولا الثاني

كتبنا مقالنا الماضي بالرسالة عن (مارى أنطوانيت) فلم تمض أيام حتى شهدنا رواية (راسبوتين والقيصرة) وشهدنا كيف تتشابه الحوادث والنكبات، وكيف يصدق في بعض الأحايين قول من قال إن التاريخ يعيد نفسه، وإن كانت الإعادة لا تخلو من تبديل وتنقيح: شيمة الراوية الماهر الذي لا يعيد القصة الواحدة مرتين بأسلوب واحد!

في مأساة لويس السادس عشر ومأساة نقولا الثاني مشابه كثيرة يرجع بعضها إلى المصادفات وبعضها إلى تشابه النتائج عند تشابه الأسباب

فكانت لكليهما ملكة أجنبية من أصل ألماني، وكانت لكلتا الملكتين يد في الكارثة التي حاقت بالرجلين، وكان التاريخ في كليهما يجرى على سنة (الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) ولا يعمل بآية العدل في القرآن الكريم: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)

فقد كان نقولا الثاني مظلوماً فيما أصابه كما كان لويس السادس عشر كان كلاهما طيباً رؤوفاً يريد الخير لشعبه؛ وكان نقولا الثاني محباً للسلام ينادي بالتحكيم في الأزمات الدولية؛ وكان يجنح إلى مشاركة الأمة إياه في تبعات الحكم ما استطاع، وكان منقاداً لمن حوله كما كان لويس من قبله، ولم يكن مشاكساً ولا بطاشاً يحب الفتك وسفك الدماء، ولكنه جاء في زمن وبيل فأصابه وبال الزمن وأخذه مع التيار الجارف الذي لا يتأنى ولا يتدبر في حكمه على الجناة والأبرياء

ليست هذه هي المشابهات الهامة في تاريخ الرجلين المظلومين، فربما كانت أو كان معظمها من أثر العوارض والمصادفات، ولكن المشابهة العظمى هي تلك (الحالة

العقلية) التي تحيط بالعوالم المنهارة والدول الدائلة والكواكب الآفلة، ونعني بها العهود التي تجمع بين الأدبار والإقبال وبين النظر إلى الغيب والخوف من الحاضر وقلة الاطمئنان إليه

في تلك العهود يحس الناس أنهم ضعاف عاجزون، لأن زمام الحوادث يفلت من أيديهم وتيار الحوادث يجرفهم على غير إرادتهم إلى غير الطريق الذي يختارونه لأنفسهم، فهم من أجل هذا الإحساس بالعجز والضعف ينظرون إلى الغيب ويتطلعون إلى عالم الأسرار ويؤمنون تارة بالقديسين وتارة بالمشعوذين، على قدر نصيبهم من العلم والبصر بحقائق الحياة

وفي تلك العهود يضمحل الأمل ويغلب اليأس ويبطل الإيمان بالمثل العليا والصفات الرفيعة فيقبل الناس على المتعة والسرور، ويأخذون من الحاضر كل ما يعطيهم من اللذة واللهو، لأنهم لا يرجون غداً ولا يركنون إليه

وقد تجمع النفس بين النقيضين: فهي مغراة بالشعوذة والنظر إلى المغيبات المجهولة، وهي مغراة باللذة في حاضرها؛ لأن الحاضر بغير شاغل من الشواغل لا يطاق في أمثاله تلك الأزمان

إنما المراجع في طلب الغيب وطلب اللذة معاً إلى سبب واحد، وهو أن الحاضر مشؤوم والمستقبل غير مضمون، والإنسان بينهما عاجز عن التصرف بمشيئته فيما يزاول من كبار الأمور وصغارها على السواء من أجل هذا ظهر (كاليسترو) الدجال الأعظم في عهد لويس السادس عشر ومن أجل هذا ظهر (راسبوتين) الدجال الأعظم في عهد نقولا الثاني وكلاهما دليل على تشابه الحوادث والدوافع النفسية بين بني الإنسان وكلاهما دليل على أن التشابه في بني الإنسان لن يمحو الفوارق بين الشعوب، ولن يزيل الخصائص القومية التي اشتهر بها كل شعب من تلك الشعوب فراسبوتين لم يكن يصلح في مكان كاليسترو. . . وكاليسترو لم يكن يصلح في مكان راسبوتين

راسبوتين ظهر بين الروس وهم أمة لا شرقية ولا غربية، لا مؤمنة كل الإيمان بالدين، ولا مؤمنة كل الإيمان بالوثنية، لا متحضرة بحضارة العلم الحديث، ولا مستغرقة في البداوة أو جهالة القرون الوسطى فظهر لما ظهر بين هؤلاء القوم برسالة

من الدين ومن الوثنية في وقت واحد، أو برسالة من الشعوذة ومن اللذة في عقيدة واحدة، أو برسالة يمت بعضها إلى زهادة المسيح ومت بعضها إلى المزدكية القديمة، وإلى عبادة (عشتروت) التي هي أقدم منها، وإلى ما قبل ذلك من المذاهب الخفية التي لم تنقطع بقاياها قط في الرقعة الغربية الجنوبية من القارة الأسيوية؛ أي في ذلك المكان المعزول الذي تصل إليه آثار الحضارات جميعاً في آسيا وأوربا وأفريقيا، ثم يحفظها جميعاً في عزلته المطوية بعد أن يصبغها بماله من صبغة قلما تمسحها الأجيال

في تلك الرقعة بقيت عبادة الشيطان، وبقيت الشواذ من فرق الباطنية، وبقيت تلك النحلة التي تبيح في تكاياها وصوامعها باسم الدروشة الإسلامية ما ليس يرضاه دين من الأديان الكتابية، وبقيت نحلة (الخليستي) التي انتمي إليها آخر الأمر (راسبوتين) وكانت أصلح ما ينتمي إليه رجل يدل نعته القديم على طبعه القديم. فإن (راسبوتين) كلمة روسية معناها الفاجر أو الداعر... وهو لقب اشتهر به الرجل في شبابه من جراء عبثه وعيثه واستهتاره بالشراب والفسوق

ما هي هذه (الخليستية) وما عباداتها وشعائرها المفروضة على أتباعها؟

هي نحلة مدارها على أن الخطيئة مطلوبة لأن الغفران صفة إلهية فينبغي أن تتحقق لله هذه الصفة التي هي أخص صفات الخالق جل وعلا. وإلا فكيف يكون الله غفوراً بغير الخلائق الخاطئين؟ ومدارها من جهة أخرى على أن الإنسان يعيش بالروح مع الله ويعيش بالجسد مع الناس، وأن لله قديسين هم الذين يقودون عباده في طريق المعيشة الجسدية وفي طريق الغفران. فليس يحق للعبد أن يخطئ وحده بغير قيادة من قديسه المختار

وعلم راسبوتين (سلطانه المغناطيسي) العظيم على نفوس أتباعه فزعم أنه قديس الزمان المرسل من قبل الله لالتماس الغفران، فبغيره لن يهتدي أحد في (الطريق) إلى حظيرة الرحمن!

أما هذا (السلطان المغناطيسي) فقد كان في راسبوتين كأقوى ما عرف في إنسان من الناس، حتى بلغ من سطوته أنه سلطه على رجل يمقته وينصب حوله الفخاخ لقتله بالسم أو الخنجر فأنامه وشل حركاته. ولا ريب أن هذا السلطان المغناطيسي مستمد

فيه من تلك القوة الحيوانية الهائلة التي أنقذته من السم ومن الخنجر مرتين، وكادت تنقذه المرة الثالثة لولا إطباق المتآمرين عليه بالعصي والسيوف بعد إطلاق الرصاص عليه وتسميمه بما يكفي لقتل بضعة رجال، ولا ريب كذلك أن هذا السلطان المغناطيسي هو الذي أعانه على شفاء ولي العهد بالسيطرة على أعصابه وسريرته بعد ما يئس منه الأطباء وأنذروا بموته من أثر سقامه الموروث بهذه العدة كان الدجال الروسي يستعد لإنجاز (مهمته التاريخية) في ذلك العالم المنهار من الدولة الروسية

فبماذا استعد زميله (كاليسترو) من قبله حين تصدى (لمهمته التاريخية) بين الفرنسيين في عصر الفلاسفة المشككين والدعاة الملحدين الثائرين؟

لابد له من عنصر الغيب والخفاء، ولا سبيل إلى هذا العنصر من طريق النحل الدينية في تلك الآونة الملحدة المستريبة، فلينقل أتباعه إذن إلى صوامع الماسون وهياكل الجماعات السرية ومكامن الدسائس والمؤامرات ولابد له من عنصر الغواية والمتعة، ولا سبيل إليهما من نحلة الدروشة والعبادة، فليسحر أتباعه إذن باسم عقاقير الشرق التي تجدد الشباب وتطيل العمر وتكسو غضون العجائز مسحة الصبا ورونق الصباحة

وهكذا كان لكل (عالم منهار) دجاله الأعظم، ومن ثم موضع التشابه بين العوالم المنهارة

وهكذا كان دجال كل أمة على غرارها أو على نموذج أخلاقها وأطوارها، ومن ثم موضع الخلاف بين تلك الأشباه

وإنما عبرة التاريخ أن نخلص إلى هذه المواضع المتشابهات، وهذه المواضع المختلفات من حوادث الشعوب في قبضة القانون الخالد المستعاد.

كتاب مصطفى كامل

الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك جدير أن يسمى بحق مؤرخ النهضة القومية الحديثة، لأنه أرخها في مرحلتها التي بدأت بالحملة الفرنسية، وأرخها في مرحلتها التالية التي بدأت بقيام محمد علي الكبير على الأريكة المصرية، وصحبها فيما أعقب ذلك من المراحل إلى عهد الثورة العرابية فالاحتلال البريطاني فالحركة الوطنية في عهد هذا الاحتلال

وها هو ذا قد تأدى في تاريخه لها إلى ختام القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أي إلى الفترة التي ظهر فيها زعيم الوطنية في أبناء ذلك الجيل مصطفى كامل باشا رحمه الله

ونهج الأستاذ الكبير في كتابه عن مصطفى كامل شبيه بنهجه في الكتب المتقدمة من حيث الطريقة والوجهة، يتتبع الوقائع ويستقصي ما احتاج إليه من الأسانيد وينصف في الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات أو تجميل المحاسن في بعض الجوانب، وسهولة في التعليل والتعليق لا تثقل على ذهن القارئ ولا تكتفي مع ذلك بالظواهر دون ما يلازمها من الأسباب والعواقب

إلا أنه في كتابه عن مصطفى كامل قد اقترب من ميدان الحياة الحاضرة أو من معترك السياسة الذي يعيش فيه، فكان لذلك آثره في الميزان دون قصد في بعض الأحيان، وعلى قصد ظاهر في بعض الأحيان

ولتوضيح ما نقول نرجع إلى الحركة الوطنية ومذهبيها المختلفين بعد احتلال الإنكليز لهذه البلاد فقد كانت الدعوة الوطنية كما قلنا في كتابنا عن سعد زغلول (شعباً مختلفات في المقصد والنتيجة المأمولة، فمنها ما كان يتجه إلى الدولة العثمانية، ومنها ما كان يتجه إلى فرنسا لأنها أكبر الدول التي كانت تناوئ في مطامعها الشرقية، ولم يشترك مع هؤلاء ولا هؤلاء حصفاء الثورة العرابية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال. فقد رأى رجال هذا الفريق ما

هو حسبهم وزيادة في هذه الآمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة، فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد الممهد لهم وهو طريق النهضة المصرية الصميمة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال، وتزويد الأمة بعدة العلم واليقظة والمثابرة، لأنه ما من وسيلة إلى الاستقلال في رأيهم أنجع من وسيلة فهمه والاستعداد له والإصرار على طلبه. ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول).

هذان هما المذهبان اللذان شاعا من مذاهب الحركة الوطنية بعد الاحتلال: مذهب مصر للمصريين، ومذهب الاعتصام بالسيادة العثمانية، أما لأنها دولة الخلافة، أو لأن السيادة العثمانية (حجة شرعية) لمحاربة الغاصب وإظهار مركزه (غير المشروع)

ولا يخفى أن مصطفى كامل رحمه الله كان من أنصار السيادة العثمانية، وكان يذكر الاستقلال ولا يذكر الاستقلال التام، وكان يقيم المحافل كل عام في عيد جلوس (المتبوع الأعظم) عبد الحميد سلطان آل عثمان ليؤكد ولاء المصريين للسيادة العثمانية. وقد انشأ الحزب الوطني فكان المبدأ الأول من مبادئه (استقلال مصر كما قررته معاهدة لندرة سنة 1840، ذلك الاستقلال الذي يضمن عرش مصر لعائلة محمد علي مع الاستقلال الداخلي عن تركيا).

وكان المبدأ العاشر من مبادئه (تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية).

ولبث أشياع مصطفى كامل على هذا الرأي حتى كتب اللواء يعيب على الأستاذ الكبير (أحمد لطفي السيد بك) أنه يطالب بالاستقلال التام ويخرج بذلك على أحكام القانون وعلى سنة الولاء للسيادة العثمانية، فاضطر الأستاذ يومئذ إلى التفرقة بين الاستقلال التام والاستقلال الكامل توفيقاً بين ما يدعو إليه وبين الصيغة الشرعية

ثم لبث أشياع مصطفى كامل على هذا الرأي إلى ما بعد الحرب العظمى وبعد الثورة الوطنية التي أعقبتها، فحولوا الأمر إلى أصحاب السيادة في الآستانة ثم في أنقرة، كأنهم هم الأصلاء وليس للمصريين أن يبرموا أمراً في هذه السيادة إلا بعد إبرام الأصلاء رأيهم في موضع الخلاف!!

وقد تعاقبت الحوادث وتمخضت الآراء فظهر بعد حين موقع الصواب من المذهبين، وضعفت حجة السيادة العثمانية شيئاً فشيئاً حتى أصب الجيل الحاضر يعجب كل العجب كيف كان هذا الرأي في يوم من الأيام موضع خلاف!!

وقد كان الأنصاف التاريخي يقضي ببيان هذه لحقيقة في تاريخ مصطفى كامل ولا يمنع المؤرخ أن يفصل أعذار المعتصمين بالسيادة العثمانية في ذلك الحين، بل يوجب عليه أن يذكر هذه الأعذار وإن يذكر معها صواب المخالفين ولا سيما حين يشعر أنه صواب

ولكننا بحثنا في كتاب مصطفى كامل فلم نر فيه إشارة إلى هذا أو ذاك، وكأنما غلبت عليه النزعة الحزبية على النصفة التاريخية فوجدنا أن الأستاذ الكبير قد اغفل الموضوع كل الإغفال، فلم يذكر محافل المتبوع الأعظم ولم يذكر حملة اللواء على طلاب الدستور والحرية في البلاد العثمانية، وكتب أكثر من عشر صفحات عن تأسيس الحزب الوطني مفصلا أسماء أعضائه وأقوال الصحف فيه دون أن ينشر مبادئه أو يأتي بالمهم منها وهي أهم ما يثبته المؤرخ في سيرة زعيم حزب من الأحزاب

ولو أنه فعل هذا لأقر الحقائق في نصابها وأتاح للقارئ أن يحيط بمعاني الحركة الوطنية من جميع نواحيها، وإن يستخرج العبرة المقصودة بالتاريخ من صواب أو خطا لكل فريق، وما من فريق واحد معه كل الخطأ أو كل الصواب

وبينما الأستاذ الكبير ينسى هذه الحقائق التي لا يبطلها النسيان إذا به يأخذ بالظنون التي لا سند لها ولا معول عليها فيما يكتبه عن سعد زغلول فيقول عن علاقة سعد بالجامعة المصرية (وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال لكي يحبط المشروع، وقد أصابه الفتور والركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة، وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين بإيعاز من الاحتلال أيضاً حركة إنشاء الكتاتيب واستحثت الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها معارضة بذلك مشروع الجامعة).

ثم أشار الأستاذ الكبير إلى مسألة التعليم باللغة العربية فقال (وقد كانت خطبته - أي خطبة سعد - دفاعا عن سياسة الاحتلال في التعليم. لأن الاحتلال هو الذي احل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية...)

تبين أن انسحاب سعد زغلول من رياسة الجامعة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال... يا عجباً! كيف تبين ذلك؟ ومن أين جاء ذلك البيان؟

أما الحقيقة فهي أن الحكومة تبرعت للجامعة بالمال واعترفت بشهاداتها كما تعترف بشهادات المدارس الأميرية. وسألنا سعداً في ذلك فقال في بيان نشرناه في كتابنا عنه: .
.)

كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصري بأجمعه، وليس هذا كله كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فإن اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلا الإقبال عليها إقبالاً لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل، وربما لا تنسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة إعانة المشروع مادياً، فرفضهم الآن إشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها بعد من الغرابة بمكان).

هكذا كان موقف سعد من الجامعة وهو وزير، وأنه لأصوب ألف مرة من موقف الداعين يوم ذاك إلى إحباطها وتشكيك الناس في مصيرها. أما إنشاء (الكتاتيب) واعتباره حرباً للجامعات والمدارس العليا فقد عشنا بحمد الله حتى رأينا الدستور المصري يفرض التعليم الإلزامي فرضاً ويجعله واجباً من الواجبات الوطنية، وعشنا بحمد الله حتى علمنا أن سعداً قد سبق النهضة القومية سنوات إلى ذلك العمل المجيد الذي كان محسوباً يوم ذاك من الجنايات

ومن السهل على الإنسان أن ينق سعداً حين يعارض الهجوم على تقرير التدريس باللغة العربية في جميع المدارس المصرية قبل إعداد الكتب وإعداد المدرسين والنظر في عواقب هذا التبديل؛ ولكن من السهل أيضاً أن يعلم الإنسان أن المستطاع هو المستطاع وإن سعداً قد عمل في سبيل اللغة العربية والتمهيد لتدريسها جهد ما يعمله

وزير في تلك الأيام، وإن مدرسة مصطفى كامل نفسها لم تكن تستغني بالمدرسين المصريين عن المدرسين الإنكليز، اعتماداً على ما كان يقال في ذلك الحين من أن تدبير الدراسة والكتب المدرسية ليس بالأمر العسير.

هذه ملاحظاتنا على موازين الأستاذ الرافعي في تاريخ هذه الفترة، فهو يمسح من هذا التاريخ كل ما يبين وجه الصواب عند من خالفوا صاحب السيرة في الأساس أو التفصيل، ويثبت من جهة أخرى ظنوناً لا ثبوت لها لتقرير الصواب في جانب المؤيدين والمناصرين.

ومع هذا نقول أن مكتبة (النهضة القومية) لا تكمل بغير كتاب الأستاذ عن مصطفى كامل،لأنه يشتمل على وقائع صحيحة وأسانيد صادقة وملاحظات قيمة. أما المواضع التي ينحرف فيها بعض الانحراف عن سنته في الإنصاف والتمحيص، فليس للقارئ أن يطلب الحق كله من كتاب واحد، ولا سيما في تاريخ تختلف فيه الميول والآراء.

حرب الأجيال

أعلن الناقد الإنجليزي (فرانك سوينرتون) في صحيفة (الأوبزرفر) عن قرب صدور الكتابين الجديدين للمؤلفين الكبيرين (ولز) و (موجهام) فقال في مقدمة كلامه:

(هناك تناقض يغري بالتساؤل بين موقف العصريين وموقف الجيل الفكتوري حيال الكتاب النابهين. فقد كان هؤلاء الكتاب يحاطون بالإجلال المرهوب حين ينتهون إلى الشيخوخة ويقلعون عن التأليف، وكانوا قبلة التبجيل والتشريف والحجيج من سائر البلاد. أما اليوم فنقيض ذلك هو الواقع: اليوم يلبث كتاب الأمس في الميدان ولا يخرجون منه ولا يتطلعون إلى إجلال مرهوب أو يستقبلون التبجيل والتشريف، وكل شاب ذي ملكة موهوبة يقتضيهم الثناء السخي والتشجيع ولكنه يرى لنفسه حقاً في الإنحاء عليهم واتهامهم بالوقوف في طريق الثورة الأدبية)

هذه حرب الأجيال التي يتحدثون عنها في البلاد الأوربية، ويقصدون بها قيام جيل من الكتاب والأدباء وراء جيل، ومحاولة الجيل الجديد أن يفسح له مكاناً إلى جانب الأعلام النابهين في ميدان الأدب والتأليف

وهذه الحرب قديمة لم تنشأ في زماننا هذا ولا في الزمان الذي قبله وإن اختلفت فيها الدعاوى والأساليب , ولكنها اشتدت في الجيل الحاضر لعوامل جديدة طرأت عليها: منها التزاحم العنيف، ومنها أن النظرة إلى (الماضي) اختلفت بين العهد الفكتوري والعهد الحاضر، أو بين أوائل القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

كان التوقير حقا للماضي، لأن الناشئين كانوا ينتظرون منه كل شيء ويتجهون إليه إذا أرادوا العلم والخبرة والحنكة والهداية

أما اليوم فقد جدت مشكلات نفسية واجتماعية ليس للماضي فيها تصريف ولا احتيال، ولا يتجه فيها أحد إلى الماضي ليعرف ما عنده لها من علاج وتدبير، لأنها لم تكن معروفة فيه ولم تكن معروضة على أهله، فتحول الاتجاه من الماضي إلى المستقبل، وبطل ما كان مألوفا مقررا للماضي من التبجيل والتشريف

هذه المشكلات هي سر الحياة وسر الأزمات العالمية وسر القلق والاضطراب في علاقات الاجتماع ليس للماضي فيها تصريف ولا احتيال. فهل التصريف والاحتيال فيها للحاضر؟ وهل هما للمستقبل القريب أو البعيد؟

كلا! التصريف والاحتيال فيها للزمان وللعمل المشترك بين جميع الناس من شيوخ وكهول وشبان وأطفال لا يزالون في المهود أو لا يزالون في الأصلاب

وهل يرجى أن يجيء على الدنيا عهد من العهود خلواً من المشكلات التي تطلب الحلول ولا ينفرد بحلها جيل واحد من الأجيال؟

كلا! إن هذه المشكلات لا يحلها الحاضر ولا المستقبل برأي هذا أو باحتيال ذاك، ولكنها تنحل مع الزمان تارة بالعمل المقصود وتارة بأعمال كثيرة غير مقصودة، ولا تزال طبقة منها وراء طبقة على مدى السنين

هذه هي الحقيقة التي يجهلها بعض المتعجلين. وليس من غرضنا في مقالنا هذا أن نسهب في توضيحها وتمحيص نظرات الناظرين إليها، وإنما أردنا أن نشير إلى العامل الجديد الذي أضاف بعض الشدة والعنف إلى حرب الأجيال، وأدى إلى ذلك الموقف الذي لخصه (فرانك سنوينرتون) فيما تقدم

يوشك من يقرأ كلمة الناقد الإنجليزي ويذكر ما يكتب في مصر وفي بعض الأقطار العربية أن يبادر فيقول: (إن بعض الحال من بعض) أو (الحال من بعضه) كما يقول العامة في البلاد المصرية...

فإن قال قائل مثل هذا فهو مخطئ، لأن الحال الذي يحسب (بعضه من بعض) لمختلف أبعد اختلاف.

هناك يتكلمون عن الشيوخ الذين أنافوا على السبعين، وهنا يطالبون الكهول فيما دون الخمسين بالسكوت والانزواء.

هناك يأتي بعد جيل (ولز) جيل هكسلي وهو في الرابعة والأربعين، ثم يأتي بعده جيل الشبان الناشئين وهم في نحو الثلاثين، وهنا لا يتجاوز الشاب العشرين حتى

يتعجل الشهرة بل يريدها له وحده خالصة دون أبناء الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، بل دون زملائه الآخرين من أبناء العشرين.

هناك يؤلفون ويبتدعون ويزاحمون الرأي بالرأي، والنهج بالنهج، والتفكير بالتفكير؛ وهنا لا يؤلفون ولا يفكرون ولا يقرءون، ولا يزيدون على إبراز شهادة الميلاد والترنم بما يسمونه حقوق الجيل الجديد.

هناك يثبون إلى المستقبل فيسبقون، وهنا يرجعون إلى الوراء ويشبهون الببغاوات في ترديد الصياح القديم.

أضف إلى هذا أموراً أخرى تختلف فيها البواطن والظواهر ويؤجر عليها القادحون في مشاهير الكتاب لغرض ليس بالصريح ولا بالشريف.

فهم تارة مأجورون لأصحاب المطامع السياسية الذين يريدون القبض على أعنة الدعوة في بلاد المشرق، فلا يملكون هذه الأعنة والمشاهير من الكتاب قائمون مسموعون، فيبذلون ما في وسعهم للغض من أولئك الكتاب والتطاول عليهم بالصياح والضجيج الذي قد يروج بين الأوشاب والأغمار، لأن الأوشاب والأغمار لن يطلبوا دليلاً ولن يميزوا ما يسمعون.

وهم تارة مأجورون للشيوعيين الذين ينادون بالأدب الدارج أو أدب اللغة العامية لأنه أدب (الصعاليك) وهم يبشرون بدولة الصعاليك ولا يسرهم أن ترسخ في المشرق العربي آداب اللغة الفصحى ولا الآراء التي تناقض ما يدعون إليه من فوضى وابتذال، بل لا يسرهم أن تستقر في الأقطار العربية مكانه مصر خاصة لأن مصر خاصة قبلة المأثورات الموقرة من التاريخ القديم، فإذا هدموا مكانتها فقد زال من طريقهم هذا المعقل الحصين وتمهدت الأرجاء بطاحا ذلولا ليس فيها ما يعوق نعيب ماركس وخليفته لنين، وصاحبيه تروتسكي وستالين.

فإذا لم يكونوا مأجورين لأصحاب المطامع أو للشيوعيين فهم مغرورون يتهافتون على الشهرة ولا يتذرعون لها بأسبابها ولا يرجعون إلى ما فيهم من نقص وكسل وعجز عن الكفاح، بل يفضلون التعلل بالأسباب الواهنة والدعاوى الكاذبة والحجج المسلية التي تشبه الأفيون في التخدير والإرضاء وتشبهه في هدم القوى وتخريب الأذهان

وكثيراً ما تسمعهم يقولون: كيف تأتينا الشهرة وهؤلاء الكهول أو الشيوخ يحتكرون ثناء الصحف السيارة ويستأثرون بميدان الدعوة والتأليف؟

وهذا بعينه هو الأفيون إن لم نقل هو أخبث من الأفيون في الكذب والتحطيم , فقد صدر في مطلع هذا العام كتب ثلاثة لمن يسمونهم بالكهول والشيوخ وهم طه حسين واحمد أمين وكاتب هذه السطور. فكم نهراً من أنهر الصحف اليومية قرأوه في تقريظ هذه الكتب أو في الإشارة إلى صدورها؟

لا أذكر أنني قرأت شيئاً ذا بال في الصحف اليومية عن كتاب طه حسين (مستقبل مصر الثقافي) أو كتاب أحمد أمين (فيض الخاطر)

أما كتابي رجعة أبي العلاء فقد ظهر وأوشك أن يباع نصفه ولما تذكر صحيفة يومية واحدة أنه صدر من المطبعة مجرد صدور... والكتب مع هذا تسير في طريقها وتلقى حظها من الذيوع

فالواقع أن جيل الأدباء الكهول في مصر جيل لا يدين لأحد بما أصاب من شهرة ومكانة، وهو في هذه الخصلة جيل فريد بين أدباء العالم من أقدمين ومحدثين , فالأدباء الأقدمون كانوا يعولون على النصراء والمشجعين ويعتمدون على الخلع والهبات

والأدباء العصريون في أوربا يعولون على دعوة الناشرين وإقبال الملايين من القراء في لغاتهم وفي اللغات الأخرى التي يترجمون إليها

أما أدباء الكهول والشيوخ المصريون فلا نصراء ولا هبات ولا دعوة ناشرين ولا ملايين قراء، وكل ما هنالك حسد واضطغان واستهداف للبذاء من مأجوري الشيوعيين ومأجوري أصحاب المطامع ومن تقعد بهم الرخاوة عن الجد والكفاح

فماذا كانوا لاقين يا ترى لو أصابوا من الكسب والشهرة ما يصيبه برناردشو أو ولز أو موجهام أو لدفيج من طبعة واحدة لكتاب واحد يباع للقراءة ويباع للتمثيل ويباع للصور المتحركة ويباع للترجمة في بضع لغات!

وما أحسب إلا أننا كنا نمشي يومئذ في الطريق فيخرج علينا الكامنون من (نابغي الجيل الجديد) بالمسدسات والسكاكين!!

هذه هي حرب الأجيال عندنا لا يقال في وصفها أصدق من أنها لعب أطفال، أو مكيدة أنذال، أو سفاهة جهال؛ وليس من ورائها نفع للأدب العربي ولا لمن يحاربون في ميدانها بذلك السلاح المفلول؛ ولن ينهزم فيها أناس انتصروا على الزمن وعلى الجهل وحدهم بغير معونة من حكومة ولا دعاة، ولا محاباة من الجماعات أو الأفراد الأقوياء، بل على الرغم في معظم الأحايين من الإجحاف والعداء يلقاهم بهما جميع هؤلاء. فأحرى بهم ألا ينهزموا اليوم في ميدان مأمون لا يقابلهم فيه جيش ولا جنود، ولا سلاح ولا بنود، إلا اللجاح والهراء ودسائس الجبناء في الجهر والخفاء.

يهتمون به فهل يعرفونه؟

العصر الحاضر من العصور التي اشتد فيها الاهتمام بالعالم الإسلامي بين جميع الدول الكبرى لأن هذه الدول على وشك القتال، وتعلم كل منها ولا ريب أنها غانمة رابحة، وأنها كبيرة الأمل في النصر إذا ظفرت من اليوم بمودة الشعوب الإسلامية؛ وهي موزعة في المواقع التي تحوم حولها المطامع ويتأشب فيها النزاع

فاليابان تنادي بمبدأ (آسيا للأسيويين) وتعني بذلك أن (آسيا لليابانيين) وتعرف ما تكسبه في أسواق التجارة وفي ميادين الحرب إذا هي استمالت إليها مسلمي الصين والهند وما وراءهما من أواسط آسيا، فضلاً عن المسلمين في جزر الهند، وهم أصحاب شأن عظيم في تلك الأرجاء والولايات المتحدة لا يسعها أن تنسى الاهتمام بشيء يهتم به اليابانيون، وبخاصة كل شيء تكون له علاقة بالصين والفليبين وشواطئ المحيط الهادي في عدوتيه والدولة الشيوعية الكبرى - وهي الروسيا - تقف لليابان بالمرصاد في القارة الآسيوية، وتتودد إلى المسلمين هناك، وهي حائرة لا تدري هل تهدم الشعائر الدينية تطبيقاً لمذهبها فتغضب المسلمين وتدفع بهم إلى أحضان خصومها، أو تبقي على الشعائر الدينية فتغضب دعاتها ولا تستطيع التوفيق بين برامجها في الأرض الروسية وبرامجها في البلاد التي تصاقبها وتبادلها المعاملات التجارية والسياسية.

ولا تتخلف (الفاشية) في المضمار، بل يبرز على رأسها (موسوليني) منادياً بأنه (حامي) الإسلام ونصير المسلمين، ولو كان على نصيب من (الحذق الاستعماري) أوفى من هذا النصيب لعلم أن الإيمان بالدين وقبول حمايته من غير أهله نقيضان في المنطق والشعور على السواء، ولاسيما من وجهة النظر الإسلامية التي تفرض على المؤمن بها حماية نفسه في وجه المغيرين عليه

أما الدول الديمقراطية فهي تقابل المساعي اليابانية والمساعي الشيوعية والفاشية بالتوجس والحيطة، وتريد أن تقاومها فتعمد إلى عقد المحالفات وفض المشكلات وتوحيد المصالح

بينها وبين العالم الإسلامي في حالتي الهجوم والدفاع، وتفتح لها الطريق في هذا المجال بريطانيا العظمى ثم الجمهورية الفرنسية

والعالم الغربي يعتقد اليوم أن (العالم الإسلامي) يتحفز ويتوثب، وأنه قوة رشيدة لا تعمل معاملة القاصر التابع لغيره، ولا مناص من حسبان حسابها لمن تربطه بها علاقة قريبة

كتبت مجلة (التاريخ الجاري) في عددها الأخير مقالاً جعلت عنوانه: (محمد يتهيأ للعودة) وعقبت بذلك عنوان آخر فحواه أن المسلمين رقدوا خمسمائة سنة وهم يتحركون الآن ويتوثبون إلى السلطان

ثم قالت: (في جزائر الفليبين وفي الجامعات المصرية، في قصور الملوك الشرقيين وفي خيام التتار المرتحلين، على الكراسي البرلمان اليوغسلافي وبين أكواخ الزنوج عند الشاطئ الذهبي، في آجام أفريقيا وفي صحارى آسيا، يترقب السلمون كل يوم بل كل ساعة مطلع المهدي الذي يتجسد فيه محمد عليه السلام، وقد تيقظت قوة الإسلام واتخذت لها شكلا سوياً في عالم السياسة، ولا تزال (التعاليم المحمدية) سارية منتشرة بين الشعوب الملونة التي تجد من المقاربة بين إدراكها وبين هذا النوع من التوحيد ما ليست تجده في المسيحية أو اليهودية. وهنالك عامل آخر من عوامل هذه الحركة وهو إخصاب الشعوب الإسلامية وتوالدها. فإن الشعوب البيضاء تصاب بالعقم وقلة النسل بينما يتوالد المسلمون كالأرانب!)

وعلى هذا الاهتمام باليقظة الإسلامية وهذا الإيمان بقوتها هل تراهم يعرفون الحقائق عن الإسلام أو عن أخبار المسلمين الجوهرية؟

إن مجلة (التاريخ الجاري) من أوثق المجلات الأمريكية خبراً واصدقها بحثاً، ومع هذا ترى الخلط فيها بين نهضة الإسلام وبين ما تسميه انتظار المهدي الذي يتجسد فيه محمد علية السلام

وترى قبل ذلك أنها تمهد لمقالها فتقول: (في كل يوم من أيام الجمعات يقف خمسة وعشرون ألفاً من رعايا الولايات المتحدة خاشعين مكتوفي الأيدي متوجهين إلى الشرق يصلون إلى الله ويسألونه قرب ظهور المهدي المنتظر. فإن أبناء الإسلام هؤلاء قد

حافظوا على عقيدتهم الغامضة في رجعة مسيحهم كمحافظة المائتين والخمسين مليوناً من إخوانهم الموزعين بين مراكش وجزائر سنداي وبين مدغشقر وأرض المغول)

فأين العلم بالإسلام وبنهضة المسلمين ممن يكتبون هذه الكتابة وهم محسوبون بين أبناء وطنهم ممن يحسنون الخوض في هذه الشؤون؟

على أن الجهل بالأخبار الواقعة لا يقل عن الجهل بالعقائد النفسية والشعائر الدينية، فقد كتبت مجلة أمريكية أخرى اسمها (أخبار الأسبوع) تقول بعنوان: (الخليفة فاروق):

(لما دخلت تركيا الحرب في سنة 1914 أعلن السلطان عبد الحميد (هكذا) باعتباره خليفة المسلمين الدعوة إلى الجهاد أو الحرب المقدسة على الحلفاء الكافرين، وقد فشلت هذه الدعوة ولكنها كلفت بريطانيا العظمى وفرنسا وهما تحكمان مائة مليون وستة ملايين من المسلمين نفقات جمة في مقاومتها بدعوة أخرى، وبذلت الدولتان تلك النفقات وهما خائفتان.

(ثم ألغى كمال أتاتورك الخلافة في سنة 1934 بعد إقصاء السلطان.

(ثم قام موسوليني ينادي بأنه حامي الإسلام ويستثير العرب على بريطانيا العظمى في فلسطين وغيرها من البلاد. وشاع أنه أراد بعض حكام العرب من أصدقائه على أن ينصب نفسه للمبايعة بالخلافة، وإن كان الأمل في نجاح الجهاد اليوم أضعف من ذلك الأمل في سنة 1914 مكتفياً بما تستطيع تلك الخلافة من المضايقة في بعض الأحوال).

وبعد أن أشارت المجلة إلى منافسة بريطانيا العظمى في هذه الحلبة قالت ما خلاصته أن صاحب الجلالة الملك فاروق بويع في الأسبوع الماضي بالخلافة في مسجد قيسون العظيم، وأن خمسمائة ضابط هتفوا فجأة للخليفة الفاروق! وأن أمراء العرب شهدوا ذلك الحفل كأنما كان شهودهم إياه من قبيل المصادفة.

هذه أمثلة من جهلهم بعقائد المسلمين وأخبار بلاد المسلمين، وهم يهتمون جد الاهتمام بنهضة المسلمين.

ويرجع هذا الخلط إلى أسباب: بعضها مقصود، وبعضها غير مقصود.

فمن الأسباب ما هو مقصود لأغراض سياسية أو تجارية كتمثيل المسلمين في صورة تسوغ للدول المستعمرة أن تعاملهم معاملة المتأخرين الذين لا يصلحون لقوانين الحضارة وقواعد الحرية

ومن الأسباب ما هو مقصود لأغراض فنية ونعني بها الرغبة في التأثير والإغراب وتشويق القارئ إلى العجائب التي لا يألفها في بلاده وبين أبناء وطنه. ومن الكتاب الغربيين من يتعمد التحريف في أخباره لأنه يخشى أن (يخيب أمل) القراء فيه إذا أصغوا إليه ليحدثهم عن شعوب الشرق وأحوال الإسلام فإذا هو يحدثهم بما يألفونه ولا يستغربونه ولا يحققون به تلك الصور المزخرفة التي طالما تخيلوها وحلموا بها وهم يقرءون ألف ليلة وليلة ويستعيدون ما نقل إليهم من أقاصيص الرحالين في الزمن القديم.

أما غير المقصود من الأسباب فمنشأه قلة الاكتراث وصعوبة البحث وعزلة المسلمين في العصور الماضية وسماع أخبارهم من جهلاء بينهم لا يفقهون أسرار دينهم ولا يبالون ما يهذرون به من عقائدهم وعاداتهم ولا يدركون الفرق بين ما تعودوه ودرجوا عليه وبين ما هو من حقائق الإسلام وشعائره الصحيحة.

على أن الذي يعنينا حق العناية هو أن نعلم نحن حقيقة الغربيين، لا أن يعلموا هم حقيقتنا، وينفذوا إلى الصحيح من أخبارنا ومقاصدنا، وإن كان علمهم بهذا نافعاً لنا كلما تيسرت وسائله في أيدينا.

والذي يبدو لنا من العلم بحقيقة القوم أن العالم الإسلامي خليق أن يعامل كل من يعامله منهم على سنة الإنصاف والمنفعة المأمونة العواقب، وكل ما ينبغي أن يحذره هو الإصغاء إلى دعاة الشيوعية والإصغاء إلى دعاة الفاشية، وأن يكون ذنباً في أعقاب الديمقراطية، فإذا استطاع أن يمشي مع الأمم الديمقراطية الحرة في الطليعة فلا عليه بعد ذلك أن يعامل من يشاء على سنة الإنصاف والنظر البعيد إلى العواقب الأمور.